المواعظ والمجالس

لأبى الفرج ابن الجوزى

(٥٠٨ـ٥٩٧ هـ ـ ١١١٤ ـ ١٢٠١م)

دراسة وتحقيق وتعليق

مجدى محمد الشهاوى

مكتبة الإيمان

المنصورة . أمام جامعة الأزهر

ت ٢٥٧٨٨٢

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م

مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع

المنصورة - أمام جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بين يدى الكتاب

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، فإنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً النبى ﷺ عبده ورسوله، وبعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد النبى المعصوم ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1] . . . ، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[2].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[3].

ثم أما بعد:

فقد اخترنا من تراثنا الإسلامى الطيب هذا العمل الجديد للإمام أبى الفرج ابن الجوزى رحمه الله وهو كتاب «المواعظ والمجالس» الذى يُعَدُّ دُرَّةً ثمينة فى مجال الوعظ والأخلاق ـ كغالب مصنفات ابن الجوزى رحمه الله.

مخطوطة الكتاب:

وقد عثرنا على نسخة مخطوطة للكتاب بقسم المخطوطات النادرة بدار الكتب

---

(١) آل عمران: ١٠٢ (٢) النساء آية: ١.

(٣) الأحزاب ٧٠، ٧١

المصرية تحت رقم (٩٧٦ ـ تصوف)

ومنها نسخة على الميكروفيلم رقم (٢٢ ١٥) وأخرى مكررة على الميكرو فيلم رقم (١٨٥٢٦)، وتقع فى نحو ١٦٥ ورقة، وهى نسخة جيدة الخط وقد لاحظنا أن فصول الكتاب ضَمَّتها مصنفات أخرى للمؤلف ، فتجد نفس المادة فى كتب «المدهش»[1] و«الأرج» [2] و«الياقوتة» وكلها لابن الجوزى ، وقد قمتُ بمقارنة مادة «المواعظ المجالس» مع المصنفات المشار إليها لتصحيح وتصويب مادة الكتاب واستدراك النقص

التعريف بالمُؤلِّف:

أما المصنِّف فهو العَلاَّمة الإمام عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى القرشى، (٥٠٨ ـ ٥٩٧ هـ = ١١١٤ ـ ١٢٠١ م) أبو الفرج، عَلاَّمة عصره فى التاريخ والحديث، مولده ووفاته ببغداد، ونسبته إلى «مشرعة الجوز» من محالها.

قالوا عنه:

قال ابن كثير: أحد أفراد العلماء برز فى علوم كثيرة وانفرد بها عن غيره، وتَفَرَّد بفن الوعظ الذى لم يُسبَق إليه، ولا يلحق شأوه فيه وفى طريقته وشكله، وفى فصاحته وبلاغته، وعذوبته وحلاوة ترصيعه، ونفوذ وعظه، وغوصه على المعانى البديعة، وتقريبه الأشياء الغريبة فيما يشاهد من الأمور الحسية بعبارة وجيزة سريعة الفهم والإدراك، بحيث يجمع المعانى الكثيرة فى الكلمة اليسيرة.

وقال ابن خلكان: كان عَلاّمة عصره وإمام وقته فى الحديث وصناعة الوعظ.

وقال الذهبى: ماعلمت أن أحداً من العلماء صَنَّف ما صنف هذا الرجل

وقد وصف الرحالة ابن جبير مجلساً من مجالس وَعْظه فقال: «وبكرنا لمشاهدته وقعدنا إلى أن وصل هذا الحبر المتكلم فصعد المنبر وأزاح طيلسانه عن رأسه تواضعاً لحرمة المكان، وقد تسطر قُرَّاء القرآن أمامه على كراسى موضوعة، فابتدروا القراءة على الترتيب، فشوقوا ما شاؤوا، وأطربوا ما أرادوا، وبادرت

---

(١) أصدرته دار الكتب العلمية ببيروت، بتحقيق الدكتور مروان قبانى

(٢) مخطوط، اقتنيت تصويره، وهو قيد الطبع بتحقيق لدى مكتبة التراث الإسلامى بالقاهرة

العيون بإرسال الدموع. . فلما فرغوا من القراءة، وقد أحصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات، صدع ابن الجوزى بخطبته الزهراء، وأتى بأوائل الآيات فى أثنائها منتظمات، ومشى فى الخطبة على فقرة آخر آية منها فى الترتيب إلى أن أكملها. . ، ثم سلك سبيله فى الوعظ، كل ذلك بديهة لا روية، ويصل كلامه فى ذلك بالآيات التى قرأها القراء من قبل فى المجلس، فأرسلت وابلها العيون، وأبدت النفوس سر شوقها المكنون، وأبدت النفوس سر شوقها المكنون، وتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين، بالتوبة معلنين، وطاشت الألباب والعقول، وكثر الوله والذهول، وصارت الناس لا تملك تحصيلا، ولا تميز معقولا، ولا تجد للبصر سبيلا. . . ثم فى أثناء مجلسه كان ينشد أشعاراً فى النسيب مبرحة التشويق، بديعة الترقيق، تشعل القلوب وجداً ويعود موضعها الغزلى وجداً[1]، فمن ذلك ما أنشده:

أين فؤادى؟ أذابه الوجـــد وأين قلبى؟ فما صحا بعـد

يا سعد زدنى جوى بذكرهم بالله زدنى - فُديت - يا سعد

ولم يزل يردد هذه الأبيات والانفعال قد أثَّر فيه، والمدامع تكاد تمنع خروج الكلام من فيه، إلى أن خاف الإفحام، فابتدر القيام، ونزل على المنبر عجلاً، وقد أطار القلوب وجلا، وترك الناس على أحر من الجمر، يشيعونه بالمدامع الحمر، فمن معلن بالانتحاب، ومن متعفر بالتراب، فيا له من مشهد ما أهول مرآه، وما أسعد مَن رآه.

قال: وما كنا نحسب أن متكلماً فى الدنيا يُعْطَى من امتلاك النفوس والتلاعب فيها ما أعطى هذا الرجل، فسبحان مَن يخص بالكلام بعض من يشاء من عباده أهـ.

مصنفاته:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: عددتُ له أكثر من ألف مصنف، ورأيت بعد ذلك ما لم أره.

---

(١) وهو نفس أسلوبه فى كتابنا هذا ومعظم مصنفاته فى الوعظ. ، فغالباً ما يستشهد بأشعار الغزل فى الحب الإلهى بأسلوب بديع

وقال ابن كثير: له فى العلوم كلها اليد الطولى والمشاركات فى سائر أنواعها: من التفسير والحديث والتاريخ والحساب والطب والفقه وغير ذلك من اللغة والنحو. أهـ.

ومن مصنفاته:

١ـ زاد المسير فى التفسير.

٢ـ غريب الحديث

٣ـ روح الأرواح (اقتنيت تصوير مخطوطته)، وهوقيد الطبع بتحقيقى بمكتبةالإيمان

٤ـ المدهش.

٥ـ المقيم المقعد.

٦ـ تلبيس إبليس.

٧ـ لقط الجمان فى كان وكان.

٨ـ الأرج.

٩ـ الأذكياء.

١٠ـ أخبار الحمقى والمغفلين.

١١ـ الظرفاء (أخبار الظراف والمتماجنين).

١٢ـ لقط المنافع، فى الطب.

١٣ـ المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم.

١٤ـ الحدائق لأهل الحقائق.

١٥ـ الموضوعات فى الأحاديث المرفوعات

١٦ـ الموارد العذاب (المنهل العذب)

١٧ـ اللطائف

١٨ ـ المنثور.

١٩ ـ عجائب البدائع.

٢٠ ـ عجيب الخطب.

٢١ ـ مناقب عمر بن عبد العزيز.

٢٢ ـ مناقب عمر بن الخطاب.

٢٣ ـ صيد الخاطر.

٢٤ ـ تبصرة الأخيار.

٢٥ ـ اللآلئ.

٢٦ ـ المنعش.

٢٧ ـ المصفى بأكف أهل الرسوخ من الناسخ والمنسوخ.

٢٨ ـ رى الظماء فيمن قال شعراً من الإماء.

٢٩ ـ بحر الدموع.

٣٠ ـ صولة العقل على الهوى.

٣١ ـ شذور العقود فى تاريخ العهود.

٣٢ ـ المجتبى من المجتنى.

٣٣ ـ المختار من أخبار المختار.

٣٤ ـ الياقوتة.

٣٥ ـ مثير عزم الساكن إلى أشرف الأماكن.

٣٦ ـ المنظوم والمنثور فى مجالس الصدور.

٣٧ ـ فنون الأفنان فى عيون علوم القرآن.

٣٩ ـ الوفا فى فضائل المصطفى.

٤٠ ـ الذهب المسبوك فى سير الملوك.

٤١ـ المصباح المضيء في خلافة المستضيء.

٤٢ـ نتيجة الإحياء (مختصر إحياء علوم الدين).

٤٣ـ تحفة الواعظ ونزهة الملاحظ.

٤٤ـ المواعظ والمجالس، وهو كتابنا هذا. وغيرها كثير[١].

هذا ونسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل فى هذا العمل إضافة للمكتبة العربية والإسلامية. وأن يجعل فيه فائدة وعوناً للمسلمين ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[٢].

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢) ﴾[٣].

وكتب

مجدى محمد الشهاوى

شرباص. فارسكور. دمياط

بريد: ٣٤٧٢١

هاتف: ٤٦٦٧٨٩ (٠٥٧)

(١) للمزيد عن ترجمته انظر: الاعلام (٣/ ٣١٦ـ٣١٧)، معجم المؤلفين (٥/ ١٥٧)، الذيل على الروضتين لأبى شامة (٢١ـ٢٨)، وفيات الأعيان (١/ ٢٧٩)، ابن الوردى (٨/ ١١٨) آداب اللغة (٣/ ٩١)، مرآة الزمان (٨/ ٤٨١)، كشف الظنون (١٠٥٠ـ٢٠٥)، طبقات المفسرين للسيوطى (١٧)، مرآة الجنان لليافعى (٣/ ٤٨٩ـ٤٩٢)، البداية والنهاية (١٣/ ٢٨ـ٣٠)، سير أعلام النبلاء (١٣/ ٨٣)، تذكرة الحفاظ (٤/ ١٣١ـ١٣٦)، شذرات الذهب (٤/ ٣٢٩ـ١٣٣)، الكامل لابن الأثير (١١/ ٦٧)، النجوم الزاهرة (٦/ ١٧٤ـ١٧٦)، معجم الأطباء لأحمد عيسى (٢٥٠ ـ٢٦٢)، فهرس الفهارس للكتانى (١/ ٢٢٦ـ٢٢٨)، هدية العارفين (١/ ٥٢ـ٥٢٣)، مفتاح السعادة (١/ ٢٠٧ـ٢٠٨)، الجامع المختصر لابن الساعى (٩/ ٦٥ـ٦٨)، مقدمة المدهش (٥ـ١٣).

(٢) هود: ٨٨.

(٣) الصافات ١٨٠ـ١٨٢

هذا كتاب المواعظ

والمجالس للعالم العلامة

ابن الجوزي قدس الله

سره آمين

آمين

صفحة عنوان المخطوطة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي [illegible] ونعرف

والبقاء في [illegible] الابصار واشهد ان لا اله الا

الله وحده لا شريك له [illegible] واشهد ان

سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله

وحبيبه وخليله [illegible] صلى الله

وسلم عليه [illegible] وعلى آله وصحبه

[illegible] وبعد [illegible]

[illegible] اليه [illegible]

[illegible] احسن الاخلاق [illegible]

[illegible] من سطوات [illegible]

[illegible] في ساحة [illegible] فتنبه للعمل بها

[illegible] من [illegible]

[illegible] اذ علما

[illegible] من امر [illegible]

[illegible]

الصفحة الأولى من المخطوطة

في الدارين الا الله بعيني النظر اليهم على حجب خرقت بهم
الحجب التي اذا اخترقها ابناء الملك والملكوت فاتحفوا
بتحف لطائف معارف الجبروت، ابلغت انت هذا المقام
يا مرزويه ام عجزت فادلك عليه فلما سمع قولها
خر مغشيا عليه ثم افاق فاقبل عليها وقال
دليني رحمك الله فقالت يا مرزويه اول مقام
المشاهدة ما تبصر الآن واخر ما تبصر يوم القيامة
قال المخبر ثم انها رفعت ازارها عن راسها وبسطته
على الارض ووضعت اقدامها عليه واذا بريح قد
هبت فرفعت الازار تلك الريح وغابت في الهوى
رضي الله تعالى عنها وعن المسلمين اجمعين تمت
المجالس والمواعظ لابن الجوزي عامله الله تعالى بلطفه
الخفي على يد الواثق بالله الغني [illegible]
[illegible] المالكي الاحمدي اللهم احسن خلاصه
من الدنيا [illegible] وادخله الجنة
ومتعه لوجهك بالنظر وارحم
وارحم والديه جميعا
وكل المسلمين
عامة
ومتبعا
[illegible]

١٢٦٦

الصفحة الأخيرة من المخطوطة

بسم الله الرحمن الرحيم

[مقدمة المؤلِّف]

الحمد لله الذى جعل الموت واعظا لذوى الاعتبار، وتفرد بالبقاء فاعتبروا يا أولى الأبصار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الواحد القهار، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمد ﷺ عبده ورسوله وحبيبه وخليله صاحب الفيض المدرار، صلى الله وسلم عليه ما تعاقب الليلُ والنهار، وعلى آله وصحبه أرباب التفكر والاستبصار.

وبعد:

فهذه مسائل تتعلق بالتفكر والتدبر فيما إليه يؤول الحال، تُبَصِّر الغافلَ، وتُوصِّل الكامل إلى أحسن الخلال، وتنجى العاملين بها غدا من سطوات [ذى] الجلال، وتضويهم[1] النزول فى ساحة رحاب الجمال، فتنبه للعمل بها فإنها نافعة، ولمقامك من الحضيض الأوحد إلى أوج المعالى رافعة.

*****

الفصل الأول

[الزهد فى الدنيا]

حكى أن ملكا تفكر فيما هو فيه من أمر لا يَبْقى فعلم أن ما هو فيه منقطع وأن آخره الموت، فانساب من قصره ليلاً حتى أتى ساحل البحر، فجعل يضرب اللَّبِن[2]، ويقتات بثمنه ويعبد الله عز وجل، فبلغ ذلك ملكا كان بالقرب منه، فبعث إليه رسولا ليستدعيه، فأبى أن يأتيه، فبعث إليه ثانية، فأبى أن يأتيه، فخرج الملك قاصدا إليه، فلما رآه الملكُ العابدُ فرَّ منه، فتبعه الملكُ وهو يقول: يا عبد الله لا بأس عليك، فلم يلتفت إليه، فجعل يؤانسه ويلاطفه حتى سكن إليه، فقال له ما حملك على اختيار هذه الأرض؟ قال: وجدت قلبى فى مفارقة بنى آدم،

---

(١) ضوى إليه: انضمَّ ولجأ

(٢) اللَّبِن طوب من الطين يستعمل فى البناء.

قال: فكيف تصبر على الوحدة؟ قال: مَنْ أنس بالله استوحش منْ سواه، قال: فما سبب خروجك من مُلْكك؟ قال: ذكرت عاقبة ما أنا فيه فرأيتها تؤول إلى الزوال، فأعرضت عن ما يفنى، وأقبلت على طلب ما يبقى، وفررت من ذنبى إلى ربى، فقال الملك: ما أنت أحق منى بالخوف من الله عز وجل، ثم خلى الملك الثانى سبيل دولته وتبعه، فكانا يعبدان الله عز وجل، وسألا الله تعالى أن يميتهما فى وقت واحد، فكان كذلك ودُفنا جميعا.

قال عبدُ الله بن مسعود[1]: فلو كنت بمصر لأريتكم قبريهما بالنعت الذى نعت لى رسول الله ﷺ.

شعر:

حـــموا راحة النومِ أجفانَهم ... واكفوا على الزفراتِ[2] الضلُّـــوعَا

أحـــبوا فـرادى ولكنهـــم ... على ملةِ الحُـــبِّ ماتـــوا جـميعَا[3]

*****

[المرء على دين خليله]

يا هذا صاحبْ أهلَ الدِّين وصافِهم، واستفد من أخلاقهم وأوصافهم، واسكن معهم بالتأدب فى دارهم، وإن عاتبوا فاصبر ودارِهم، إن لم يكن لك مكنة البذر ولم تُطق مراعاة الزرع فقف على رفقة: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى﴾[4]. أنت وقت الغنائم نائم، وقلبك فى شهوات البهائم هائم، إن صدقت فانهض وبادر، ولا تستصعب طريقهم فالمعين قادر، تَعَرَّض لمن أعطاهم، وسل

---

(١) عبد الله بن مسعود، الصحابى الجليل، شهد المشاهد، له مناقب عديدة جليلة، وأخبار عظيمة، مات سنة ٣٢هـ، انظر: الحلية (١/ ١٢٤)، طبقات ابن سعد (٣/ ١٠٦)، أسد الغابة (٣/ ٣٨٤)، تذكرة الحفاظ (١/ ٣١)، العبر (١/ ٣٣)، شذرات الذهب (١/ ٣٨)، الإصابة (٢/ ٣٦)، مجمع الزوائد (٩/ ٢٨٦)، تاريخ بغداد (١/ ١٤٧).

(٢) الزَّفْرُ: أن يملأ الرجل صدره غما ثم يزفر به، والزَّفرة و الزُّفرة . التنفس

(٣) فى المدهش (ص٣٨١) البيتان ضمن أبيات ونسبها للمهيار، قال محققه الدكتور مروان قبانى. وهى من قصيدة كتب بها إلى عميد الكفاة أبى سعد بن عبد الرحيم يهنئه بالنيروز، انظر ديوان المهيار (٢/ ٢٢٢-٢٢٦)

(٤) النساء: ٨

فمولاك مولاهم. رُبَّ كنزٍ وقع به فقير، ورب فضل فاز به صغير، عَلِمَ الخضرُ ما خفى عن موسى، وكُشف لسليمان ما غطى عن داود، لا تحقر نفسك فالتائب حبيب الله، والمنكسر مستقيم، إقرارُك بالإفلاس غنى، واعترافُك بالخطأ إصابة، وتنكيسُ رأسك بالندم رِفعَةٌ.

[الدنيا دار التعب]

نزول آدم إلى دار التعب صعود لا هبوط، يا آدم لا يغرنك قول ﴿ اهْبِطُوا مِنْهَا﴾[1] ففى كل يوم يُنَادَى ألف ألف مرة ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ ﴾[2].

نزل آدم إلى دار المجاهدة، فظهر من ثمرته صَبْرُ الخليل، وثبوتُ الذبيح، وجهادُ يوسف، وكمالُ محمد ﷺ، ثم جاء الأولياء فى هذه الأمة فخجلت عند زهدهم الرهبنةُ، لابَلْ سبقوا تَعَبُّدَ الملائكة.

قال بعضهم: ما فاتنى وِرْدٌ قط فقدرت على إعادته[3]. . ، وذلك أن الزمان الذى يقضى فيه فيه وظيفة أخرى.

مصابيح القلوب الطاهرة فى أصل الفطرة منيرة قبل الشرائع ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾[4].

[ويأبى الله إلا ما يريد]

قال بكر بن عبد الله[5]: بلغنا عن ملوك بنى إسرائيل أنه كان ذا بنين، فكان الولدُ منهم إذا بلغ مبلغَ الرجال لبس الشَّعَر ولحق بالعُبَّاد فى الجبال يتعبد حتى يموت، فوُلِد له ولد في آخر عمره، فدعا بخاصته وكبراء دولته وقال لهم: قد أحببت هذا المولود، وأظن أن أجلى قد دنا، وأخشى أن يحوى هذا المُلْكَ غيرُنا إن لحق بإخوته، فخذوه من صغره وحببوا له الدنيا وزخرفها، فلعله أن يرغب في

(١)البقرة: ٣٨ (٢) يونس: ٢٥.

(٣)هذا من كلام السرى بن المغلس السقطى كما فى الحلية (١٠/ ١٢٤) وصفة الصفوة (٢/٢٤٨)، والمدهش (ص٩ ٢).

(٤) النور: ٣٥

(٥) بكر بن عبد الله المزنى، أحد الأعلام، واعظ عابد، ثقة ثبت،حديثه فى الكتب الستة، مات سنة ٦ ١هـ، انظر الحلية (٢/ ٢٢٤)، التهذيب (١/ ٤٨٤)، شذرات الذهب (١/ ١٣٥)، طبقات ابن سعد (٧/ ٩ ٢)، صفة الصفوة (ت٥ ٠ ٥).

الملك عليكم بعدى، قال فعمدوا إلى فضاء من الأرض فبنوا له حائطا[١] فرسخ في فرسخ، وجعلوا عنده من كل زينة حسنة، وجمعوا له أنواع الملاهى والقيان[٢]، فلم يزل فى ذلك الموضع حتى بلغ ما بلغ إليه إخوته، فنظر ذات يوم وقال: أحسب خلف هذا الحائط وجودا وعالما آخر، أخْرِجُونى حتى أزداد علما ويقينا، فقالوا له. لا شيء إلا ما ترى، فأقام حَوْلا، ثم ركب وجعل يدور من داخل الحائط ثم قال: أحسب خلف هذا الحائط وجودا وعالما آخر، أخرجونى حتى أزداد علما ويقينا، فقالوا له مثل ذلك. فقال: لابد من الخروج، فأخبروا أباه، فقال: أخْرِجُوه، فإنا نريد، ويأبى الله إلا ما يريد.

شعر:

جذب الهوى بعِنَانه فاطاعَهُ	وعصى وأفضى لائمـــا ومفنـدا
وحلا الغرامُ وعوَّدَه الهـوى	حمل الضنا فجرى على ما عُوِّدَا

قال: ففتحوا له الباب فخرج ومعه خواص الملك، فبينما هو يسير إذ مَرَّ برجل مبتلى فقال: ما هذا؟!، قالوا: رجل مبتلى، قال: أيصيب هذا البلاءُ كلَّ الناس أم ناسا دون ناس؟!، قالوا: بل يصيب أقواما قدَّرَه الله عليهم، قال: فيعلمه أولئك فَيَعْتَدُّوا له[٣] أم كل له خائف؟ قالوا: بل كل له خائف، قال: وأنا فيما أنا فيه من سلطانى؟!، قالوا: نعم، قال: إن عيشكم هذا كدر ليس بصاف . ، ثم سار فإذا هو برجل قد أصابه الكبر، وأعجزه الهرم، ولعابه يسيل على صدره، فقال: ما هذا؟ قالوا: رجل عمر فهرم، قال: أيصيب هذا ناساً دون ناس أم كل له خائف إن عمر أن يصيبه مثل ذلك؟، قالوا: بل كل له خائف إن هو عَمَّرَ أن يصيبه مثلُ ذلك، قال: إن لعيشكم هذا عيش كدر ليس بصاف. . ،ثم سار فإذا هو بسرير تحمله الرجال، فقال: ما هذا؟ قالوا: رجل مات، قال: أجْلِسُوه، قالوا: لا يجلس، قال: كَلِّموه، قالوا: لا يتكلم، قال: أيصيب هذا ناساً دون ناس أم كل له خائف؟، قالوا: هذا مصيرُ الكل خافوا أم لم يخافوا، قال: أفمن هذا كنتم تخبؤونى؟ قالوا: هذا لا ينجو منه بفرار، ولا يغلبه ذو قدرة باقتدار، فقال. كاد

(١) الحائط البستان (٢) جمع قينة، وهى الأمَة مُغَنِّية أو غيرها

(٣) يستعدُّوا له

هذا يأتينى بغتة وأنا لا أشعر، لا سبيل لكم علىّ بعد هذا اليوم.

شعر:

خَليلَىَّ لا والله ما أنا منكما   إذا عَلَمٌ من آل ليلى بدا ليا

ثم إنه هَمَّ بالفرار، فأحاطوا به، وقالوا: لا ندعك حتى نصل إلى أبيك، قال: فلما دخلوا على أبيه وأخبروه بالقصة قال لهم: ألم نقل لكم: إنا نريد ويأبى الله إلا ما يريد؟ ،خَلُّوا سبيله، فلا طمع لكم فيه.

شعر:

دَعُوه لا تلوموه دعــــوه   فقد عَلِمَ الذى لم تعلمـوه

رأى عَلَمَ الهــد فسَمَا إليه   وفاز بمطلبٍ لم تطـلبـــوه

لعَمرى ذاك من فطن لبيب   تَذَوَّق مطعما لم تطعـــموه

[طريق الاستقامة]

لاحت للقوم جادة السلوك، فقالوا: ﴿ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾[1] فركبوا سفنَ العزم، وهبت لهم رياح العون، فقطعوا بالعلم لجج[2] الجهل، فوصلوا إلى إقليم القرب، وأرسنوا على ساحل بلد الوصل.

شعر:

صافحوا النجم على بُعْدِ المنال   واستطابــوا القيظ من بردِ الظلالِ

واستذلوا الوعر من أخطـارها   إنما الأخطـــار أثمــانُ المعـــالى

ركبــوا الصبـــر إليهـــا ربمـــا   صحت الأجســاد يومــاً بالهُـزَالِ

وجـــروا سيفــاً إلى غايــاتها   بالصفاح البيض والسـمرِ الطِّـوالِ

إذا وقعت عزيمة الإنابة فى قلب مَنْ سبقت له منا السعادة قلعت قواعد الهوى من أساس الأمل.

(١) فصلت: ٣٠، الأحقاف ١٣

(٢) لُجُّ البحر الماء الكثير الذى لا يُرى طرفاه

[ما لهذا خُلقت]

ركب إبراهيم بن أدهم[1] يوما للصيد وقد نصب له فخ ﴿يهديهم ربهم﴾[2] حوله حب ﴿يحبهم﴾[3]. فصيد قبل أن يصيد، سمع هاتفا يقول: يا إبراهيم ما لهذا خُلقت ولا بهذا أُمرت[4]، فيا له من سهم ألقاه عن قربوسه[5] وبؤسه..، كان رافد الفهم فى ليل الغفلة مشغولا بأحلام المُنَى فصيح به: قُم فقام، وقيل له: سر، فاستقام، لاح له جَمالُ الآخرة، فنبت فى النظر عين اليقين، فتمكن الحُبُّ من حَبَّة القلب فقام يسعى فى جمع المهر من كسب الفقر.

كان إبراهيم اسكندرى كبير الهمة، فاحتقر قصر بلخ فى جنب ما أمل، فانتخب سوابق العزم من جند الحزم، وسار فى بيداء الجد، فى قطع ظلمات الطمع، فانفرد من جند جوارحه خضر القلب، فوقع بعين الحياة فى السر، فعاش بالتوفيق أبد الدهر.

شعر:

أما تقومون كذا أو فاقعدوا ... ما كل من رام[6] السماء يصعدُ

لو شرُف الإنسان وهو وادع ... لقطع الصمصام[7] وهو مغمد

(١) إبراهيم بن أدهم، البلخى، الزاهد، أبو إسحاق، صدوق أخرج له البخارى فى الأدب المفرد، والترمذى، مات سنة ١٦١هـ = ٧٧٨م ، انظر فى ترجمته: التاريخ الكبير (١/ ٢٧٣)، الحلية (٧/ ٣٦٧)، الجرح والتعديل (٢/ ٨٧)، العبر (١/ ٢٣٨)، شذرات الذهب (١/ ٢٥٥)، صفة الصفوة (ت ٧٠١)، فوات الوفيات (١/ ٣)، الأعلام (١/ ٣١).

(٢) يونس. ٩

(٣) المائدة: ٥٤

(٤) انظر الإصابة (١/ ٤٥١)

(٥) القربوس: الجزء المُعْوجُّ من السَّرج.

(٦) طلب وأراد.

(٧) السيف.

الفصل الثانى

[من جَدَّ وَجَدَ]

ياهذا من طَلَبَ وجَد، وليس من سهر كمن رقَد، والفضائل تحتاج إلى وثبة أسد، فيا غائبا عنا وهو حاضر، أمالك ناظرٌ ناظر! أما دموع الوجد قد ملأت المحاجر!، أفٌ لبدوى لا يطربه ذكر حاجر[1]!، لما دارت كؤس النوم على أفواه العيون، سكرت بالشراب الألباب، فطرحت الأجساد على فراش ﴿يتوفى الأنفس﴾[2] صاحت فصاحة الحب بالمحب: «كل مسكر حرام»[3]، فلما نفخ فى صُور الإيقاظ: ﴿ويرسل الأخرى﴾[4] قام أموات النوم وقد رحل سفر الوصال، فلم يروا إلا آثارا فى مَناخ ركائب الأحباب، ستر القوم قيامهم بالليل فستر جزاءهم أن يطلع عليه الغير، ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[5]، لو عاينتهم وقد دارت كؤوس المناجاة بين مزاهر التلاوة فأسكرت قلب الواجد، ورقمت فى صحائف الوجنات: ﴿تعرفهم بسيماهم﴾[6].

شعر:

احذر إليك فى كل قلب فى أماليه ... ساهٍ وعن كل دمعٍ فى مآقيـه

ما واجدُ القلبِ فى المعنى كفاقده ... وجامدُ الدمع فى البلوى كجاريه

[شعوانة العابدة]

يروى عن جعفر الصادق[7] رضى الله تعالى عنه أنه قال، دخلت يوما على

---

(١) حاجر: منزل من منازل الحاج فى البادية. . ، والحاجر أيضا: ما يمسك الماء من شفة الوادى، أو هو من مسايل الماء ومنابت العشب. ولعل الأخير هو المراد.

(٢) الزمر: ٤٢.

(٣) البخارى (٧١٧٢)، ومسلم (١٧٣٣)، وأبو داود (٣٦٨٤)، وابن ماجه (٣٣٩١) والدارمى (٢٠٩٨) وغيرهم.

(٤) الزمر: ٤٢ (٥) السجدة: ١٧. (٦) البقرة: ١٧٣.

(٧) جعفر بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب (٨٠-١٤٨هـ = ٦٩٩-٧٦٥م)، أبو عبد الله، الملقب بالصادق، سادس الأئمة الأثنى عشر عند الإمامية، كان من أجلاء التابعين، له منزلة رفيعة فى العلم، انظر صفة الصفوة (ت١٨٦)، الحلية (٣/ ١٩٢)، وفيات الأعيان (١/ ١٠٥)، الأعلام (٢/ ١٢٦)

شَعوانة[1] رضى الله تعالى عنها فرأيتها على حالة كرهت أن أشغلها عنها، فأمسكت عن أن أكلمها، فنظرت تجاه القبلة طويلا ثم قالت: إلى متى؟ ثم تنفست الصعداء وقالت:

أتحرقُنى بالنار يا غايةَ المُنى ... فأين رجائى فيكَ أين محبتى؟

ثم أقبلت علىَّ، ورددت نظرها إلىَّ، وقالت: يا ابن بنت رسول الله ﷺ! متى دخلت علىَّ؟، فقلت: منذ زمان وكانت مشغولة فكرهتُ أن أشغلك عما كنت فيه، فصرخت صرخة عظيمة وخرقت مرقعة كانت عليها، وقالت: واشوقاه إلى مشاهدة ذلك الجمال، ومحاضرة ذلك الكمال، ثم شهقت شهقة أخرى فارقت فيها روحها.

شعر:

لا أذاقَ الله عينـــاً أبصرت ... غيركم يا قوى نفسى وسنـا

لا ولا كانت قلوب سكنت ... عند ذكراكم ولا نالت مُنَى

من رأى الحقائق رَأَىَ العين غَضَّ طرفه عن الدارين، لو حضرتم حظيرة القدس لعبقتم بنشر الأنس.

يا هذا إن لم تقدر على كثرة العمل، قف على باب الطلب، وتعرض لجذبة من جذبات الحق، ففى لحظة أفلح السحرة.

[أحد أحد]

قال عيسى أخو معروف الكرخى[2]: كنت أنا وأخى فى المكتب حين كنا نصارى فكان المعلم يعلمنا فيقول: بسم الآب والإبن وروح القدس. فيقول معروف: أحد أحد؛ فيضربه المعلم ضربا شديداً، فلما طال ذلك عليه هام على وجهه، فكانت أمه تقول: لئن رَدَّ الله علىَّ ولدى لأتبعنه على أى دين كان عليه،

---

(1) شعوانة، إحدى الزاهدات العابدات ترجم لها ابن الجوزى فى صفة الصفوة [رقم ٦٣٠].

(2) معروف بن فيرزان أو فيروز الكرخى (ت ٢٠٠هـ = ٨١٥)، ابو محفوظ، أحد أعلام الزهد والتصوف، اشتهر بالصلاح، انظر فى ترجمته: صفة الصفوة (ت٢٦٠)، وفيات الأعيان (٢/ ١٠٤)، تاريخ بغداد (١٣/ ١٩٩)، الأعلام (٧/ ٢٦٩)

فبعد سنين قدم علينا معروف، فقالت له أمه: على أى دين أنت يا ولدى؟، قال: على دين الإسلام؛ فأسلمت أمه ثم أسلمنا كلنا.

[أدب التوحيد.. وأدب العبيد]

وحكى عن بعض العارفين أنه ذات يوم ناجى ربه عز وجل فجعل يقول: يارب أنت شئت، أنت قضيت، أنت حكمت، أنت أردت، لا أعلم ربا سواك، ولا مُقَدِّراً إلا إياك، فنودى: هذا أدبُ التوحيد، فأين أدب العبيد؟، فقال: يارب أنا عصيت، وأنا جنيت، وأنا خالفت، وأنا أخطأت، فسمع هاتفا يقول: وأنا سترت، وأنا صفحت، وأنا غفرت، وأنا عفوت.

[إرفع إليه يد الذل]

ياهذا اعرف لطفنا بك، وحفظنا لك، نهيناك عن المعاصى صيانة لك لا لحاجتنا إلى امتناعك، فاجعل مراقبتك لمن لا تغيب عنه، وشكرك لمن لاتصيبك نعمةٌ إلا منه، وطاعتك لمن لا ترى خيرا قط إلا منه، وبكاؤك على إعراضك عنه، فارفع إليه يد الذل فى طلب حوائج القلب، تأتى وما تشعر.

[من أحوال العُبَّاد]

قال جعفر الخلدى[1]: كنت يوما ببيت المقدس فرأيت رجلا ملفوفا فى عباءة، فجلست عنده طويلا وهو على تلك الحالة لم يتكلم، ثم أخرج رأسه من عباءته ونام، فقلت: هذا أحد رجلين إما مجنون أو ولى لله عز وجل. فبينما أنا متفكر فى أمره إذ أقبل رجل ومعه زنبيل[2]، وجعل ينظر يمينا وشمالا، وجاء حتى جلس بين يديه، وأخرج من الزنبيل فطيرة وحلاوة حارة، فجلس الفقير وأكل حتى شبع، ثم قال للرجل: رُدّ الباقى إلى صغارك، فقام الرجل من عنده، فقمت وتبعته وقلت له: سألتك بالله هل بينك وبين هذا الفقير معاملة أو معرفة قبل هذا

---

(١) جعفر بن محمد بن نصير، أبو محمد الخلدى (٢٥٣ ـ ٣٤٨ هـ= ٨٦٧ ـ ٩٥٩م) شيخ الصوفية فى أيامه ببغداد، وأعلمهم بالحديث، وكان يبيع الخوص، نسبته إلى قصر الخلد ببغداد ولم يكن منه، إنما دعاه الجنيد بالخلدى فلزمه، حج ٥٦ حجة، انظر: الأعلام (١٢٨/٢)، صفة الصفوة ت(٣٢٥)، شذرات الذهب (٣٧٨/٢).

(٢) الزِّنبيل: الجراب أو الوعاء.

اليوم؟ فقال: لا والله ما رأيته قبل ساعتى هذه قط، فقلت له: فكيف قصتك؟، فقال: اشتهى صغارى بالأمس فطيرة وحلاوة، فقلت: والله ما أقدر على ماطلبتم، ولكن إن فتح الله علىَّ بشىء صنعته لكم، فلما كان هذا اليوم فتح الله على بشىء، فصنعت لهم ماطلبوه، ووضعته بين أيديهم، واضطجعت أستريح، فغلبتنى عينى فنمت، فأتانى آت فى نامى وقال لى: قم واحمل الفطيرة والحلاوة إلى بيت المقدس، واجعله بين يدى الفقير الملفوف فى العباءة، فإنا هيأناه له على يدك، ومابقى منه فهو لصغارك، فانتبهت وقد قدموا ليأكلوه، فرفعته من بين أيديهم، وجئت به إليه. . . ، فقلت: والله هذه الهمم يامن يستهول أحوال القوم، تنقل فى المراقى تعل.

شعر:

لا يؤيسنك من مجد تباعُدُهُ	فإن للمجد تدريجًــا وترتيبًا
إن القناة التى شاهدت رفعتها	تنمى أنبوبًا فانبوبــــــــًا[1]

يا هذا: قد سمعت أخبارَ القوم فسر فى سربهم وقد عرفت شرابهم فاشرب كشربهم فمتى سلكت طريقهم كنت رفيقهم، أطار خوفُ النار نَوْمَهُم، وأطالَ ذِكْرُ العَطَشِ الأكبر صَوْمَهُم، يحسبهم الناظر مرضى الأبدان، وإنما هو سقام الأحزان.

شعر:

لم تُبْقِ فيهم حرارةُ الهــوى	وجوى الأشواق غيرَ خيالاتِ وأشباحِ
تكادُ تنكرهُم عينُ الخبيرِ بهم	لولا ترددُ أنفــــــــــاسٍ وأرواحِ

[شغلهم حب مولاهم]

لله در أقوام شغلهم حبُّ مولاهم عن لذات دنياهم، اسمع حديثَهم إن كنتَ ما تراهم، خوفُهم قد أزعج وأقلق، وحذرهم قد أتلف وأحرق، وحادى جدِّهم مُجدٌّ ، دموعهم فى أنهار الخدود تجرى وتندفق، يشتاقون إلى الحبيبِ والحبيبُ إلى لقائهم أشوق

(١) البيتان فى المدهش (ص ٤٤٥) ونسبهما لابن هندوا

قال أبو يزيد[١]: ما زلت أُشَوِّقُ نفسى إلى الله وهى تبكى حتى حملتنى وهى تضحك.

يا طويل النوم فاتتك رفقة أقوام ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾[٢]، وحُرِمْتَ منحة ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾[٣] ولست من أهل عتاب «فإذا جنّه الليل نام عينى»[٤] ليس فى ليل الهجر منَام، ومتى رأيتَ محبًا ينام؟

شعر:

وإن نهارى ليلةٌ مُدْلَهِمَّةٌ	على مقلة مِنْ فقدكم فى غيَاهِب[٥]
بعيدةِ ما بين الجفون كأنما	عقدتُم أعالى كلِّ هُدْبٍ[٦] بحَاجِبِ[٧]

*****

[البكاء من خشية الله]

البكاء موكل بعيون الخائفين، كلما هَمَّتْ بفتح طَرْفٍ لتنظر إلى طرف من طرف الدنيا طرفه دمعه.

قال عليه الصلاة والسلام:

«عينان لا تَمَسُّهما النار أبدا: عينٌ بكت من خشية الله، وعين باتتْ تحرسُ فى سبيل الله»[٨].

(١) طيفور بن عيسى البسطامى، أبو يزيد (١٨٨ ـ ٢٦١هـ = ٨٠٤ ـ ٨٧٥م)، الزاهد المعروف، كثير الأخبار، وفى المستشرقين ومن يرى أنه كان يقول بوحدة الوجود، وأنه ربما كان أول قائل بمذهب الفناء، انظر: الأعلام (٣/ ٢٣٥)، والحلية (١٠/ ٣٣)، صفة الصفوة (٦٧٩)، الميزان (١/ ٤٨١)، وفيات الأعيان (١/ ٢٤٠)، الكواكب الدرية للمناوى (١/ ٢٢٤).

(٢) السجدة: ١٦. (٣) آل عمران: ١٧.

(٤) ذكره المصنف فى المدهش (ص٤٦٢) ولعله جزء من حديث قدسى: «كذب من ادّعى محبتى فإذا جنه الليل نام عنى».

(٥) مدلهمة: سوداء مظلمة (٦) الهدب: شعر أشفار العين (الرموش).

(٧) البيتان فى المدهش (ص٤٣٢)، ونسبهما للمتنبى، قال محققه: وهما فى ديوانه (ص٢٠٩) من قصيدة طويلة له.

(٨) رواه أبو يعلى والطبرانى فى الأوسط بنحوه من حديث أنس ورجال أبى يعلى ثقات [مجمع الزوائد (٥/ ٢٨٨)]. ، وجاء بنحوه عن أبى أمامة عند الترمذى (١٦٦٩)، وحسنه الألبانى فى مشكاة المصابيح (٣٨٣٧))، وصحيح الترمذى (ح١٣٦٣)، والمناوى فى فيض القدير (٦ / ٣٦٥).

وقال الحسن[١]: إذا بكى العبدُ من خشية الله رحم مَنْ حَوْلَهُ ولو كانوا عشرين ألفا

وقيل لثابت البنانى[٢]: تعالج عينك ولا تبكى؟ فقال: أى خير فى عين لا تبكى؟!

قلب المحب جمرة تحت فحم الليل، كلما هب النسيم التهب، فإذا اشتد الحال تصعدت غيوم الغموم من أودية القلوب وانبعثت، وصعدت إلى سماء الأجفان فتراكمت والتفت، وابتسم برقُ السر فهطلت مياهُ العيون وانهملت، ورقت ورق الشوق منابر الشجو وترنمت فأطربت، وصاحت بلابلُ المحبة بمكنون الضمائر فأغربت[٣]، فكلما ناولها الوَجْدُ كأسًا من الدموع أنشدتهم الحمائم ورَجَّعت[٤].

---

(١) الحسن بن يسار البصرى، أبو سعيد (٢١ ـ ١١٠هـ = ٦٤٢ ـ ٧٢٨هـ)، تابعى جليل، كان إمام أهل البصرة وحبر الأمة فى زمانه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك، كثير الأخبار، كان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهنم ولا يخاف فى الحق لومة لائم..، انظر: الأعلام (٢/ ٢٢٦)، والحلية (٢/ ١٣١)، طبقات ابن سعد (٧/ ١٥٦)، تذكرة الحفاظ (١/ ٦٦)، والتهذيب (٢/ ٢٦٣)، صفة الصفوة (٥٠٠)، شذرات الذهب ١/ ١٣٦)، التاريخ الكبير (٢/ ٢٨٩).

(٢) ثابت بن أسلم، أبو محمد البصرى، التابعى، الزاهد العابد، أحد مفاتيح الخير (٤١هـ ـ ١٢٧هـ)، انظر طبقات الصوفية (ص ١٢٥)، تذكرة الحفاظ (١/ ١٢٥)، تقريب التهذيب (١/ ١١٥)، (الحلية ٢/ ٣١٨)، طبقات ابن سعد (٧/ ٣)، العبر (١/ ٢٥٦)، صفة الصفوة (ت٥١٥)، التهذيب (٢/ ٢).

(٣) أغرب الرجلُ من منطقه: إذا لم يُبق شيئا إلا تكلم به

(٤) الترجيع ترديد الكلام فى الحلق كقراءة أصحاب الألحان.

الفصل الثالث

[إلى متى يغرك الأمل؟]

اسمع يا مُكْرَمًا بحليةِ الإيمان بعد حُلَّة الإيجاد وهو مخلقها[1] فى مخالفة الخالق، إلى متى يخدعك المنى ويغرك الأمل؟، عجباً لك! يتأمل الحيوانُ البهيم العواقبَ، وأنتَ لا ترى الحاضر!، ما تكاد تهتم بمؤنة الصيف حتى يشتد الحر، وبمؤنة الشتاء حتى يقوى البرد، ومَنْ هذه صفته فى أمر دنياه ﴿ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[2].

أتراك ما علمت رحيلك إلى القبر؟، فَهَلا بعثت لك فراش تقوى ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾[3].

من ركب ظَهر التفريْط نزل به دارَ الندامة، ألم تسمع أن داود كان قد أعطى نعمة نغمة حتى كان يقف لها الماءُ والطير، فامتدت يد الغفلة فَقَدَّت قميص العصمة فأثرت حتى فى التلاوة؟!

*****

[إن عاد إلينا قبلناه]

يروى عن داود عليه السلام أنه لح[4] به البكاء ذات يوم، فلما كان فى أخر الليل نادى: يارب أما ترحمُ كثرةَ بكائى؟، فأوحى الله عز وجل إليه: يا داود نسيتَ ذنبَك وذكرتَ بُكَاءَك؟، فقال: إلهى وسيدى لم أنْسَ ذنبى ولكنى أرجو منك غُفْرَانَهُ. إلهى وسيدى كنت إذا تلوت الزبور كف الماء الجارى عن جريانه، وتسكن هبوب الرياح، وتظلنى الطير، وتطوف الوحوش بمحرابى؛ وقد فقدت ذلك، أفمن أجل هذا الذنب كل هذه الوحشة؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا داود، آدم خلقتُه، ونفخت فيه من روحى، وأسجدت له ملائكتى، وألبسته ثوب كرامتى، وتَوَّجتَه بتاج عنايتى، وزَوَّجته حين استوحش بحواء أَمَتِى، وأبحت له

(1) أى يفنيسها ويهلكها.
(2) الإسراء: ٧٢.
(3) الروم: ٤٤
(4) أى كثرة بكاؤه

ولها جنتى، فلما عصانى أخرجته من جوارى، ونزعت عنه تاجَ وقارى، يا داود من أطاعنا قرّبناه، ومن سألنا أعطيناه، ومن عصانا أمهلناه، وإن عاد إلينا على ماكان منه قبلناه.

شعر:

تـواليتَ قومًا لا وفاءَ لعهدِهم ... وأعرضتَ عنا والحفاظُ قـديمُ

سأتركُ ما بينى وبينك واقفًا ... فإنْ عُدْتَ عُدْنا والوداد سليمُ

*****

[الذل أنجح الوسائل لطلب الحوائج]

يا مقيدًا بقيود الطرد ألقِ نفسك فى الدجى على باب الذل، وقل: إلهى كم لك سواى، وما لى سواك، فبفقرى إليك وغناك عنى ألا ما عفوتَ عنى .

*****

[الذل .... والبكاء]

أنجح الوسائل لطلب الحوائج الذل، وأبلغ الأسباب فى العفو البكاء، والعى[1] عن ترتيب العذر بلاغةُ المنكسر، وليس فى المياه ماءٌ يُقلعُ أثارَ الذنوبِ مِنْ ثوبِ القلب إلا الدموع، فإن صب الماء ولم يُزَل الأثرُ فعليك بالاغتراف من بحر الاعتراف، إحضر نادى المجتهدين، ونادهم طوبى لكم، قد وجدتم قلوبكم، فارحموا من لم يجد.

شعر:

إذا وصلتم إلى وادى العقيق سَلُـوا ... عن حال منقطعٍ أوْدَى به السـفَرُ

وفتّشـوا عـن فـؤادٍ هائـمٍ بـكم ... قد ضـاع منى فلا عين ولا أثر

أبلغُ المراهم لجراحِ الذنوبِ الندم، وأوطأ فراش المُعتَذِر القلق.

*****

(١) العيُّ: خلاف البيان، وهو العجز عن الفصاحة والبلاغة

[حكاية تائبة إلى الله]

قيل. كان شاب يختلف إلى رسول الله ﷺ يقال له حميد فسمع ذات يوم قارئا يقرأ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] فلم يزل باكيا حتى رجع إلى أهله فلما جنَّه الليل صلى ما كتب الله تعالى له، ولم يزل متضرعاً إلى الله عز وجل حتى أصبح، وكانت له زوجة عاصية؛ وكان قد شكاها إلى رسول الله ﷺ قبل ذلك اليوم، فقالت له: يا حميد ما الذى أسهرك فى ليلتك هذه وأبكاك؟، قال لها: سمعت قارئا يقرأ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فألقى الله عز وجل فى قلبها خشيةً فقالت: والله لأنطلقنَّ إلى رسول الله ﷺ لعله يستغفر لى، فقال لها حميد: تمضى إلى رسول الله ﷺ وقد شكوتك له بالأمس؟ قال: فخرجتْ حتى أوقفتْ بين يديى رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله إنى أتيتك تائبة فاستغفر لى، فقال سلمان الفارسى: يا رسول الله هذه زوجة حميد التى شكاها لك بالأمس، فَأَعْرَضَ رسولُ الله ﷺ بوجهه عنها ولم يُكلِّمها، فخرجت إلى جبال المدينة وجعلت تبكى وتنادى: إلهى أتيت نبيَّك تائبةً فلم يقبلنى، وأعرض بوجهه عنى ولم يكلمنى، وقد أتيتك يامن وسعت رحمتُه الأحياء والأموات، يا من يقبل التوبةَ عن عباده ويعفو عن السيئات، إلهى أنا العوَّادة بالذنوب وأنت العواد بالمغفرة، قال: فهبط الأمين جبريلُ على رسول الله ﷺ. فقال: يا محمد، الحقّ يُقْرِئُك السلامَ ويقول لك: أتتك أمَتِى تائبة فلم تقبلها، وأعرضت بوجهك عنها؟!، يا محمد قد أتتنى فقبلتها، فغفرت لها ورضيت عنها، فبشرها برضائى عنها، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أيكم يأتينى بها؟»، فقال سلمان: أنا يا رسول الله، فخرج سلمان فوجدها بين الجبال تبكى وتتضرع إلى الله عز وجل وتسأل، فقال لها سلمان: أجيبي رسول الله ﷺ، فقالت: يا سلمان كيف آتى رسول الله ﷺ وهو ساخط علىَّ والله يسخُط لسَخَطه؟، فقال لها سلمان: أبشرى فقد أخبره الله عز وجل برضاه عنك، فأقبلت فلما رآها رسول الله ﷺ قال لها: «مرحبًا بمن عاتبنى ربى فيها، أبْشرى فقد تاب الله عليك، وغفر لك، ورضى عنك»، قال. فَخَرَّتْ لله ساجدة وأطالت السجود، فقال رسول الله ﷺ لسلمان: «ارفع رأسها». فذهب ليرفع رأسها فإذا هى قد ماتت، رحمة الله عليها.

(١) سورة الحجر ٤٣

شعر:

مرض الحب شفائى فى الهوى ... كلما أكربنى أطربنى
فبقائى من فَنائى فيكم ... وسرورى منكم فى حزنى
وشريتم بوصالى مهجتى ... جئت سعيًا لاقتضاء الثَمَنِ
وإذا البلوى أفادت قربكم ... فَمِنَ النَّعْماءِ دوامُ المِحَنِ

مَن علم أن عندنا حسنِ المآب آب، مَن خاف الجزاء بما فى الكتاب تاب، من حذر أليم العذاب ذاب، من سار فى طريق الإيجاب انجاب، من تفكر فِعلَ الموتِ بالأبِ والجَدِّ جَدَّ، من تفكر فى مرارة الكاسِ كَاسَ[1].

[أين الدموع السواجم قبل المنايا الهواجم؟]

أين الدموع السواجم[2] قبل المنايا الهواجم، أين القلق الدائم إلى الذنوب العظائم؟، أيها القاعد والموت قائم؟، أنائم عن حديثنا أم ذا متناوم؟، بادر بالتوبة من هفواتك، قبل فواتك، والمنايا بالنفوس فَوَاتِك.

شعر:

ما أسرعُ الأيام فى طَيِّنَا ... تَمْضى علينا ثم تَمضِى بنا
فى كل يوم أملٌ قد نأى ... مرامُهُ عَنْ أجلٍ قد دنا
أنذرنا الدهرُ وما نَرْعَوِى[3] كأنَّمَا ... الدهرُ سوانا عَنَى
إن الأُلَى قد شيدوا بناءَهم ... تهدموا قبل انهدامِ البِنَا
لا معدم يحميه إعدامُه ... ولا يَقِى نفسَ الغَنِىِّ الغِنَى
لا تأمنِ الدهرَ على غِرَّةٍ ... وعَزَّ ليث الغاب أن يؤمنا[4]

(١) كَاسَ: من الكياسة، وهى الفطنة والعقل

(٢) انسجم الدمع: سال

(٣) نرعوى: نرتدع عما نحن فيه.

(٤) الأبيات فى المدهش (ص ٢٧٠) ونسبها للشريف الرضى، وهى فى ديوانه (٢/٤٨٨) من قصيدة له يعزى فيها أبا على الحسن بن أحمد عن ولد له عام ٤٩٦ هـ.

تالله لقد كشفت العبر ما انسدل[1]، فلم تبق من أولى جدل، يا حائرين احذروا ممن إذا قضى عدل، واعلموا أن الآخرة ليس منها بدل.

[حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا]

قال إبراهيم بن أدهم: كنت فى المسجد الحرام ذات يوم، فغلبتنى عينى فنمت، فرأيت حول البيت سرادقات خضر مكتوب عليها ببياض: ينبغى لمن عرف قدرى أن لا يعصى أمرى، ولمن عرف عدلى فيمن يقف بين يدى، أن يحاسب نفسه قبل قدومه علىّ، ولمن عرف عدلى فيمن يقف بين يدى أن يحاسب نفسه قبل قدومه على، ولمن عرف إحسانى لا ينسانى، ولمن عرف كرمى أن يشكرنى.

شعر:

إذا المرء كانت له عَبْرَة [2] ففى كل شيء له عِبْرَة

قال بعض الحكماء لابنه: يا بنى لا تشغل قلبك من الدنيا إلا بقدر ما تتحققه من عمرك، ولتكن جرأتك على المعاصى بقدر صبرك على النار، وإذا أردت أن تعصى الله تعالى فانظر موضعا لا يراك الله فيه. وانظر إلى نفسك فإن كانت عزيزة فلا تذلها، وإن كانت ذليلة فلا تزدها على ذلها ذلا.

ويحك لو عرفت قدر نفسك ما أهنتها بالمعاصى، إنما أَبْعَدْنا إبليس لأنه لم يسجد لك، فالعجب كيف صالحته وهجرتنا؟! .

شعر:

رعى الله من نَهْوَى وإنْ كان مارَعَى
حفظْنَا له العهدَ القديمَ وَضيَّعَا

وواصلتْ قوما كنت أنهاك عنهم
وحقاً ما أبقيت للصلح مَوْضِعَا

*****

(١) سَدَل السِّتر أرخاه وأسله
(٢) عَبْرَة: دَمْعَة

[خلقت الأكوان لأجلك]

يا مختار القدر اعرف قَدْرَك، فإنما خلقت الأكوان كلها لأجلك، ياخزانة الودائع، يا وعاء البدائع، يا من غُذّى بلبان البر، وقُلّب بأيدى الأيادى، يا زرعا تَهْمِى[1] عليه سُحُب الألطاف، كل الأشياء شجرة وأنت الثمرة، وصورة وأنت المعنى، وصدف وأنت الدرّ، كم فى السموات من ملك يسبح له مرتبة ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُم﴾،[2] ولا يعرف طَعْمَ طَعَامِ ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَه﴾[3]، ولا حظى بمقام ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُم﴾[4]، فسبحان من اختارك على الكل، وجادل عنك قبل وجودك بقوله ﴿إِنِّي أَعْلَم﴾[5]، خلق سبعة أبحر، واستقرض منك دمعة، له ملك السموات والأرض، واستقرض منك حبة.

شعر:

المَاءُ عِنْدَكَ مبذولٌ لِشَارِبِه ... وليسَ يرويكَ إلا دمعةُ الباكى

*****

(١) تسيل وتُصَبُّ
٢) السجدة: ٦
(٣) المائدة: ٥٤
(٤) البقرة ٢
(٥) البقرة ٣

الفصل الرابع

[أمل طويل.. وأجل قصير]

يا طويل الأملِ فى قصير الأجل، يا كثير الخطايا فى يسير العمل خَلا لَكَ الزمان وما سددت الخَلَلَ، أفما عندك وَجَل[1] من هجوم الأجل؟، أما رأيت مُسْلَباً وما كمُل؟، أتؤخر الإنابة وتقدم الزلل؟!.

شعر

يا مَنْ يَعُدُّ غداً لتوبَتِهِ	أعَلَى يقينٍ مِنْ بلوغِ غَدِ؟!
المرءُ فى زلل على أمل	ومَنِيَّةُ الإنسانِ بالرصَدِ
أيامُ عمرِك كلُّها عدد	ولعل يومَك آخرُ العَدَدِ

ما هذا التقصيرُ فى العمر القصير؟ ما هذا الزهو يا من إلى البلى يصير؟! كم فرَّقَ الموتُ مسيرةَ أمير؟ كم زار الألحادُ من وزير ؟ وسَوّىَ فى القبورِ من هُجَرَ وزُبر[2]، أين الأبطال الذين كان خاطرهم خطير؟! لقد رَأوا كلَّ منكر من منكر وكل نكير من نكير، فإذا بُعثوا بنفخة الصور ورُوِّقَ لهم شراب الفراق وأُدير، فـ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[3]، سابقةُ القَدَرِ قضت لقوم وعلى قوم، أعْرَضَ عن قوم فلم تنفعهم الحسنات، ورضى عن قوم فلم تضرهم السيئات.

*****

[دللتمونى على طريق لم تعرفوه]

قال عبد الواحد بن زيد[4]: ركبتُ البحر فعصفت بنا ريحٌ دفعتنا إلى جزيرة من جزائر البحر، فطلعنا إليها، وإذا نحن برجل قد عكف على صنم له يعبُدُه،

---

(١) الوجل الخوف (٢) زبرة: جزء (٣) الشورى ٧

(٤) عبد الواحد بن زيد البصرى، العابد الزاهد، يروى عن الحسن وعبادة بن نسى، غلبت عليه العبادة، حتى غفل عن علم الحديث، قال البخارى: تركوه، وقال ابن معين: ليس بشئ، انظر للمزيد عنه صفة الصفوة ١/٥٣٧، الكبير (٣/ ٢/ ٦٢)، الضعفاء للعقيلى (٣/ ٥٤)، المجروحين (٢/ ١٥٤)، الميزان (٢/ ٦٧٢).

فقلنا له ما معنا في المركب من يعمل مثل هذا، قال فأنتم لمن تعبدون؟ قلنا نعبد الله عز وجل. قال ومن هو الله؟، قلنا الذي في السماء عرشه وفي الأرض سلطانه، قال فكيف علمتم ذلك؟، قلنا أرسل إلينا رسولا بالمعجزات الظاهرة فأخبرنا بذلك قال فما فُعِلَ برسولكم؟، قلنا لما أدى الرسالة قبضه الله إليه، قال: أفما ترك عندكم علامة؟ قلنا ترك فينا كتابَ الله سبحانه وتعالى قال أروني إياه، فأتيناه بالمصحف، قال ما أَحْسَنُ قراءته، فقرأنا عليه منه شيئا فبكى، وقال ينبغي لمن هذا كلامُه أن لايُعْصَى، فأسلم وحَسُنَ إسلامه، قال ثم سألنا أن نحمله معنا في المركب، فحملناه، وعلَّمناه سورا من القرآن. فلما جنّ عليه الليل وأخذْنا مضاجعنا لننام، قال يا قوم هذا الذي دللتموني عليه ينام؟. قلنا هو حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، فقال إن من سوء الأدب نومُ العبد بين يدي سيده. ثم وثب قائما فلم يزل قائما باكيا حتى أصبح

شعر

وحياةُ سقمي في هواك وإنه	قسم الهوى وحق فيض دُمُوعــي
لأوكلنَّ عليك عيني بالبكاء	ولأهْجُرَنَّ لك طيبَ هُجُوعــي

قال فلما قدمنا عبادان[1] قلت لأصحابي: هذا رجل غريب حديث عهد بالإسلام، ومِنَ المصلحة أن نجمع له شيئا. ففعلوا ومددناه إليه، فقال. ما هذا؟! قلنا له. نفقة تنفقها عليك، فقال. سبحان الله! دللتموني على طريق لم تعرفوه؛ أنا كنت في جزيرة من جزائر البحر أعبد غيره ولم يُضَيِّعني، فكيف يضيعني وأنا أعبده وهو الخالق الرازق؟!، ثم مضى وتركنا قال فلما كان بعد أيام أُخبرت أنه بموضع يعالج سكرات الموت، فأتيناه وهو بآخر رَمَقٍ، فسلَّمتُ عليه وقلت له ألك حاجة؟ فقال لي: قد قضى حاجتي الذي جاء بكم إلى الجزيرة وأنا لا أعرفه، قال: فاستندت بإزائه، وقصدت مؤانسته ساعة، فغلبتني عيني فنمت، فرأيت في مقابر عبادان روضة عليها قبة. وتحت القبة سريرٌ، وعلى السرير جارية لم أر أجمل منها وهي تقول بالله عجِّل في جهازه فقد طال شوقي إليه. فاستيقظت فوجدته قد مات فغسلته وكفنته، فلما كان الليل نمت فرأيته وهو في قبة حسنة

(1) مدينة بإيران اليوم

والجارية على السرير تحت القبة، وهو إلى جانبها يكرر هذه الآية: ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾[1].

مصابيحُ القلوبِ الطاهرة فى أصل الفطرة منيرة قبل الشرائع ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾[2].

*****

[إسلام راهب]

قال مالك بن دينار[3] وقفت يوما من الأيام تحت صومعة راهب فسمعتُه يقول: يا من لاذ بِحَرَمِه الخائفون، ورغب فيما عنده الطالبون، أسألك الخلاصَ من القصاص حين: ﴿لَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾[4]، وأستغفرك من ذنوب ذهبت لذاتُها وبقيت تَبِعاتُها، ثم بكى فعلا بكاؤه، فناديته: يا راهب، فأشْرَفَ عليَّ، فقلتُ له: لم تخليتَ عن الدنيا وحبست نفسك ها هنا وحيداً فريداً؟، قال: تخليتُ عنها قبل أن تتخلى عنى، وهربت منها قبل أن تتمكن منى، فقلت له: حَدِّثْنى بقصتك. قال: كنت على دين النصرانية، فأقمت على ذلك مدة من عمرى، فلما كان فى بعض الليالى أتانى آت فى منامى، فقال لى: ويحك إلى كم تعبد غير الله الذى خلقك؟ أما تخاف أن يأخذك بغتة وأنت لا تشعر؟ إن عيسى ابن مريم عبدٌ من عبيد الله، فقلت له: من أنت؟ قال: أنا الاخذ بحُجَز[5] الخلائق وهم يقتحمون جهنم، أنا شفيع المذنبين، أنا خاتم النبيين، أنا الذى بَشَّر بى عيسى، وشهد بنبوتى موسى، أنا فى التوراة موصوف، وفى الإنجيل معروف، ثم مسح بيده على صدرى وقال: اللهم ألهم عبدك للرشاد، ووَفِّقه للسداد، فانتبهتُ ولا شيء أحب إليَّ من الإسلام، فأسلمت، وبقيت فى صومعتى هذه هاربا من أبناء الدنيا، فقلت له: يا راهب أَوْصِنِى، فقال: إياك أن تُدْخِلِ قلبك محبة الأبيض

---

(١) الرعد: ٢٤. (٢) النور: ٣٥.

(٣) مالك بن دينار البصرى، ابو يحيى، كان ورعاً يأكل من كسبه، ويكتب المصاحف بالأجرة، صدوق عابد، من الخامسة، أخرج له الأربعة فى سننهم، مات سنة ١٣١هـ= ٧٤٨م بالبصرة، انظر: الحلية (٢/٣٥٧)، التهذيب (١٠/١٤) التقريب (٢/ ٢٢٤)، تاريخ الثقات (١٥٢٣)، الأعلام (٥/ ٢٦٠)، وفيات الأعيان (١/ ٤٤٠)، صفة الصفوة (٥٢٢).

(٤) ص: ٣. (٥) الحجزة: موضع شد الإزار على الجسد.

والأصفر فإن محبتهما شين وبغضهما زين[١]

إذا سبق الإنعامُ فى القِدَم لمن سبقت له منا الحسنى طلع نجمُ همته فى ظلام ليل بطالته، وردفه قدم العزم فى ليل الحزم، فأشرقت الأرض بنور ربها، وسعد شقى الجهل، وعاش ميت الغفلة.

شعر:

سُقِينا بالنوى زمناً فلما ... تلاقَيْنَا كأنَّا ما سُقِينَا
سَخِطْنا عندما جَنَّ الليالى ... فمازالَت بنا حتى رَضِينَا
فمن لم يحىَ بعد الموتِ يوماً ... فإنَّا بعدما متْنَا حَيِينَا

[الشهوات يعقبها ندم]

إخوانى أَوْقِدُوا أدهانَ الأذهان فى ليل الفكر تبصروا، صابروا سنى الجدب فى عام الخصب تعصروا، فمن ادلج[٢] فى غياهب ليل البلى على نجائب[٣] الصبر، صبح منزل السرور فى السرور، ومن نام على فراش الكَسل سال به سَيْلُ التمادى إلى وادى الأسف، وإنما تُقْطَعُ مراحل الجد بالعزم والصبر، ونظر المُجِدُّ إلى آخر الأمر، فإن الشهوات تغر وتفر، وتُمِرُّ عيش العواقب وتمر، وتبكى عين الندم أضعاف ما تُسرّ.

[لَذَّات الدنيا]

قال جابر بن عبد الله الأنصارى[٤]: خرجت مع عَلىٍّ كرم الله وجهه[٥] إلى

---

(١) الشَّين: العيب، والزَّين: الحسن.

(٢) اى سار ليلاً.

(٣) النجيب من الإبل: الخفيف السريع القوى.

(٤) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجى الأنصارى السلمى (١٦ق هـ ـ٧٨هـ= ٦٠٧ـ ٦٩٧م) الصحابى الجليل، من المكثرين فى الرواية عن النبى ﷺ، وروى عنه جماعة من الصحابة، له ولأبيه صحبة، غزا تسع عشرة غزوة، له مناقب كثيرة وأخبار شهيرة.
انظر فى ترجمته الأعلام (٢/ ١٠٤)، صفة الصفوة(٧٩)، تذكرة الحفاظ (١/ ٤٣)، أسد الغابة (١/ ٣٠٧)، الإصابة (١/ ٢١٤)، شذرات الذهب (١/ ٨٤)، العبر (١/ ٧٩).

(٥) على بن أبى طالب بن عبد المطلب الهاشم القرشى (٢٣ق هـ ـ ٤٠هـ= ٦٠٠ـ ٦٦١م) أبو الحسن، أمير المؤمنين، رابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأول الناس إسلاماً بعد خديجة، وأحد=

خارج المدينة فتفكرت فى أحوال الدنيا وغرورها وفتنتها لنا، فقال: يا جابر إن الدنيا أحقر من أن يفتتن بها لبيبٌ، يا جابر إن لذَّاتِها فى ستةِ أشياء: **مأكول، ومشروب، وملبوس، ومنكوح، ومشموم، ومسموع.**

فأما المأكول: فألينُ ما يؤكَلُ العسلُ، وهو رَجِيعُ ذبابة.

وأما المشروب: فَألَذُّ ما يُشْرَب الماءُ، وقد تساوى فيه جميع الحيوانات.

وأما الملبوس: فأفخر ما يُلْبَس الحريرُ، ومخرجه من دودة.

وأما المنكوح: فمَبَالٌ فى مبالٍ.

وأما المشموم: فأطيبُه المسك، وهو دمُ دابَّة.

وأما المسموع: فالذ ما يُسْمَعُ الوتَر، وهو إثمٌ كله.

فيا مهلكاً نفسه التى لا قيمة لها فى طلب دنيا لا وقع لها، أما تراها تبيد بأهلها وسكانها، والشاهد ما يشاهد عواصف الحوادث تنسف جبال المقتنى، ومعاولِ الزمان تهدم مشيد المبتنى، وكلما ارتفع كثيبُ أملٍ وهال انهال، فإلى كم هذا الحرص ولا تنال إلا المقدور؟ أما مرزوقا لا يتعب، ومتعوبا لا يُرْزَق، هذا موسى يقول: أنَّى لى وما رأى، ومحمد ﷺ يزعج عن منامه وما طلب، لقد أنضى[1] الحرص مطية عمرك وما وصلت بلد الأمل. لو قنعت الذبابة بطرف ظرف[2] العسل ما تلفت، لو عرفت قيمة نفسها رخصت أو غلت ما أَوْغَلَت. ويحك! أحسنُ ما فى الدنيا قبيحٌ؛ لأنه يُشغل عما هو أحسن منه، أتُرَى لو ابتليناك بترك عظيم كيف كنت تصنع؟، إنما رددناك عن دنس، ومنعناك من كدر، ثم ما علمت أن الثواب على قدر المشقة؟، ويحك! إن الأرباح الكثيرة فى الأسفارة البعيدة.

- أكابر الخطباء والعلماء بالقضاء، كثير الفضائل والمناقب، انظر: صفة الصفوة (ت٥)، الحلية(١/ ٦١)، الطبرى(٦/ ٨٣)، الأعلام(٤/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦)، الإصابة(ت٥٦٩)، مروج الذهب(٢/ ٢ـ ٣٩.)، الرياض النضرة(٢/ ١٥٣ـ ٢٤٩).

(١) أنضى البعير: أتعبه وأهزله.

(٢) الظَّرف: الوعاء.

شعر

لو قَرُبَ الدرُّ على جُـــلاَّبِه	ما لَجَّ[1] الغائص فى طلابِه
ولو أقام لازِمًا أصْـــدَافَهُ	لم تكن التيجانُ فى حِسَابِه
ما لؤلؤُ البحر ولا مُرجـــانُه	إلا وراء الهولِ من عُبَابِه
من يعشق العَلياءَ يلقى عنـدها	ما لقى الحِبُّ من أحبابِه[2]

(١) لَجَّ: تمادى فى الأمر وأقام عليه.

(٢) فى المدهش(ص١٥٧) نسب الأبيات لصردر، وهى فى ديوانه(٦٣ـ ٦٦) ضمن قصيدة يمدح فيها الوزير ابن جهير بعد عودته إلى الوزارة.

الفصل الخامس

[يا نفس تَدبَّرى أمرك وتَأمَّلى]

يا نفس تدبرى أمرك وتأملى، ومثّلى بين ما يبقى وما يفنى ولا تعجلى، لقد ضللت طريق الهدى فقفى واسألى، وآثرت وَهَناً يُوَرِّث وهْنًا لا تفعلى، يا غمرة من الشقاء ما أراها تنجلى، أتبع الهوى والهوى علىَّ وليس لى، أريد حياة نفسى ونفسى تريد مقتلى، يا جسدا قد بلى بما قد بلى.

شعر:

نخطوا وما خطونا إلا إلى الأجلِ	وينقضى وكأنَّ العمر لم يَطُلِ
والعيشُ يؤذننا بالموتِ أولهُ	ونحنُ نرغبُ فى الأيامِ والدولِ
يأتى الحِمَامُ فينسى المرءُ منيتَه	وأعضل الداء ما يُلهى عن الأملِ
لا تحسب العيش ذا طول فتتبعه	يا قرب ما بين عنق المرء والكفلِ
لنا بما ينقضى من عمرنا شغلٌ	وكلنا علق الاحشاء بالغزلِ
وتُستلذُ الأمانى وهى مردية	كشاربِ السمِ ممزوجاً من العسلِ

آه لنفس تركت يقينها، وتبعت آمالها، جهلت ما عليها وما لها. أما ضربت المثل بأخذ أمثالها، ليتها تفقدت أمرها، وشاهدت حالها، تحضر المجلس بنية، فإذا قامت بدا لها، ويحها لو ظهر جزء من مآلها لهالها.

*****

[الرِّياء]

قال إبراهيم التيمى[1]: كنت كثير التردد إلى المقابر أذكر الموتى وطول البلى،

---

(١) إبراهيم بن يزيد التيمى، أبو أسماء الكوفى، الزاهد العابد الثقة، مات سنة ٩٢هـ، حديثه فى الكتب الستة.

انظر: طبقات ابن سعد (٦/ ٢٨٥)، صفة الصفوة (٤١٣)، التاريخ الكبير(١/ ٣٣٣)، الجرح والتعديل (٢/ ١٤٦)، العبر(١/ ١٠٦)، التهذيب(١/ ١٧٦)، التقريب(١/ ٤٥)، الحلية(٤/ ٢١٠).

فبينما أنا ذات ليلة فيها إذ غلبتنى عينى فنمت، فرأيت قبراً قد شُقَّ، وسمعت قائلا يقول: خذوا هذه السلسلة فاسلكوها فى فيه وأخرجُوها من دُبُره، وإذا الميت يقول: يا رب ألم أكن أقرأ القرآن؟ ألم أكن أحج بيتك الحرام؟!، وجعل يذكر أفعال البر شيئاً بعد شئ، وإذا قائل يقول: نعم كنت تفعل ذلك ظاهراً، فإذا خلوت بارزتنى بالمعاصى ولم تراقبنى.

*****

[المحاسبة]

إخوانى: فتشوا أحمال الأعمال قبل الوصول، ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[1].

مَن وقف على صراط التقوى وبيده ميزان المحاسبة ومحك الورع؛ يستعرض أعمالِ نفسه، ويرد البهرج[2] إلى كير[3] التوبة، سلم من رد الناقد ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[4].

*****

[شَيَّبَتْنى القيامة]

قال أبو عاصم: حدثنى أخى سفيان قال: مر عيسى عليه السلام بامرأة تبكى على قبر، فقال لها: على من تبكين؟، قالت: على ولدى، قال: عليكِ بالصبر، قالت: لا أملكه، قال: فإن أحياه الله لك ونظرت إليه أتدعين البكاء؟، قالت: نعم، قال: فادْعى الله بالاسم الأعظم الذى يحيى به الموتى، فانصدع القبر، وقام ولدها وهو ينفض التراب عن رأسه، فقالت المرأة: يا روح الله إن ابنى شاب وهذا شيخ!، فسأله عيسى عليه السلام، فقال: يا روح الله لما سمعت النداء ظننت أنها القيامة قد قامت فشاب رأسى، فقال له عيسى: ما وجدت فى قبرك؟، قال: يا روح الله كنت حمَّالا، فحملت ذات يوم لبعض الناس حطباً، فأخذت منه شظية فتخللت[5] بها، ورميت بها إلى الأرض، فأول شئ سُئلت عنه تلك الشظية!.

(١) الحشر: ١٨. (٢) الزائف. (٣) الكير: كير الحداد ينفخ به النار.
(٤) الحاقة: ١٨. (٥) نَظَّفْتُ بها أسنانى.

[أحسن عملك]

قال قيس بن عاصم[1]: وفدتُ مع جماعةٍ من بنى تميم على رسولِ الله ﷺ، فلما دخلنا عليه قلت: يا رسول الله عظنا بموعظة ننتفع بها، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن مع العز ذلاً، وإن مع الحياة موتاً، وإن مع الدنيا آخرة، وإن لكل شئ حسيباً، ولكلِ حسنة ثواباً، ولكلِ سيئة عقاباً، وإنك لابدُ لك من قرين يدفن معكَ وهو حي، وتُدفن معَه وأنت ميتٌ، فإنَّ كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، لا يُحشرُ إلا معك، ولا تُبعثُ إلا معه. ولا تُسأل إلا عنهُ، فلا تجعله إلا صالحاً، وهو عملك» فقال قيس. وددنا يا رسول الله لو أن هذا الكلام فى أبيات من الشعر نُعلّمه لأبنائنا لينتفعوا، فقال الصلصال بن الدلهمس: يا رسول الله حضرتنى أبيات من الشعر أحسبها توافق ما يريده قيس، فقال: «هاتها» فأنشد:

تَخَيَّرْ خليلاً من فعالِكَ إنه ... قرينُ الفتى فى القبر ما كان يفعلُ

فإن كنتَ مشغولاً بشئٍ فلا تكنْ ... بغيرِ الذى يرضى به الله يُشغلُ

فلن يصحبَ الإنسان من بعد موته ... إلى قبرِه إلا الذى كان يعملُ[2]

الا إنما الإنسان ضيفٌ بأهله ... يُقيمُ قليلاً عندهُم ثم يَرحلُ

[كلا إنها لظى]

يا أهل الذنوب والخطايا، ألكم صبر على العقوبة؟ ﴿كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى﴾[3] إذا شاهدت من اشترى لذة ساعة بعذاب سنين، ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾[4]، من أراد النجاةَ منها، فليتب ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾[5]، كيف أمِن العصاة وعيد ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾[6] كيف نسوا غب الزلل؟، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[7].

---

(١) قيس بن عاصم بن سنان المنقرى السعدى التميمى(ت٢٠هـ= ٦٤٠م)، أحد أمراء العرب وعقلائهم والموصوفين بالعلم والشجاعة فيهم، كان شاعراً، اشتهر وساد فى الجاهلية، وهو ممن حرم على نفسه الخمر فيها، وفد على النبى ﷺ فى وفد تميم سنة ٩هـ فأسلم.
انظر: الأعلام(٥/ ٢٠٦)، الإصابة (ت٧١٩٤)، أسد الغابة (٤/ ٤٣٢)، التقريب (٢/ ١٢٩).

(٢)الخبر فى الإصابة(٢/ ١٩٣) رقم (٤٠٩٨)وعزاه للمصنف.

(٣) المعارج: ١٥. (٤) المُلك: ٨. (٥) المجادلة: ٣.

(٦) مريم: ٧١. (٧) الزلزلة: ٨.

لو نطق الموتى بعد دفنهم لنَدَبوا على قبيح فعلهم، ولقالوا: رحلنا عن ظلم شرورنا إلى ظلم قبورنا، وخلونا عن الأخلاء فى ترابنا بآفة لا ترى بنا، أفترى مُحبنا إذا ظعنا، بمن اعتاض عنا؟، وهذا مصيرك عن قليل، فتأهب يا مقيم للتحويل.

شعر:

هل الدهرُ إلا ما عرفنا وأدركنا ... فجائعه تبقى ولذاته تفنى
إذا أمكنت فيه مسرة ساعة ... تولت كمر الطرفِ واستخلفت حزنا
حَصَّلْناَ على هم وإثمٍ وحسرةٍ ... وفات الذى كنا نَلَذ به عنا
كأن الذى كنا نُسَرُّ بكونه ... إذا خففته النفس لفظ بلا معنى

[تَذَكَّروا الموت]

أين مصون الحصون؟ أزعج عنها، أين مقصور القصور؟ أُخرج منها؟ نقله هادم اللذات نقلا سريعا، وغمسه فى بحار الآفات غمسا فظيعا، وفرق بينه وبين أهله وبنيه، ونقض من مشيد أهله ما كان يبنيه، لقد وَلّى ولا ذو ود ينفعه، وبان فبان لبنى الدنيا مصرعه، هجره والله من هاجر إليه، ونسيه نسيبه وقد كان يحنو عليه، فلا صديقه صدقه فى مودته، ولا رفيقه رافقه فى شدته، حلوا والله بالبلاء فى البلى، وودعهم من أودعهم ثم قلى[1]، وانفردوا فى الأخدود بين الدود ووحش الفلا[2]، وسألوا الإقالة[3] فقيل لهم أمًّا هذا فلا.

شعر:

إن الليالى والأيامَ قد كشفتْ ... من مكْرِهَا كُلَّ مستورٍ ومكنون
وحدثتنا بأنَّا من فرائِسِهَا ... نواطقٌ بفصيح غير ملحون
واستشهدت من مضى منا فأخبرنا ... عن ذاكَ كل لَقِى[4] منا ومدفون

---

(١) قلى: هَجَر (٢) الفلاة: الصحراء
(٣) الإقالة: الصَّفح، يقال: أقال الله فلاناً عثرته بمعنى الصفح عنه.
(٤) لَقِىّ: مُلْقىً.

ونحن في ذاك نصفيها مودتنا تباً لكلِّ سفيهِ الرأى مغبونِ

أغوى الهوى كل ذى عقلٍ فلستَ ترى إلا صحيحاً له أفعالُ مجنونِ

حتى متى نشترى دنيا بآخرةٍ سفاهة ونبيع الغالِ بالدونِ

نجمع المالَ نرجوا ان يُخَلِّدَنَا وقد أبى قبلنَا تخليدَ قارونِ

[السفر بعيد، والرقاد طويل]

يروى ان الإسكندر مَرَّ فى سفره بمدينة قد ملكها سبعة من الملوك وبادوا جميعهم، فقال: هل بقى من نسل هؤلاء الملوك أحد؟، فقالوا: نعم بقى رجل، وهو فى المقابر؛ لا يركن إلى أحد، ولا يأنس بأحد، قال لهم: دلُّونى عليه. فلما آتاه رأى رجلا قد أنحله الخوفُ والعبادَة فسلَّم عليه ذو القرنين، فرد عليه السلام، فقال له ذو القرنين[1]: ما حملك على لزوم المقابر؟، فأطرق إلى الأرض، ثم رفع رأسه وقال: أردت أن أعزل عظام الملوك من عظام عبيدهم فلم أقدر على ذلك، فقال ذو القرنين: هل لك أن تتبعنى فأحيى بك شرف أبائك إن كانت لك همة؟، قال الرجل: إن همتى لقليلة إن كانت بغيتى عندك، فقال له ذو القرنين: وما بغيتك؟ قال: أبغى حياةً لا موتَ بعدها، وشباباً لا هرمَ بعده، وغنىً لا فقر معه، قال ذو القرنين : لا أقدر على ذلك، فقال له الفقير: امْضِ إلى شأنك، ودعنى أطلب ذلك ممن هو عليه أقدر وله أملك، فإن الدنيا قد ذهبت، والآخرة قد اقتربت، والسفر بعيد، وليس معى زاد، والرقاد طويل، وأنا على غير معاد!

لما رأى المستيقظون سطوة الدنيا بأهلها وخداع العمل لأربابه لجأوا إلى حصن الزهد كما يأوى الصيد المذعور إلى الحرم. لاح لهم حب المشتهى فلما مدوا إليه أيدى التناول، بان لهم خيط الفخ، فطاروا بأجنحة الحذر، وجمعوا الرحل قبل الرحيل، وشمَّروا إلى سواء السبيل، فالناسُ فى الغفلات وهم فى قطع الفلاة، باتت قلوبهم يقلقها الوجد، فأصبحت دموعهم يسترها الجفن، فإذا سمعوا ناطقاً باسم الحبيب، أخذ جزر الدموع فى المد.

---

(١) ذو القرنين ليس هو الاسكندر المقدونى فإن الإسكندر المقدونى بانى الإسكندرية كان متأخراً عن الأول بدهر طويل [انظر فتح البارى (٦/ ٤٤١)].

مَن أقلقه الخوف كيف يسكتْ؟ من أزعجهُ الحبُ كيف يسكنُ؟، من آلَمُه البعْدُ كيف يصبرْ؟!.

شعر:

حياتى منك فى عود الوصـــال ... فصبرى عند من طلب المحال

وكيف أصبر ومالى عنك صبر ... وعطشان عن المـــاء الــزلال

*****

[أرواح المحبين لله]

أرواح المحبين خرجت بالرياضة من أبدان العادات، فهى فى حواصل طير الشوق، ترفرف على أطلالِ الوَجْدِ، وتسرحُ فى رياض الأنس، عند المحبين شغل يشغلهم عن الجنة، فكيفَ يلتفتونَ إلى الدنيا، ما ترى عينُ المحب إلا المحبوب «فبى يسمع وبى يبصر»[1].

شعر:

أنت عينُ العينِ إن نظرت ... ولسانُ الذكر إن ذَكَـــرا

أنتَ سمعى إن سمعت به ... أنتَ سرُ السِرِّ إنْ خَطَـــرا

*****

(١) هذه إحدى روايات الحديث القدسى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ عن رب العزة: «ما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به» رواه البخارى (٦٥٠٢)، وانظر فتح البارى (١١/ ٣٥٢).

الفصل السادس

[اعتَبِر يا مغرور]

يا من قد بلغ أربعين سنة، وكل عمره نوم وسِنَة، يا مُتعبا فى جمع المال بدنه، ثم لا يدرى لمن قد خزنه، اعلم أن هذه النفس الممتحنة، إنها بكسبها مرتهنة، ألا يعتبر المغرور بمن قد دفنه؟! كم رأى جبارا فارق مسكنه؟، وسكن مسكن مسكنة[1]، أيا راحلين بالإقامة، يا هالكين بالسلامة، أين مَن أخذ صَفْوَ ما أنتم فى كدره؟، أما وعظكم فى سيره بسيره؟، أين مَن كان يُخاف باسه؟! أما تغوض القبر من لباسه، أين من كان على نسائه شديد الغيرة؟، أما رحل عنهن واخترن غيره، أين من كان يسرى آمنا فى سرْبه؟! أما قيل للتلف خذه وسرْ به، أما عاقبة الألفة فرقة؟، أما زاد ذى المال إلى القبر خرقة؟، أعر سمعك الأصوات، فَهَل تسمع إلا فلاناً مات؟، أجل بصرَك فى الفلوات، فهل ترى إلا القبور الدارسات؟.

شعر:

ألا كل حيٍّ هالكٌ وابنُ هالكٍ ... وذى نَسبٍ فى الهالكين عَرِيق

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدوٍ فى ثياب صديقِ

فلا تحسب الدنيا إذا ما سكنتها ... قرارا فما دنياك غير طريق

عليك بدار لا يزول نعيمها ... ولا يتأذى أهلها بمضيق[2]

[حام الحِمَام حول حماكم]

إخوانى، قد حام الحِمَام[3] حول حماكم، وصاح بكم إذا خلا النادى وناداكم، وأولاكم من النصح حقكم، فما أحقكم بالتدبر وأَوْلاكُم، وهو عازم على اقتناصكم وما المقصود سواكم، كم أخلى الموتُ داراً؟، كم تركَ العامر قفاراً،

(١) المسكنة: المذلة.

(٢) الأبيات فى المدهش (ص١٩٨) ونسبها لأبى نواس.

(٣) الحِمَام: الموت.

كم أذاق الغصص[1] المرة مراراً، لقد جال يمينا ويسارا، فما حَابَى فقرا ولا يسارا.

شعر:

خَلَط الحِمام[2] قويهم بضعيفهم	وغنيهم ساوى بذى الإقتار
سُلبوا النضارة والنعيم فأصبحوا	متوسدين وسائد الأحجار
تركوا ديارهم على أعدائهم	وتوسدوا مدرا[3] بغير دثار[4]
والدهر يعجلنا على آثارهم	لابد من صبح المجد السارى

سئل رسول الله ﷺ: مَنْ أَزْهَدُ الناس؟، قال: «مَن لم يَنْسَ المقابر والبلى، وآثر ما يبقى على ما يفنى، وعَدَّ نفسه من الموتى»[5].

[وهل ستعيش إلى الليل؟]

قال شقيق البلخى[6]: أتيتُ إلى أستاذى أبى هاشم الرمانى[7]، وفى طرف كسائى شملة[8] مصرورة، فقال لى: ما فى كسائك يا شقيق؟، قلت: لويزات أفطر عليهن، دفعهن إلىَّ بعضُ الإخوان، فقال: وأنت تُحَدِّث نفسك أنك تعيش إلى الليل؟!، والله لا كلمتك إلا أن يشاء الله، وأغلق البابَ فى وجهى ودخل إلى منزله.

وقيل: وُجِدَ على لوحٍ منقوشٌ: يا ابنَ آدم ما أقسى قلبك، وما أجهلك بأمرك، تُعَمِّرُ دارَ الفناءِ، وتُخَرِّب دارَ البَقاءِ!، أشغلت قلبك بما لا ينفعك فى

---

(1) الغصص: ما يقف فى الحَلْق.

(2) الموت.

(3) المدر: الطين.

(4) الدثار: ما يُتَدثَّر به (ما يُتَغَطَّى به).

(5) فى كتاب تنبيه الغافلين(ح٣١٩- بتحقيقى)، وإسناد ضعيف، وانظر: فيض القدير(١/ ٤٨٢- ٤٨٣) للمناوى، والضعيفة(١٢٩٢) للألبانى.

(6) شقيق بن إبراهيم بن على الأزدى البلخى، أبو على، الزاهد، الصوفى، من مشاهير المشايخ فى خراسان، كان من كبار المجاهدين، استشهد فى غزوة كولان بما وراء النهر سنة ١٩٤هـ= ١٨٠م، انظر: الأعلام (٣/ ١٧١)، صفة الصفوة (ت٧٠٣)، الحلية (٨/ ٥٨)، الميزان (١/ ٤٤٩)، اللسان (٣/ ١٥١)، وفيات الأعيان (١/ ٢٢٦).

(7) أبو هاشم الرمانى، كان نزيل قصر الرمان، اسمه يحيى بن دينار، ثقة، من السادسة، حديثه فى الكتب الستة، انظر: التهذيب(١٢/ ٢٦١)، التقريب (٢/ ٤٨٣).

(8) الشملة: كساء من صوف يُتغطى به.

الدنيا، ويضرك فى العقبى! فبادر ثم بادر بصلاح العمل، قبل حلول ما تحاذره من مناقصة الأجل.

شعر:

يا نفسُ توبى فإن الموتَ قَدْ حــــانا	وَاعْصى الهوى فالهوى مازالَ فتانا
أما تَرَيْنَ المنايا كيفَ تُدْركنا	غدا وتلحـــــق أخرانا بأولانا
فى كلِ يـــــومٍ لنا ميت نُشيعُه	نرى بِمَصْـــــرَعِهِ آثارَ موتانا
يا نفسُ ما لى وللأموال أتركُها خَلْفى	وأَخْـــــرُجُ مِنْ دنياى عُريانا
أبعـــــد خمسين قد قضيتها لعبا	قد آنَ أنْ تقصـــرى قد آنَ قد آنا

قيل: شيع الحسنَ جنازة فجلس على شفير القبر وقال: إنَّ أمراً هذا أَوّلُهُ لحقيقٌ أن يُخاف آخره، وإن امرأ هذا آخره لجدير أنْ يُزْهَد فى أوله.

[تَفَكّر فى الموت]

ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا وضع الميت فى قبره وُحثى عليه التراب أمر اللهُ تعالى الروحَ أن تعودَ إليه، فيصيرَ حياً كما كان فى دار الدنيا، فيسمع خفقَ نعال الماشين وقول المنادى: انصرفوا رحمكم الله فيقول: يا ليتنى كنت من المنصرفين».

شعر:

انصرف الناسُ إلى دورِهم	وغــــدوا والميت فى رَمْسِهِ
مرتهن النفس بأعمــــــالها	قَدْ يُرْتَجَى الإطلاق من حَبْسِهِ
لنفسه صــــــالح أعمالها	وما سواه فعــــلى نفسه

قال: «ثم إن الميت ينظر إلى وحدته، وانفراده فى حفرته فينادى ولده وأخاه وأباه، حتى لا يدع أحداً من أهله إلا ناداه، فلا يجيبه منهم أحد، فيأمر الله عز وجل قبره أن يجيبه، فيقول: له القبر: ما الذى تريد يا من حيلَ بينه وبين ما يريد؟ فيقول الميت: مَن أنت أيها المتكلم فقد أحزن كلامك قلبىَ؟، فيقول: أنا قبرك وبيت

عملك الذى نسيتنى، ولو كنت عَمَّرتَنى كنت اليوم لقيتنى ووجدتنى، ثم إن القبر يضمه ضمة تختلف فيها أضلاعه» فيا مَن شيع ببدنه نفس ميته وقلبه فى سوقه أو بيته، أتخلى بين الودود والدود؟، وتعود إلى المعاصى حين تعود؟، هَلاَّ أَجَلْتَ بالبالِ ذكر البالى، وقلت للنفس الجاهلية هذا لى، من زار القبور والقلب غافل، وسعى بين الأجداث[1] والفكر ذاهل، وشغله عن الاعتبار لهو شاغل، فهو قتيل قد أسكره القاتل.

شعر:

وما أعطى الصبابةَ ما استحقت ... عليه ولا قضى حقَ المنازلِ

ملاحظها بعين غير عَبْــــرَى ... وزائرها بجسم غير ناحــل

[حان وقت حصاد الأعمار]

يا هذا، عواصف الحوادث تنسف جبال الأمل، ومعاول الزمان تهدم جدران الأجل، أليس الزمان يعير ثم يغير؟، فأين الفهم لتدبير ما إليه تصير؟، حالت غمائم الهوى بينكم وبين شمس الهدى، وغدا ما فى يومكم ينسيكم غدا، حتى كأن الرحيل حديث خرافة، أو كأن الزاد يفضل عن المسافة، أيها الشيوخ: آن الحصاد، أيها الكهول: قَرُبَ الجذاذ[2]، أيها الشباب: كم جَرَّد الزرعَ جرادٌ!!.

شعر:

يا ابنَ آدمَ لا تغرركَ عافيةٌ ... عليك شاملةٌ فالعمر معدودُ

ما أنت إلا كزرع عندَ خُضرته ... بكلِ شيءٍ من الآفاتِ مقصودُ

فإن سَلِمْتَ من الآفاتِ أجمعها ... فأنتَ عندَ كمالِ الأمرِ محصودُ

قال وهب بن منبه ما من شعرة فى ابن آدم تَبْيَضُّ إلا وتقول للتى تليها: أختى قد جاء الموت فاستعدى له.

*****

---

(١) الأجداث: القبور.

(٢) الجذاذ: القطع والحصاد.

[الشباب والمشيب]

وذكر عن إياس بن قتادة(١) ابن أخت الأحنف بن قيس(٢) أنه كان ذات يوم في داره، وإذا بني تميم قد اجتمعوا بالباب في بعض الأمور، وكانوا إذا أشكلَتْ عليهم معضلة أخذوا رأيه فيها، فقام ولبس ثيابه وقال: لا يراني الله حماراً لحاجاتِ بني تميمٍ بعدَ اليوم، يا بني تميم قد وهبتكم شبابي فهل إليَّ مشيبي؟، ثم اعتزل ولَزم العبادة والاجتهاد حتى مات(٣).

وقال هلال بن قتادة: كان الرجل من أهل المدينة إذا رأى الشيب في لحيته ترك الدنيا وتفرغ للعبادة.

وقال بعض الحكماء: من بلغ أربعين سنة ولم يغلب خيره على شره فليتهيأ إلى النار.

وقيل: من بلغ أربعين سنة ولم يغلب خيره شره أتاهُ الشيطان فمسح وجهه وقال: بأبي وجه مَن لا يفلح(٤).

شعر:

إذا مضى للمرءِ من أعوامه	خمسونَ وهو إلى المظالم يجنح
ركضت عليه المخزيات وقلن قد	ارتضينا فأقم كذا لا تبرح
وإذا رأى غرة وجهه حيا	وقالت فديت من لا يفلح(٥)

---

(١) إياس بن قتادة التميمي، كان قاضيًا لبني تميم، أسند عن قيس بن عباد وأبي بن كعب، وتشاغل بالتعبد عن الرواية. انظر ترجمته في الحلية (٣/ ١١٠ ـ ١١١)، صفة الصفوة (ت ٤٩١).

(٢) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المرى السعدى المنقرى التميمي (٣ق هـ ـ٧٢هـ = ٦١٩ ـ٦٩١م) سيد تميم، وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين، يضرب به المثل في الحلم، ولد في البصرة وأدرك النبي ﷺ ولم يره، أخباره كثيرة جدًا، وخطبه وكلماته متفرقة في كتب التاريخ والأدب والبلدان. انظر في ترجمته: صفة الصفوة (ت٤٨١)، وفيات الأعيان (١/ ٢٣٠)، طبقات ابن سعد (٧/ ٦٦)، الأعلام (١/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧).

(٣) الخبر في الحلية (٣/ ١١٠)، وصفة الصفوة (٣/ ١٤٦ ـ ١٤٧).

(٤) ذكره في إحياء علوم الدين (٣/ ٤٧) مرفوعًا عن ابن وضاح. . ، قال العراقي: لم أجد له أصلا، انظر أيضًا: الفوائد المجموعة (ص٢٥١).

(٥) في المدهش (ص٣٤٤) نسب الأبيات للبحتري، قال محققه: وهي في ديوانه (١/ ٤٨٢).

[أستحي من ربي .. أتراه يقبلني؟]

يروى: أن حبشيا جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله عصيت ربي أيام شباب وسَوَّدت بالمعاصي كتابي، وقد بدأ شبابي ينقرض، وشيبي يعترض، والآن أنا أستحي من ربي، أفتراه إن تبت يقبلني؟، قال: «نعم»، فولَّى الرجلُ ثم رجع، فقال: يا رسول الله أكان يراني وأنا أعملها؟ قال: «نعم»، فصاح صيحةً عظيمةً، وخرَّ مغشيا عليه، فَحَرَّكُوه فإذا هو ميت.

[الداء والدواء]

قال محمد بن إبراهيم الكوفي: سمعت محمد بن السماك[1] يقول: كنت كثيرا ما أطلب الزُّهَّاد والعُبَّاد، فَذُكر لي رجل من الزهاد بعبادان، فخرجت في طلبه، حتى أتيت عبادان فسألت عن منزله فَرُشِدْتُ إليه، فقرعتُ عليه البابَ فخرجتْ لي جارية خماسية[2] القد، فقالت: ما شأنك أيها الطارق؟ قلت: أريد منزل فلان. قالت: عليه وقعت، فما حاجتك؟ قلت: أحب أن تستأذنيه لي في الدخول عليه. قال: فدخلت فإذا أنا برجل قد احتفر قبرا ووضع فيه رجليه، وبيده خوص يصنعه وهو يتلو هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[3] فَسَلَّمْتُ عليه، فردَّ عليَّ السلام وقال: ما اسمُك؟، قلت: محمدٌ، قال: ابنُ منْ؟، قلت: ابنُ السماكِ، قال: لعلك الواعظ؟، قلت: أجل، قال: إن الواعظ عندي بمنزلة الطبيب، وبي داء قد أعيا المعالجين قبلك، فعسى أنت تناله برفقك، وتلصق عليه بعض مراهمك مما تعلم أنه يلائمه منها، فقلت: أما تعلم أنه لا دار بعد هذه الدار إلا الجنة أو النار؟، قال: فتغير وجهه. فقلت: يا أخي إن العمر قد ولَّى، والضعف قد تَوَلَّى، وإن كاتبيك قد حفظا عليك ما سلفك من قبيح العمل، ولعل المنيةَ تعاجلك قبل إدراكِ الأملِ. قال: فلما سمع ذلك لم

---

(١) محمد بن صبيح بن السماك، أبو العباس، الزاهد، سيد الوعاظ، له أقوال طيبة في الزهد، مات سنة ١٨٣هـ، انظر: تاريخ بغداد (٥/٣٦٨)، والحلية (٨/٢٠٣)، صفة الصفوة (ت ٤٥٥)، وفيات الأعيان (٤/٣٠١)، شذرات الذهب (١/٣٠٣)، سير أعلام النبلاء (٨/٣٢٨)، الجرح والتعديل (٧/ ٢٩٠)، الميزان (٣/ ٥٨٤)، العبر (١/ ٢٨٧).

(٢) طولها خمسة أشبار.

(٣) الجاثية: ٢١.

يتمالك أن شهق شهقة، وخَرَّ مغشيًا عليه، فأقبلت امرأته وابنته تبكيان من خلف السِّتر، فبقى كذلك طويلا، ثم أفاق وقال: يا ابن السماك قد وافق دواؤك دائى، ولصق بجلدى، زدنى، فإن المرهم إذا خلف المرهم اندمل[1] الجرح والتأم، فقلت: يا أخى نحن على يقين من ذنوب سلفتْ، وفى شكٍ من قبول توبة، فإن جاد بالفضل فأين ذبول الخجل خشية العتاب؟، وإن قضى بالعدل فأين تحول الرِّجْل خيفة العقاب؟، قال: فصرخ صرخة عظيمة، وخَرَّ مغشيا عليه، فمكث طويلا، ثم أفاق وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، ثم سكن طويلا، فَحَرَّكته فإذا هو ميت.

شعر:

أيها الرامى وما أجْرَى دَمًا   ليتنى قد بلغت الغرضا[2]

لما تمكنت المعرفة فى قلوبهم، أثَّرت شدة الخوف، فارتفع ضجيج الوجد، أتاهم من الله وعيد وقوفهم، فعجزت أبدانهم عما حملت قلوبهم ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾[3].

شعر:

قصوا علىَّ حديث من قتل الهوى   إنَّ التأسِّىَ روحُ كُلِّ حزينِ

(١) شُفى وبرأ.

(٢) فى المدهش (ص٣٦٥) نسب البيت للمهيار، وهو فى ديوانه (٢/ ١٥٢ ـ ١٥٤) ضمن قصيدة.

(٣) الأحزاب: ٢٣.

الفصل السابع

[إنما تُجَازَى بما تعمل]

يا من يعَظُه الدهر ولا يقبَل، وينذره القهرُ بمن يرحل، ويضم العَيب إلى الشيب وبئس ما يفعل، كن كيف شئت فإنما تجازى بما تعمل.

شعر:

دَعْنى فانٍّ غريمَ العقلِ لازمنى	وذا زمانُك فامرحْ فيه لا زمنى
ولَّى الشباب بما أحببتُ من مِنَحٍ	والشيبُ جاءَ بما أبغضت من محن
فما كرهتُ ثوى[1] عندى وعنَّفَنى	وما حرصت عليه حين عَنَّ[2] فَنِى

[الموت يأتى بغتة]

كأنما بالموت وقد خطف، ثم عاد إلى الباقى وعطف، تنبه للموت يا ابن النُّطَف، فقد حاذى الرامى الهدف، إلى كم تسير فى سرف؟، ليت هذا العزم وقف، تؤخر الصلاة ثم تسيئها كالبرق إذا خطف، تجمع سوء كيلة مع حشف[3]؟! الجسم أتى والقلب انصرف، يا من باع الدر واشترى الصدف، ابسط رماد الخوف على بساط الأسف، وابك علىَّ فأين ما منه خلف؟.

[هكذا يكون الخوف]

قال بعض الصالحين: كنا فى مجلس بعض الوعاظ، فوعظ حتى أبكى مَن حضر، وكان فى المجلس شاب، فذكر الواعظ النار، وما أعد الله تعالى فيها من العذاب الأليم لمن عصاه، فصاح الشاب: واأسفى على ما فَرَّطْتُ فى جنب الله!، ضيَّعْتُ عمرى، ونسيت أجلى، وقَصَّرت فى عملى، ثم استقبل القبلة وقال:

---

(١) ثوى بالمكان: أقام به.

(٢) عَنَّ الشىء: ظهر أمامك وأصبح سهل المنال.

(٣) الحشف: أردأ التمر...، ويقال فى المثل: أَحَشَفًا وسوء كيلة، يضرب هذا المثل لمن يجمع خصلتين مكروهتين..، أنظر: مجمع الأمثال للميدانى (١/١٣٩)، المستقصى للزمخشرى (٣١) لسان العرب مادة «حشف»..، جمهرة الأمثال للعسكرى (٩٠).

اللهم إنى استقبلتك فى يومى هذا بتوبة لك، لا يخالطها رياء لغيرك، فاقبلنى على ما كان منى، وأقِلْ عثرتى، وارحم غربتى، إلهى إليك رجعت بجميع جوارحى صادقا من قلبى، فالويل لى إن لم تقبلنى، ثم سقط مغشيا عليه، فحركناه فإذا هو ميت، رحمة الله تعالى عليه.

هذا عبدٌ استيقظ فعلم تقصيره، واستبصر فشاهد بعين البصيرة مصيرَه، فاستولى عليه وارد الخوف فصدع قلبه، فرضى الله عنه وأرضاه ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾[1].

شعر:

يا صاحبـــى الهوى شديدٌ	ووعدٌ سلطانُه وعيـــدٌ
فقللا بالمنى فـــــردا	قريب أطماعه بعيـــدُ
قد هان قتلى على علمـــى	إن قتيل الهوى شهيـــدٌ
أهل الهوى لا الشقى منهـم	يعرف فيهم ولا السعيـدُ
يا من له عـــزة الموالى	رفقا فقد ذلت العبيـــدُ
وحق دينُ الهـــوى يمينا	إلا بها المرغم العميـدُ
من ظفرت بالمنـــى يداه	فكلُ أيامِهِ سعـــــودُ

وعن محمد بن السماك رضى الله عنه أنه قال: يا ابن آدم أما آن لك أن تطيع من لم يطع الحاسدين فيك، أما وعزته لو أطاعهم فيك لجعلك نكلا، فاجتهد فى تحصيل زادك ليوم معادك ما دام العمل يُرفع، والقول يُسمع[2].

[باب التوبة]

يروى عن ابن عباس[3] رضى الله عنهما أنه قال: ذكر رسول الله ﷺ باب

---

(١) البينة: ٨. (٢) الحلية (٨/٢٠٦).

(٣) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشى الهاشمى (٣ ق هـ - ٦٨ هـ = ٦١٩ - ٦٨٧م) ابن العباس، حبرالأمة الصحابى الجليل، ولد بمكة، ونشأ فى بدء عصر النبوة، فلازم رسول الله ﷺ وروى عنه الأحاديث الصحيحة، قال ابن مسعود: نعم ترجمان القرآن ابن عباس...، مناقبه كثيرة، انظر: الأعلام (٤/٩٥)، صفة الصفوة (ت١١٩)، الحلية (١/ ٣١٤)، الإصابة (ت٤٧٧٢).

التوبة، فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه يا رسول الله وما باب التوبة؟، فقال رسول الله ﷺ: «باب التوبة خلف المغرب، له مصراعان من ذهب، مكللان بالدر والياقوت، ما بين المصراع إلى المصراع أربعون عاما للراكب المجد، وذلك الباب مفتوح منذ خلق الله الدنيا إلى صبيحة طلوع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ولم يتب عبد توبة نصوحا ولجت التوبة من ذلك الباب، ثم تغرب الشمس والقمر فى ذلك الباب، ثم يرد المصراعان ويلتئم ما بينهما كأن لم يكن بينهما صدع قط، فعند ذلك لا يقبل من العبد توبة، ولا تنفعه حسنة يعملها فى الإسلام، إلا من كان قبل ذلك محسنا، فإنه يجرى له عمله على ما كان يجرى قبل ذلك، وإلى ذلك الإشارة بقوله عز وجل ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾[1].

بادر إلى التوبة الخلصاء مجتهدا	والموتُ ويحكَ لم يمددْ إليك يدا
وارقبْ من الله وعدا ليس يُخلفهُ	لابد لله من إنجاز ما وعدا
فإنما المرءُ فى الدنيا على خطرٍ	إن لم يكن ميتا فى اليوم مات غدا

[بادروا بالتوبة]

إخوانى: بادروا قبل أن يفوت الغرض بالمرض إن عرض، فكأنكم بمبسوط الأمل وقد انقبض، وبمشيد المنى قد وَهَى وانتقض.

شعر:

يا ساكنَ الدنيا تأهَّبْ	وانتظر يــــوم الفراق
وأعدَّ زاداً للرحيـــل	فسوف يحـدى بالرفاق
وابك الذنوب بأدمـعٍ	تَنْهَلُّ من سحب المآق
يا من أضاع زمانَه	أرضيت ما يـفنى بباق

(1) الأنعام: ١٥٨ ، ولم أجد الحديث بهذا التمام. ، أما إغلاق باب التوبة ففى حديث صفوان بن عسال عند أحمد (٤/ ٢٤، ٢٤١)، والترمذى (٣٥٣٥، ٣٥٣٦)، والدارقطنى (٧٥١)

إخواني: أين عزائم الرجال؟، أين صرائم الأبطال؟، تدعى وتتوانى هذا كله محال، إن هممت فبادر، وإن عزمت فثابر، واعلم أنه لا يدرك المفاخر، مَن رضي بالصف الآخِر.

شعر:

فلا تحسبوا أنَّ المعالي رخيصةٌ ... ولا أنَّ إدراك العُلاَ هَيّنٌ سهلُ

فما كلُ مَنْ قد حاولَ العزَّ نَالَه ... ولا كلُ مَنْ يهوى العلا نفسه تعلو

يا هذا: ركائب الرحيل قد أُنيخت بالجناب ولم تتحرج، وناقد البائع لا يروجه الزيف وناقدك بَهْرَج[1]، كيف يلحق السابقين كسلان أعرج؟.

ما يحصل برد العيش إلا من يدخل بحر التعب.

[عبادة يحيى عليه السلام]

قال عمرو بن العاص[2]: ذكر رسول الله ﷺ يحيى بن زكريا عليهما السلام فقال: «أول ما كان من زهده أنه أتى بيت المقدس فرأى المجتهدين من الأحبار والرهبان عليهم مدارع[3] الشعر، وبرانس[4] الصوف، وقد خرقوا تراقيهم وشدُّوها إلى سواري بيت المقدس، فلما رأى ذلك أتى أمه فقال: يا أماه انسجي لنا مدرعة من شعر وبُرْنُساً من صوف حتى آتي بيت المقدس أَتَعَبَّدُ مع الأحبار والرهبان، فقالت له أمه: حتى يدخل نبي الله زكريا عليه السلام، فلما دخل أخبرته بقول يحيى، فقال: يا بني ما يدعوك إلى هذا وأنت صبي صغير؟، قال: يا أبت أما رأيتَ من هو أصغَرُ مني قد ذاق الموت؟، قال: بلى، قال: دعني أذهب فيما يُهَوِّن عليَّ سكرات الموت، فصنعت له أمه ما طلب، فتدرع ولبس البرنس، وأقبل يتعبد حتى أكلت مدرعة الشعر بدنه، فنظر ذات يوم إلى بدنه وقد أنحله الشعر فبكى،

(١) بَهْرَجَ: زيَّفَ.

(٢) عبد الله بن عمرو بن العاص (٧ق هـ - ٦٥هـ = ٦١٦ - ٦٨٤م) الصحابي الجليل، الناسك، القرشي، من أهل مكة، كان كثير العبادة، وكان يشهد الحروب والغزوات.
انظر في ترجمته: الحلية (١/ ٢٨٣)، صفة الصفوة (ت٨٢)، والإصابة (ت٤٨٣٨)، الأعلام (٤/ ١١١).

(٣) نوع من الثياب مشقوق من الأمام.

(٤) البُرْنُس: كل ثوب رأسه منه ملتزق به.

فأوحى الله تعالى إليه: أتبكى على ما نحل من بدنك؟؛ فوعزتى وجلالى لو اطَّلَعْتَ على النار اطِّلاعةً لتدرعت الحديد فضلا عن المنسوج، فعند ذلك بكى يحيى حتى أكل لحم خديه الدموع وما شعر بذلك، فقال زكريا: يا بنى إنما سألت الله تعالى أن يهبك لى قرة عين، والآن فقد كدَّرتَ علىَّ حياتى بكثرة بكائك، فما يدعوك إلى هذا كله؟، قال: يا أبت أنتَ حملتنى على ذلك، قال: متى؟!، قال: ألست القائل: إن بين يدى الساعة عقبةً كؤوداً لا يقطعها إلا البكاءون من خشية الله تعالى؟!، ألست القائل ذلك؟ قال: بلى، قال: فدعنى أبكى لعلى أقطع هذه العقبة، ثم نهض يريد الخلوة، فقالت له أمه: مهلا حتى أعمل لك قطعتين من لبود يواريان أضراسك وينشفان الدموع، قال: شأنك وما تصنعين، فاتخذت له قطعتين من لبود مكان لحم الخدين يواريان الأضراس وينشفان الدموع.

شعر:

لا تَحسبوا فيضَ النواظرِ دمعٌ	هى مهجتى تَرَفَّضُ من أجفانى
ما أدَّعى زوراً فهذى أعظمـــى	نَحلَتْ وهذا الدمْع احمر قانى

وكان زكريا عليه السلام إذا أراد أن يعظ بنى إسرائيل نظر يمينا وشمالا فإن رأى يحيى لم يذكر جنة ولا نارا، فأقبل يحيى ذات يوم وقَدْ لفَّ رأسه بعباءة فنظر زكريا فلم يره، فأنشأ يُحَدِّث فقال: أخبرنى خليلى - يعنى جبريل - أن فى جهنم جبلا يقال له السكرات، فى أصل ذلك الجبل واد يقال له غضبان، مملوء بغضب الرحمن، فى الوادى جب مسيرته مائة عام، فى ذلك الجب توابيت من نار، فى تلك التوابيت صناديق من نار، فى تلك الصناديق لحف من نار، قال: فرفع يحيى رأسه وقال: واغفلتا عن السكرات، وخرج هائما على وجهه، قال: ثم بعد ذلك جاء زكريا ودخل على أم يحيى، فقال لها: قومى فاطلبى يحيى وما إخالك تجديه إلا ذَاقَ وَقْدَ[1] الموت، قال: فخرجت فى طلبه، ولم تزلْ تَطُوِّف عليه حتى وجدته، فدنت منه، وقَبَّلَت رأسه ووضعته فى حجرها، وسألته أن ينطلق معها، فلما

(١) الوقد: الضرب الشديد جداً.

أتت منزلها صنعت له عدسا ووضعته بين يديه، فرفع رأسه إلى السماء، ثم أطرق وهو مستبشر وأكل من ذلك العدس، واضطجع، فدثرته أمه، فنام فلم يستيقظ حتى طلعت الشمس، فأوحى الله تعالى إليه: يا يحيى وهل وجدت دارا خيراً لك من داري أو جواراً خيراً من جواري؟ قال: فعند ذلك نهض مذعورا، ونادى بأعلى صوته: يا رب أقلنى[1] اليوم عثرتى؛ فوعزتك لا أستظل بعد هذا اليوم بظل سوى ظل بيت المقدس، ثم قال لأمه: ناولينى مدرعة الشعر وبرنس الصوف فإنى أخشى أن توردينى المهالك، فقال لها زكريا: ناوليه فإن ولدى قد كشف له عن قناع قلبه، لا ينتفع بالعيش بعد ذلك.

شعر:

دَعْ يا عذولُ ملامةً إنَّ الهوى	لهبٌ يزيدُ اللومُ فى إيقادهِ
هذى الخيامُ خيامُ سعدى فانتبه	واستعمل الإنصاف فى إسعاده
وارجع إلى الوادِ الذى فيه الهوى	واستطلع الأخبارَمن ورُاّدهِ
إن كان هذا اليومُ يومَ رحيلِهم	فاليوم ن دنياه آخر زاده

قال: «فخرج يحيى وتَعبَّد حتى كان من أمره ما كان».

[عليك بطريقهم]

اسمع يا بعيدا عن المجاهدة قد اقتسم الرعيل الأول النفل، يا من انحرف عن جَادَّتهم تيامن، يا قليل الهمة أَقَلُّ ما فى الرقعة البيدق فإذا نهض تفرزن[2]، متى همت أقدام العزم بالسلوك انقطع من بين يديها سد القواطع، ومتى هاب الغائص موج البحر فى نيل الدر لم يحصل شيئًا.

إلى كم حبسها تشكو المضيقا	أثرها ربما وجدتْ طريقا
أتعقلهـــا وتقنــع بالهوينــا	تكون إذًا بِذِلَّتِهَا خليقا[3]

(١) اغفر لى واصفح عنى.

(٢) البيدق.. والفرزن، من قطع الشطرنج..، البيدق (العسكرى)..، الفرزن (الوزير).

(٣) فى المدهش (ص١٧٧) نسب الأبيات للمهيار، وهى فى ديوان شعره (٢/ ٣٥٣).

كأنك بحرب التلف قد قامت على ساق، فانهزمت جيوش الأمل، وإذا ملك الموت قد برز للروح يجتذبها بخطاطيف الشدائد، وقد أوثق كتاف الذبيح، وحار البصر لشدة الهول، وملائكة الرحمة عن اليمين قد فتحوا أبواب الجنة، وملائكة العذاب عن الشمال قد فتحوا أبواب النار، وجميع المخلوقات تستوكف[1] الخبر، والكون كله قد قام على صيحة واحدة، إما أن يقال سَعدَ فلان أو شقى، فحينئذ تنجلي أبصار ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾[2]، واأسفًا من حياة على غرور، وموت على غفلة، ومنقلب إلى حسرة، ووقوف يوم الحساب بلا حجة، يا هذا مثّل نفسك فى زاوية من زوايا جهنم وأنت تبكى أبدا، وأبوابها مغلقة، وسقوفها مطبقة، وهى سوداء مظلمة، لا رفيق تأنس به، ولا صديق تشكو إليه، ولا نوم تستريح به ولا نفس.

قال كعب الأحبار[3]: إن أهل النار ليأكلون أيديهم إلى المناكب من الندم على تفريطهم، وما يشعرون بذلك.

ويحك تهيأ لتلك الساعة، حَصّل زادًا قبل العوز.

شعر:

لو تزودت من شميم عرار[4] نجد   فما بعد العشية من عرار[5].

*****

---

(1) ينتظرونه ويسألون عنه. (2) الكهف: ١٠١.

(3) كعب بن ماتع بن ذى هجن الحميرى (ت ٣٢هـ = ٦٥٢م)، ابو إسحاق، تابعى، كان فى الجاهلية من كبار علماء اليهود فى اليمن، وأسلم فى زمن أبى بكر، وقدم المدينة فى دولة عمر، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيراً من أخبار الأمم الغابرة، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة، انظر: الأعلام (٥/٢٢٨)، الحلية (٥/ ٣٦٤)، صفة الصفوة (ت٧٤٢)، النجوم الزاهرة (١/ ٩٠)، تذكرة الحفاظ (١/٤٩)، الإصابة (ت٧٤٩٨).

(4) نبات طيب الريح.

(5) فى المدهش (ص ١٨٥) نسب البيت للصمة القشيرى.

الفصل الثامن

[اقتل هواك]

ياهذا، إنما خُلقت الدنيا لتجوزها لا لتحوزها، ولتَعْبُرْهَا لا لِتَعْمرهَا، فاقتل هواك المائل إليها، واقبل نصحى لا تعول عليها.

شعر:

لا شيءَ فيما ترى تبْقى بَشاشتُه	يبقى إلالهُ ويفنى المالُ والولدُ
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه	والخلد قد حاولت عادٌ فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجرى الرياح به	والإنس والجن فيما بينها يغدوا
حوض هنالك مورود بلا كدر	لابد من ورده يوما كما وردوا[1]

كم أخرج الموت نفسا من دارها لم يُدَارِها؛، وكم أنزل أجسادًا بجارها لم يجارها!، وكم نقل ذاتا ذات خطايا بأوزارها!، وكم أجرى عيوناً كالعيون على بُعْدِ مزارها.

شعر:

يا مغرمًا بوصال عيشٍ ناعمٍ	سَتُصَدُّ عنه طائعًا أو كارها
إنَّ المنيةَ تُزْعِجُ الأحرار عن	أوطانهم والطير عن أوكارها

يا من قد انطوى بَرْدُ شبابه وصغره، وجُذبت خِلَعُ تلفه، وبلغت سفينته ساحل سفره.

شعر:

وكُلٌّ علـــى ثنية الـــــوداع	فلـــم يبق إلا نظـــرة تتغنم

لا فى الشباب وافقت، ولا فى الكهولة رافقت، ولا فى الشيب أفقت، ولا فى العتاب استفقت، وما آمنت بالمعاد ولا صدقت.

(١) فى المدهش (ص٢٧٤) نسب الأبيات لورقة بن نوفل.

ولقد أنذرنا الموت بمن أخذ منا، ونعلم هجومه علينا وقد أمِنَّا، أما ذكرتنا المواعظ مآلنا، فمالنا ما لنا؟.

شعر:

واعجبـــًا لغـــافلٍ أمَامـــهُ — هجوم ما لا يتقى إذا هجـــم
إذا تخطاه على عهد الصبا — أو الشباب لم تفته فى الهـرم

قال الأصمعى[1]: بينما أمير المؤمنين المهدى يتمشى فى قصره إذ سمع هاتفا يسمع صوته ولا يرى شخصه وهو ويقول:

كأنى بهذا القصرِ قَدْ باد أهله — وقد دَرَسَتْ أعلامُه ومنازلـــه
خُذْ أهبةً للموت إنك ميـت — وإنك مسئولٌ فما أنت قائله؟

فقال المهدى[2]:

أقول بأنَّ الله لا شىء غيـره — وذلك قول ليس تفنى فضائله

فقال الهاتف:

تزود من الدنيا لسيرك بلغة — فقد أزف الأمرُ الذى بك نازله

فقال المهدى:

متى ذاك؟! خبِّرنى فإنى سأفعل — أحصل ما قد قلته لى وأعاجله

---

(١) عبد الملك بن قريب بن على بن أصمع الباهلى (١٢٢ ـ ٢١٦هـ = ٧٤٠ ـ ٨٣١م)، أبو سعيد، الأصمعى، راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان، كان كثير التطواف فى البوادى، يقتبس علومها ويتلقى أخبارها ويتحف بها الخلفاء.
انظر ترجمته فى: الأعلام (٤/ ١٦٢)، وفيات الأعيان (١/ ٢٨٨)، تاريخ بغداد (١٠/ ٤١٠)، التقريب (١/ ٥٢١)، الكبير (٥/ ٤٢٨)، الجرح والتعديل (٥/ ٢٦٣)، التهذيب (٦/ ٤١٥)، طبقات النحويين للزبيدى (ص١٦٧)، الأنساب للسمعانى (١/ ٢٩٣)، العبر (١/ ٣٧٠)، الميزان (٢/ ٦٦٢)، شذرات الذهب (٢/ ٣٦).

(٢) محمد بن عبد الله المنصور بن محمد بن على العباسى (١٢٧ ـ ١٦٩هـ = ٧٤٤ ـ ٧٨٥م)، أبو عبد الله، المهدى بالله، من خلفاء الدولة العباسية فى العراق، أقام فى الخلافة عشر سنين وشهرا، كان محمود العهد والسيرة، محببا إلى الرعية، حسن الخَلق والخُلق، جوادًا..
انظر فى ترجمته: الأعلام (٦/ ٢٢١)، فوات الوفيات (٢/ ٢٢٥)، مروج الذهب (٢/ ١٩٤ ـ ٢٠١)، تاريخ بغداد (٥/ ٣٩١، الوافى بالوفيات (٣/ ٣٠٠)، تاريخ الطبرى (١٠/ ١١ ـ ٢١).

فقال الهاتف:

تمتع ثلاثا بعد عشــــرين ليلــة ... إلى أربع فالشهر لن تكامله

قال: فلم يلبث المهدى بعد ذلك إلا سبعة وعشرين يوما ومات[١].

إخوانى: اعتبروا بالذين وطنوا وخزنوا، كيف ظعنوا وحزنوا، وانظروا إلى آثارهم تعلموا أنهم قد غُبنوا[٢]، لاحت لهم لذات الدنيا فاغتروا وفُتنوا، فما انقشعت سحائب المنى حتى ماتوا ودُفنوا.

[بئس ما اخترت]

شعر:

جمعوا فما أكلوا الذى جمعوا ... وبنوا مساكنهم فما سكنــوا

فكأنهــم كانــوا بهــا ظعنـــا ... لما استراحوا ساعة ظعنوا[٣]

يا مختار العاجلة بئس ما اخترت، يا مقبلا على المعاصى أدبرت، كم تَعِدُ بالتوبة ولا تفى، ويحك إن اللذة بالعقوبة لا تَفِى، لله درُّ أقوامٍ بادوا الدنيا وحاذروا آثامهم، جعلوا الصوم طعامهم، والصمت كلامهم، فالأبدان بين أهل الدنيا تسعى، والقلوب فى رياض الملكوت ترعى، قاموا لِخوف القيامة بالأوامر، ووقفوا أنفسهم على الخير، وباتوا كالمؤامر، هجروا بالصيام لذيذ الهوى فى الهواجر، وصمت اللسان حتى كأنه مقطوع عن الخنا[٤] بالخناجر، وجرى الدموع واصبا[٥] حتى لقد محى المحاجر[٦].

*****

(١) الخبر فى البداية والنهاية (١٠/ ١٥٥ ـ ١٥٦)، وبستان الواعظين للمصنف (ص٢٢١) بتحقيقى، وفى كتابى «أشعار الجن» (٥٢٠ ـ ٥٢)..، قلت: وفيه نظر فلا يعقل أن يعرف الهاتف موعد وفاة المهدى، فهذا مما لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى.

(٢) خُدعوا.

(٣) ظعنوا: ارتحلوا.

(٤) الخنا: الفُحش.

(٥) واصب: دائم.

(٦) المحجر: ما أحاط بالعين.

[نحن أصحاب المصائب]

قال أبو عبد بن خفيف: خرجت من مصر أريد الدجلة[1] للقاء الروذباري[2] فقال عيسى بن يونس[3] المعروف بالزاهد: إن في صور[4] كهلا وشابا وقد اجتمعا على حالة المرافقة، فلو نظرت إليهما نظرة واحدة لرجوت أن تنتفع بذلك، قال: فمضيت إلى صُور فدخلتها وأنا جائع عطشان، فجئت إلى مسجد فإذا أنا بشخصين جالسين، فَسَلَّمْتُ عليهما فما ردَّا عليَّ السلام[5]، فكلمتهما فلم يردَّا على جوابا، فقلت: نشدتكما الله تعالى إلا كلمتماني، فرفع الشاب رأسه من مرفقته وقال: يا ابن خفيف، الدنيا قليل، وما بقي من القليل إلا القليل، فخذ من القليل قليلا تنجو به، ثم طأطأ رأسه وسكت عني، فبقيت عندهما حتى صليا العصر، فذهب جوعي وعطشي وتعبي، فقلت للشاب: بالله عليك عظني، فرفع رأسه وقال: يا ابن خفيف، نحن أصحاب المصائب..، ولم يزدني على ذلك، فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام؛ لأني رأيتهما على ذلك، فلما كان اليوم الرابع قلت في سري: لأحلفنهما حتى يعظاني، لعلي أنتفع بموعظتهما، قال: فرفع الشاب رأسه وقال: يا ابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته، ويعظك بلسان قوله، والسلام عليك، انصرف عنا فقد شغلتنا.

شعر:

تَشَاغَلَ قَـــوْمٌ بـــدنياهم	وقـــد تخلـــوا لأُخْرَاهُم
أحَبوا الفرارَ وصـــاموا النهارَ	وبالليل صلـــوا لِمولاهم
فَحَـلَّ السقـام بأبـــدانهم	فعـــاد الطبيب وداواهم
وأرضاهـــم بالرضـــا عنهُم	وعـــن سائر الناسِ أغناهُم

---

(١) موضع.

(٢) أحمد بن القاسم الروذباري، أصله من بغداد لكنه سكن مصر وتقدم بها، وكانت له معرفة بالحديث، توفي بمصر سنة ١٢٢هـ..، وانظر: صفة الصفوة (ت٣١٤)، الحلية (١٠/٣٥٦).

(٣) عيسى بن يونس، ابن أبي إسحاق السبيعي، أبو عمرو، ثقة مأمون، من الثامنة، حديثه في الكتب الستة، مات سنة ١٩١هـ، انظر: الجرح والتعديل (٨/٢٩١)، التهذيب (٨/٢٣٧)، التقريب (٢/١٠٣)، صفة الصفوة (ت ٧٩٢).

(٤) مدينة في لبنان اليوم.

(٥) هذا مُخالف للشرع.

[أخذتُ من الغيب!]

قال بعض العارفين: كنت فى البادية مع القافلة، فتقدمت فرأيت امرأة تمشى وبها ضعف، فأدركتنى عليها رقة، وكانت معى دراهم فوضعت يدى فى جيبى فأخرجتها، وَقلت لها: خذى هذه الدراهم، وارجعى معى إلى القافلة أجمع لك شيئا، وإذا فى يدها دراهم، فناولتنى إياها وقالت لى: أنت أخذتَ من الجيب، وأنا أخذتُ من الغيب، اردد دراهمك عليك، فَمَن كان هذا حَالُه فليس بمحتاج إليك.

وقال أبو عبد الله الواعظ: خرجت سنة أريد الحج، فبينما نحن فى الطريق وإذا بشاب مصفر اللون، نحيف الجسم، فأدركتنى عليه رقة وشفقة لما رأيت من حاله، ثم فكرت فى شىء أتحفه به فأخذت شيئا من خشنكان[1]، وقلت له: يا ولدى خذ هذا تتقوت به فى هذه الأرض المقفرة، فنظر إلىّ وقال: أبمثل هذا تتحف يا عبد الله؟!، هذا شىء جئت به معك من مصر، وإنما نتحف الناس بمثل هذا، وأخرج من مرقعته وَرْدًا مضعفا فنثره علىّ، وغاب عنى فلم أره.

فرّغ القوم قلوبهم من الشواغل، فضربت فيها سرادقات المحبوب، فشغلوا به عن كل مطلوب، متى تطرق طريقهم قبل الطوارق؟، هذا ذئب السقام قد عوى بالعواتق، يا من أعماله فيما خلا للخلائق، كم دواك الطبيب وكم رقى بالرقائق؟!.

شعر:

صحا كلُ نشوانِ[2] الغرامِ من الهوى وأنتَ على حكمِ الصبابةِ نازل

وَلِّ الدنيا ظهرَك، تسفر لك الآخرة نقابها، تَعَزَّ عن الدنيا تُعَزّ، خذ قدر البلغة وَجُزْ تَفُزْ.

---

(١) نوع من الحلوى (فارسية).

(٢) نشوان: سكران.

[من أحوال العابدين]

قال الجنيد[1] رضى الله عنه: شهد بفضل شقيق البلخى سبعون عالما، فقلت لأصحابى: سيروا بنا فى غداة غد إن شاء الله تعالى إلى زيارة شقيق، وكان بيننا وبينه مسافة بعيدة، قال: فسرنا إلى أن أتينا البلد التى هو فيها آخر النهار، ومن أدب الصوفية كراهية الدخول على أحدٍ بعد العصر، فأتينا إلى مسجد مهجور فصلينا فيه المغرب، وأكلنا كسرًا يابسة كانت معنا، وقمت إلى ما كتب الله لى ثم غفوت، وإذا بهاتف يهتف بى وفى يده لوح مكتوب، فناولنيه وقال: يا أبا القاسم اقرأ هذا اللوح، فقرأته فإذا هو فيه: فلان سعيد، وفلان شقى، قوم أعرفهم وقوم لا أعرفهم، فقال: يا أبا القاسم أدرْ اللوح، فأدرته، فإذا فيه: شقيق البلخى من أهل الشقاء، فبكيت بكاءً شديدًا، وقلت: أرجع إلى بلدى، ولا أدخل على رجل من أهل الشقاء، ثم أعلمت أصحابى بالقصة، فقالوا: وما عليك من الدخول عليه؟ فإن يكن كذلك فقد علم الله نيتك فيه، وإن يكن سعيدا فقد فزنا بزيارته، قال: فرجعت إلى قولهم، فأتيته وقرعت عليه الباب، فخرج إلىَّ شيخ حسن الصورة، له شيبة يعلوها وقار، وتشرق منه الأنوار، فقال: يا أبا القاسم، شكر الله سعيك، وإنى كنت أولى بالسعى إليك، فقلت: من أين علمت أنى أبو القاسم؟، فقال: يا أخى إن لله عبادا إذا مسَّهم طيف من الشيطان تذكروا فطردوه، وإذا نزل بهم ولىٌّ الله رأوه بعين البصيرة فعرفوه!، قال الجنيد، فوقع علىَّ البكاء فبكيت بكاءً شديدا لما رأيته فى المنام، فقال: يا أبا القاسم ما هذا البكاء؟؛ أجزعا من المقدور؟ فقلت: يا سيدى برح الخفاء، ثم قصصت عليه القصة إلى آخرها، فقال: يا أبا القاسم إنما أنا عبد أمرنى سيدى ونهانى، فما أمرنى به فعلته، وما نهانى عنه تركته، والأمر بعد ذلك إليه، إن شاء أعتق، وإن شاء أحرق، فقلت له: مثلك جدير بأن يكون من خاصٍّ عباد الله عز وجل، فلما صلينا المغرب قدم إلينا كسرا يابسة فأفطرنا عليها، ثم قام إلى وِرْدِه، فغلبنى النوم وإذا بهاتف يقول لى: يا أبا القاسم اقرأ هذا اللوح، فقرأته فإذا فيه: شقيق البلخى

---

(١) الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادى الخزاز، (ت ٢٩٧هـ = ٩١٠م)، أبو القاسم ، الصوفى، هو أول من تكلم فى علم التوحيد ببغداد، انظر ترجمته فى: الأعلام (٢/ ١٤١)، الحلية (١٠/ ٢٥٥)، صفة الصفوة (ت ٢٩٦)، تاريخ بغداد (٧/ ٢٤١)، وفيات الأعيان (١/ ١١٧).

من أهل السعادة، فصرخت صرخة عظيمة، وهو قائم يصلى، فلما سمع ذلك أوجز فى صلاته، وقال. يا أبا القاسم هل محا ما شاء وأثبت ما شاء؟، قلت: يا سيدى قد كان ذلك، فقال: يا أبا القاسم فى غداة غدٍ أموت[1]، فإذا أنا مت فاطلع إلى هذه الكوة التى فوق المحراب فإنك تجد فيها عباءة وحنوطاً[2] وقطنا وقيراطا[3]، فإذا كفنتنى ووضعتنى فى لحدى فضع القيراط فى لحدى فإنه سيأتيك الخبر، فجعلت أراقب الشيخ لأكون مُشَاهِدهُ عند الموت، فغلبتنى عينى فنمت، فأدركتنى جنابة، فقلت لبعض أصحابى: اخرج مع حتى أَتَطَهَّر، فخرجت فطهرت، فلما رجعت وجدت الشيخ فى محرابه ساجدا، فحَرَّكته فإذا هو ميت، فصعدت الكوة وأخذت العباءة والحنوط والقيراط، وغسلته وكفنته وصلينا عليه، فلما ألحدتهُ وضعت القيراط فى كفنه فوضع يده عليه، ثم واريته ورجعت، قال: فلما كان الليل كنت أسمع لمحرابه أنينا، فلما نمت رأيته راكبا على نجيب[4] ومعه جماعة، فقلت: يا سيدى، ما فعل الله بك؟، فقال: با أبا القاسم أوقفنى بين يديه وقال لى: يا شقيق ما فعلت فيما وجدت؟، فقلت: إلهى وسيدى، أنت تعلم أنى لم أجد من الدنيا إلا البلاغ، ولم أملك منها إلا هذا القيراط وجدته بمنى، وقد عَرَّفته[5] سنة، فلم أجد له طالبا، وقد جئتك به، فقال: يا شقيق ضعه من يدك وادخل الجنة[6].

[وصلوا إلى مولاهم]

شعر:

وصلــوا إلى مــــولاهُم ويَقِينا	وتَنَعَّمـــــوا بوصالِـــــه شقينا
ذهبت شبيبتنا وضـــــاع زماننا	ودنــــت منيتنا فمَــــن ينجينا؟
فتجمــعــوا أهل القطيعة والجفا	نبكى شهورا قد مضـــت وسنينا

(١) مثل هذا لا يصح ولا يُعقل.

(٢) الحنوط ما يُخلط من الطِّيب لأكفان الموتى.

(٣) القيراط: عُملة نقدية.

(٤) النجيب من الإبل: الخفيف السريع القوى.

(٥) ذكر أوصافه للناس ليعرفه صاحبه فيأخذه

(٦) فى النفس من هذه القصة الكثير والكثير، وليت المصنف عدل عنها وعن أمثالها مما يتعارض مع العقل والنقل الشرع.

الفصل التاسع

[كتابك قد حوى تفريطك]

يا معدوماً بالأمس، فانيا فى الغد، عاجزاً فى الحال، إلى كم تغتر بسلامتك وتنسى حتفك؟ وأملك بين يديك وأجلك خلفك، وكتابك قد حوى تفريطك وخلفك، كم نُهيت عن أمر فما كَفَّكَ النهىُ أن تبسط كفك؟، يا من طال زلله وتعثيره، تَفَكَّر فى عُمْرٍ قد مضى كثيره، يا قلبًا مسيئا قد قل نظيره، كم هذا الهوى وقد هوى أسيره.

[وثبة إلى الفردوس]

يحكى عن توبة بن الصمة[1]، وكان بالرقة[2] إنه جلس ذات يوم يحاسب نفسه، فحسب عمره فوجده ستين سنة، وحسب أيامها فإذا هى إحدى وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وقال: يا ويلتى ألقى الله بإحدى وعشرين ألف ذنب وخمسمائة ذنب؟، على أن فى كل يوم ذنب واحد فكيف ولى فى كل يوم عشرة آلاف ذنب؟!، ثم خرَّ مغشيا عليه، فَحَرَّكُوه، فإذا هو ميت، فسمعوا قائلا يقول: يا لها من وثبة إلى الفردوس![3].

اسمع أيها القاعد عن أعالى المعالى، سبق الأبطال والبطال ما يبالى، ستعرف خبرك يوم عتابى وسؤالى، وتقول يوم الحساب مالى ومالى، أعمالك إن تصفحتها لهواك لا لى، لو أثَّر فيك وعظى ومقالى، تجرى الحسرات على حر المقالى.

[اطلب أخبارهم]

إلى أى حينٍ أنت فى زى مجرمٍ   وحتى متى فى شقوةٍ؟ وإلى كم؟
فإلاَّ تمت تحت السيوف مكرما   تمت وتلاقى الذل غير مكـــــرم

(١) توبة بن الصمة ترجم له ابن الجوزى فى صفة الصفوة (ت٧٣٤) من عبَّاد أهل الرقة.
(٢) مدينة فى سوريا.
(٣) الخبر فى صفة الصفوة (١٦٧/٤)... وفى الفصل العاشر من كتاب «الياقوتة» لابن الجوزى (مخطوط عندى مُصَوَّرته)، وفى كتاب «الارج» لابن الجوزى أيضا (ق١٢/ب)، وهو مخطوط عندى مصورته أيضا.

فشــب واثقـــا بالله وثبـــة ماجـــد

ترى الموت فى الهيجاء جنى النحل فى الفم

قال وهب بن منبه[1]: قال الحواريون لعيسى بن مريم عليه السلام: يا روح الله، من هم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟، فقال عليه السلام: هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها، فأصابوا منها ما يقوتهم يوما بيوم، وتركوا ما وراء ذلك، فما عرض لهم من زللها رفضوه، وما ارتفع منها لغير الله وضعوه، خَلِقَت[2] الدنيا عندهم فلم يجددوها، وخربت فى صدورهم فلم يعمروها، فهم يهدمونها ويبنون آخرتهم، ويبيعونها ويشترون ما يبقى لهم، لهم حال غريب، وعندهم الخبر العجيب، بهم قام الكتاب، وبه قاموا، وبهم نطق، وبه نطقوا، ليسوا يرون نائلا دون ما ينهجون، ولا أمانا دون ما يرجون، ولا خوفا دون ما يجدون، أولئك الذين لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون.

فيا من حجبه الهوى عنهم، وأبعدته الخطايا منهم، اطلب فى الأخبار أخبارهم، واتبع فى الآثار آثارهم، فإن وقفت ببعضهم حملك إلى أرضهم.

[جئت لأسرقه فسرقني!]

ذكر فى بعض الأخبار أن لصا تَسَوَّرَ على مالك بن دينار[3] داره، فلم يجد فى الدار شيئًا يسرقه، فرآه وهو قائم يصلى، فأوجز مالك فى صلاته، ثم التفت إلى اللص، وسَلَّمَ عليه، وقال: يا أخى تاب الله عليك، دخلت منزلى، فلم تجد ما تأخذه، ولا أدعك تخرج إلا بفائدة، وقام وأتاه بإناء فيه ماء، وقال له: توضأ وصَلِّ ركعتين، فإنك تخرج بخير مما جئت فى طلبه، فقال له اللص: نعم وكرامة، وقام وتوضأ ، وصلى ركعتين، وقال: يا مالك أيخف عليك أن أزيد ركعتين أخرتين؟ قال: زد ما قدر الله لك، فلم يزل اللص يصلى إلى الصبح، فقال له مالك: انصرف راشدًا، فقال: يا سيدى أيخف عليك أن أقيم عندك هذا

(١) تقدمت ترجمته.

(٢) أى أصبحت بالية قديمة.

(٣) تقدمت ترجمته.

اليوم فإنى قد نويت صيامه؟، فقال له مالك: أقم ما شئت، فأقام عنده أياما صائما قائما، فلما أراد الانصراف قال اللص: يا مالك قد نويت التوبة، فقال مالك: ذلك بيد الله عز وجل، فتاب اللص وحسنت توبته، وخرج من عنده فلقيه بعض اللصوص فقال له: أظنك وقعت بكنز؟!، فقال: يا أخى وقعت بمالك ابن دينار، جئت لأسرقه فسرقنى، وقد تبت إلى الله عز وجل، وها أنا ملازم الباب فلا أبرح حتى أنال ما ناله الأحباب!.

[سكران تائب]

وقيل: مر إبراهيم بن أدهم[1] رضى الله تعالى عنه بسكران على قارعة الطريق، فعدى إليه وقعد عند رأسه، وجعل ينظر إليه ويبكى ويقول: يا ليت شعرى بأى ذنب أصابتك هذه الفتنة؟، ثم وضع رأسه فى حجره، ومسح وجهه ثم دعا بماء فغسل وجهه وفمه، ثم مضى وتركه، فلما أفاق أُخْبِرَ بذلك، فخجل السكران وندم، وتاب إلى الله عز وجل، وأتى إلى إبراهيم وعاهده أن لا يعود إلى المعصية أبدا، فرأى إبراهيم فى منامه كأن قائلا يقول له: يا إبراهيم أنت طهرت فمه لأجلنا ونحن طهرنا قلبه لأجلك

انظر يا معجبا بتعبده، تأمَّل فضائل السابقين، وقد هريت شقاتق[2] كبرك، مضى والله أهل المعانى، ويقى أرباب الدعاوى.

شعر:

هاتيك ربوعهم وفيها كانـــوا ... بانوا عنها فليتهم ما بانـــوا

ناديت وفى حشاشتى النيران ... يا قوم متى ترحل السكان؟

اسمع يا من كثر تردده إلى المجلس ولم تزل قسوة قلبه، لا تضجر؛ فللدوام أثر، جالِس الباكين يتعد إليك حزنهم، فتأثير الصحبة لا يخفى، أما ترى دود البقل أخضر؟!.

---

(١) تقدمت ترجمته

(٢) الهَرَتُ: سَعَةُ الشِّدْقِ..، والعرب تقول للخطيب الجهر الصوت الماهر بالكلام: هو أهرت الشِّقْشِقَة.

[مَن اطْمَأَنَّ به ابتهج]

قال أبو تراب[1]: جاء صبى من الروم إلىَّ عند أستاذى أبى يعقوب السوسى فأسلم، وصحبه أياما يسيرة، فقال له الأستاذ: أتحج؟ قال: نعم، فقال لى الأستاذ: خذ بيده وحج بيده، فقلت: يا أستاذى لا يتهيأ لى أن أحج به إلا بنفقة، فقال لى: خذ بيده وادخل البادية، فقمت من وقتى، امتثالا لأمر الشيخ، وخوفا من مخالفته، فأخذت بيده ودخلت به طريق الحج، فكنا كلما نزلنا منزلة وجدنا ما نحتاج إليه مهيأ فنأكل ونشرب، فلم نزل كذلك إلى أن بلغنا مكة، فلما رجعنا وبلغنا الرملة مرض الصبى فجلست عنده وقلت له: ما تشتهى؟، قال: الرمان، فصعدت الجبل، واحتطبت منه حطباً، وجئت به إلى السوق فبعته بدرهم، واشتريت به رمانا، وجئت به إليه، وقلت له: كُلْ شهوتَك، فقال: ما آكله لأنه حرام، فَحَزَّ قوله فى نفسى وقلت: هذا قريب عهد بالإسلام من أين له ما ادَّعاه؟، فسمعت صوتا من خلفى وهو يقول: لا تنكر على ولى الله ما ذكره، هو صادق فى قوله، لأنك ابتعت الحطب من رجل يخدم الرجل[2].

وأنت لا تشعر، يا هذا أما تعلم أنه من قرع بابه ولج؟، ومن اطمأن به ابتهج؟، ومن صفى سره صفت له العطايا؟، ومن اشتغل به عن غيره توالت عليه التحف والهدايا؟، ما امتثل أوامره عبد إلا أثَابَهُ، ولا دعاه مضطر إلا أجابه.

[الله يقبل التائب]

قال بعض المريدين: أتى رجل إلى رابعة العدوية[3] فقال لها: إنى أكثرت من الذنوب والخطايا، أفتراه إن تُبْتُ يقبلنى؟، فقالت: ويحك؛ أما سمعته يدعو المُدْبرين عنه، فكيف لا يقبل عى المقبلين عليه؟!.

---

(١) عسكر بن الحصين ـ أو ابن محمد بن الحسين ـ النخشبى (ت٢٤٥هـ = ٨٥٩م) أبو تراب، شيخ عصره فى الزهد والتصوف، أخذ عنه الإمام أحمد وآخرون، وقف ٥٥وقفة بعرفة، انظر ترجمته فى الأعلام (٤/ ٢٣٣)، صفة الصفوة (ت ٧١٥). (٢)كذا بالأصل. . ،ولعلها «الصنم». .أونحوها.

(٣) رابعة بنت إسماعيل العدوية، (ت١٣٥هـ=٧٥٢م) أم الخير، مولاة آل عتيك، البصرية، صالحة مشهورة، من أهل البصرة، ومولدها بها، لها أخبار فى الزهد والعبادة والنسك، انظر فى ترجمتها: الأعلام (٣/ ١٠)، وفيات الأعيان (١/ ١٨٢)، صفة الصفوة (ت٥٨٨).

شعر:

إنّى خلوتُ بِمُهْجتى فعتبتها ... يا لائمى من قبل لومِ اللائمى

قالت فإنى قَدْ قدمتُ على الذى ... أسلفتُه من زلتى وجرائمى

أتراه يرحمنى ويقبل توبتى ... من لى سواه لزلتى من راحم

[هبت عواصف الأقدار]

هبَّت ع صف الأقدار فى بيداء الأكوان، فنقلت الوجود وعم الخبر، فلما ركدت الريح إذا أبو طالب[1] غريق فى لجة الهلاك، وسلمان[2] على ساحل السلامة، قضيت فى القدم سلامة سلمان، فأقبل يناظر أباه فى دين قد أباه، فلم يكن لأبيه جواب إلا القيد، فنزل به ضيف ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾[3]، فنال بإكرامه منزلة: «سلمان منا أهل البيت»[4]، سمع أن راكبا على نية السفر، فسرق نفسه من حرز أبيه، ولا قطع، فوقف نفسه على خدمة الأدلاء وقوف الأذلاَّء، فلما أحس الرهبان بانقراض دولتهم، سلموا له أعلام الإعلام على علامات نبينا ـ عليه أفضل صلاة وأزكى سلام ـ وقالوا: إن زمنه قد أظل، فاحذر أن تضل، وإنه يخرج بأرض العرب، ثم يهاجر إلى أرض بين حرتين، فلو رأيتموه قد فلى الفلا والدليل شوقه، وخلى الوطن خلاء يزعجه توقه.

شعر:

إن بيتــا أنــت سَاكــنهُ ... غيرُ محتاجٍ إلى السرج

ومريضاً أنــت عائــدهُ ... قد أتاه الله بالفرج

وجــهُك المأمــول حجتنا ... يوم تأتى الناس بالحُجج[5]

---

(١) أبو طالب بن عبد المطلب الهاشمى القرشى، عم النبى ﷺ، كفله بعد وفاة جدة عبد المطلب، مات سنة (٣ق هـ= ٦٢٠م)، ولم يسلم.

(٢) سلمان الفارسى الصحابى الجليل، كان يسمى نفسه سلمان الإسلام، كان عالماً بالشرائع، وهو الذى دَلَّ المسلمين على حفر الخندق فى غزوة الأحزاب حتى اختلف عليه المهاجرون والأنصار، كلاهما يقول: سلمان منا، .فقال رسول الله ﷺ: «سلمان منا آل البيت» مات رحمه الله سنة ٣٦هـ =٦٥٦م) انظر ترجمته فى الأعلام (٣/ ١١١ـ ١١٢)، صفة الصفوة (٥٩)، طبقات ابن سعد (٤/ ٥٣ـ ٦٧)، الحلية (١/ ١٨٥)، مروج الذهب (١/ ٣٢٠)،الإصابة (٣٣٥٧).

(٣) البقرة: ١٥٥. (٤) ضعيف، أخرجه الحاكم (٣/ ٥٩٨)، والطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٦/ ١٣).

(٥) فى المدهش (ص٢١٥) نسب الأبيات للشبلى.

الفصل العاشر

[هذا أوان استعدادك]

يا من قد أخذ الهوى بأزمته[1]، وأمسك الردى بلمته[2]، يا رهين ذنوب تعلقت فى ذمته، هذا أوان جدك إن كنت مجداً، هذا أوان استعدادك إن كنت مستعدا.

شعر:

إذا لاحَ مِنْ دُنياكَ خيرٌ ففز به ... فإنَّ لجمع الدهر من صرفه شتا

فكم من مصيفٍ لم يشت بأهله ... وآخر لم يدركه صيفٌ إذا شتا

فيا من يذنب ولا يتوب، كم قد كتبت عليك ذنوب؟، خَلِّ الأمل الكذوب، فرُبَّ شروق بلا غروب، متى تنتبه لخلاصك أيها الناعس؟!، متى يطلب الآخرة يا من على الدنيا ينافس؟، متى تذكر وحدتك إذا انفردت عن مؤانس؟! يا من قسى قلبه وجفنه ناعس، يا مَن تحدثه الآمال دع عنك هذه الوساوس، أين من اعتاد سعة القصور؟، حُبس من القبور فى أضيق المحابس، أين الرافل[3] فى أثوابه؟ عُرِّى فى ترابه عن الملابس، أين الغافل بأمله عن أجله؟ استلبته كف المخالس[4].

[الموت قريب]

شعر:

ضجعوا بمهلكةٍ فى وسط معركة ... فزعا ودارهم من بعدهم درسوا

وعمهم حدث وضمهم جدث[5] ... باتوا وهم جثث فى الرمس قد حبسوا

كأنهم قَطُ ما كانوا وما خلقوا ... ومات ذكرهم بين الورى ونسوا

---

(١) الزمام: الخطام الذى يقاد به البعير.

(٢) اللِّمَّة: شعر الرأس.

(٣) الرافل: المتبختر المختال.

(٤) الخلس: الأخذُ على غرة وبغتة.

(٥) الجدث والرمس: القبر.

ولله درُّ العارفين بزمانهم، إذ باعوا ما شَانَهُم[1] بإصلاح شأنهم، ما أقل ما تعبوا، وما أيسر ما نصبوا، وما زالوا حتى نالوا ما طلبوا، شمروا عن سوق الجد فى سوق العزائم، وأصبحوا منزل النجاة وأنت باللهو نائم، متى تسلك طريقهم يا ذا المآثم؟ يا إخوان الأمل قد بقى القليل وتفنى المواسم.

شعر:

وما هى إلا ليلةٌ بَعْدَ ليلـــةٍ　　ويوم إلى يومٍ وشهر إلى شهـــر

مطايا يقربن الجديد إلى البلى　　ويدنين أشلاء الصحيح إلى القبر

فَتَيَقَّظ يا هذا لنفسك وانتبه، وأحضر قلبك ومَيِّز ما يشتبه، فهذا منزلك اليوم وغدا لستَ به!.

شعر:

إذا ما انجلى الرأى فاحكُم به　　ولا تَحكُمَنَّ بِمَــا يشتبه

وَنَبِّهْ فؤادَك مِـــن نومِـــه　　فإنَّ الموَفَّق مَـــن ينتبه

وإن كنتَ لـــم تنتبه بالذى　　وعظت به فانتبه أنـــت به

أين أنت من أقوام نصبوا الآخرة بين أعينهم فنصبوا[2]، فوفر النصب نصيبهم ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾[3] عرف القوم ما طلبوا فجَدُّوا ورغبوا، لم يرضوا لأنفسهم مارضينا، طلبوا أعلى المقامات، وسارعوا إلى رفع الدرجات، أُمروا فائتمروا، ونُهوا فانتهوا، فَوَقَّع لهم بالولاية فَأَمَروا ونَهوا.

[إبراهيم بن أدهم والنصرانى]

قال بعض الصالحين: كنت مع إبراهيم بن أدهم فى بعض أسفاره، فدخلنا الكوفة، فأوينا إلى مسجد خراب، قال: فوجدت ألم الجوع، فقلت: يا سيدى أنا جائع، فقال: ائتنى بدواة وقرطاس، فأتيته بهما فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، أنت المقصود فى كل معنى، والمشار إليه بكل معنى.

---

(١) شانهم: عَابَهُم.　　(٢) أى تعبوا.　　(٣) ص: ٤٦.

شعر:

أنا حـــامدٌ أنا شاكرٌ أنا ذاكرٌ	أنا جـــائع أنا بائس أنا عارى
هى ستة وأنـــا الكفيل بنصفها	فكن الكفيل بنصفها يا بارى
مدحى لغيرك لهـــب نار خضته	فأجرْ عبيدك من عذاب النار

قال: ثم دفع إلىَّ الرقعةَ وقال: ادفعها لأول رجل تجده، قال: فصادفت شابا حسن الوجه، نظيف الثياب، يسير على بغلة، فدفعت إليه الرقعة، فلما قرأها بكى وقال: أين صاحب هذه الرقعة؟، قلت: هو فى المسجد الفلانى، فناولنى صرة فيها ستمائة دينار، وقال: احملها إليه، فسألت عنه، فقيل: هو نصرانى، فتعجبت من ذلك، وحملت الصرة إلى إبراهيم وأخبرته بالقصة، فقال: ضعها فإن صاحبها يأتى فى هذه الساعة، قال: فلم نلبث إلا ساعة، وإذا به قد أقبل وقبَّل رأس الشيخ وقال: نعْمَ ما أرشدتنى إليه، ثم قال: يا سيدى اعرض علىَّ الإسلام، فعرض عليه، فأَسلم وحَسُن إسلامه.

وقال محمد بن إسماعيل الفرغانى: كنت مع عبد الواحد بن واقد، وإذا بقبطية معها حمار قد سَخَّرها جندى، فلما كان فى بعض الطريق راودها عن نفسها، فزجره الشيخ عبد الواحد عن ذلك وقال: دعها، فأبى ولح عليها، فغضب عبد الواحد لذلك غضبا شديدا، وأنكر عليه إنكاراً بليغا، فغضب الجندى وقال لغلمانه: خذوه، فقال عبد الواحد: يا أرض خذيه فأخذته الأرض، ومضت المرأة إلى حال سبيلها، ومضينا وتركناه، فلما رأيت ذلك منه قلت: لا أصحبنك بعدها، قال: ولم ذلك؟، قلت: لا آمنك إن زللت زلة أن تفعل بى مثل هذا، ثم انصرفت عنه.

[ولدينا مزيد]

قال جعفر بن محمد: اعتل بشر بن الحارث[1]، فعادته آمنة الرملية[2]،

---

(١) بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء، المروزى (١٥٠ـ ٢٢٧هـ =٧٦٧ ـ ٨٤١م)، أبو نصر، المعروف بالحافى، الزاهد المشهور، ثقة، من كبار الصالحين، له أخبار كثيرة فى الورع والزهد، انظر ترجمته فى: طبقات ابن سعد (٧/ ٣٤٢)، الجرح والتعديل (٢/ ٣٥٦)، الحلية (٨/ ٣٣٦)، تاريخ بغداد (٧/ ٦٧)، صفة الصفوة (ت٢٦١)، وفيات الأعيان (١/ ٩٠)، الأعلام (٢/ ٥٤).

(٢) من عابدات الرَّملة (مدينة مشهورة بفلسطين) ترجم لها ابن الجوزى فى صفة الصفوة (ت٨٢٨).

فبينما هى عنده إذ دخل الإمام أحمد بن حنبل[1] للعيادة، فقال: مَن هذه؟ فقيل: إنها آمنة الرملية جاءت للعيادة، فقال الإمام للشيخ: اسألها لنا الدعاء، فأعلمها الشيخ بذلك، فقالت: اللهم إن بشرا وأحمدَ يستجيران بك من النار فأجرهما، فانصرف الإمام أحمد، فلما كان الليل سقطت عليه رقعة فيها مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم، قد فعلنا ولدينا مزيد[2].

كم تدرس أخبارهم وما تدرس، إنْ طواهم الضنى فلقد بشرهم، إنْ نطقوا فبذكره، وإن تحركوا فبأمره، وإن فرحوا فلقربه، وإن ترحوا[3] فلعتبه، أقواتهم ذكر الحبيب، وأوقاتهم بالمناجاة تطيب، لا يصبرون عنه لحظة، ولا يتكلمون فى غير رضاه بلفظة، لو سمعتهم فى الرجاء يضجون، لو رأيتهم فى السَّحَر يضحكون.

شعر:

ولمَا وقَفْنا بالديار وقد غَدَتْ ... بنا سعاد وهى طيبةُ العَــرْفِ

بكينا فمن دمعٍ يمازجُــهُ دم ... هناك ومن دمع تجود به صرف

يا هذا: لو رأيت مطايا أجسامهم وقد أذابها الثرى، فهى تحن مما تجن، فالناس فى الغفلات، وهم فى قطع الفلوات ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾[4].

شعر:

رفقا بها يا أيها الزاجر ... قَدْ لاح سلع وبدا حاجر[5]

فخلها تخلع أرسانها[6] ... على الربا لا راعها ذاعر

واذكر أحاديث ليالى منى ... لا عدم المذكور والذاكر

---

(١) احمد بن محمد بن حنبل (١٦٤ـ ٢٤١هـ = ٧٨٠ـ ٨٥٥م) أبو عبد الله، الشيبانى الوائلى، إمام المذهب الحنبلى، وأحد الأئمة الأربعة، صاحب المسند فى الحديث به ٣٠ ألف حديث، انظر ترجمته ومناقبه فى: الأعلام (١/ ٢٠٣)، حلية الأولياء (٩/ ١٦١)، صفة الصفوة (٢٦٢)، تاريخ بغداد (٤/ ٤١٢)، البداية والنهاية (١٠/ ٣٢٥ـ ٣٤٣)، تذكرة (٢/ ٤٣١)، طبقات ابن سعد (٧/ ٩٢)، التهذيب (١/ ٧٢)، العبر (١/ ٤٣٥).

(٢) الخبر فى صفة الصفوة (٤/ ٢٥٢) ضمن ترجمة آمنة الرملية.

(٣) الترح: الحُزن. (٤) البقرة: ١٣٤.

(٥) سلع وحاجر، من الأماكن المعروفة بالبادية.

(٦) الرَّسَنُ: ما كان من الأزِمَّة (الخطام) على الأنف، والجمع: أرْسانٌ، وأرْسُن

طالت عليهم بادية الرياضة، ثم بدت بعدها الرياض، فاستوطنوا فردوس الأنس فى قلة طور الطلب.

شعر:

هوى الحمى ومغانيه معانيه	فاحبس وعانى بليلى ما تعانيه
ما فى الصحاب أخو وجدٍ يطارحه	حديث وجدٍ ولا صبٌ يجاريه
وربٍّ مستخبرٍ عمن بُليتُ به	فقلتُ والدمعُ يجرى من أماقيه
يوهى قوى جلدى من لا أبوح به	ويستبيح دمى من لا أسميه[1]

قبلتهم الزهد فى قفراء[2] الفقر، على أكف الصبر، وقطع أوداج[3] أغراضهم بسكين المسكنة، والبلاء ينادى: ﴿أتصبرون؟﴾[4] والعزم يجيب: لا صبر، سقاهم رحيق القرب، فأورثهم حريق الحب، فغابوا بالسكر عن رؤية النفس، فعربدوا على رسم الجسم، وهاموا فى فلوات الوجد، فهم يستأنسون بالحمام والوحش.

شعر:

لى بذات البان أشجان	حبذا من أجلها البان
حبذا روق[5] الحمام إذا	رنحتها منه أغصان
أعجميات إذا نطقت	ليس إلا الشوق تبيان
يا حمام البان يجمعنا	وجدنا إذ نحن جيران
يحن بالشكوى إلىَّ فما	بين أهل الحب كتمان
يتشاكى الواجدون جوى	واحداً والوجد ألوان

اسمع يا أخى: ما أقل ما تعبوا، وما أيسر ما نصبوا، ومازالوا حتى نالوا ما

(١) فى المدهش (ص٢٥١) نسب الأبيات لابن المعلم.

(٢) أرض قفر: لا نبات فيها ولا ماء.

(٣) الأوداج: عروق فى جانبى الرقبة، وهى التى تقطع عند نحر البعير أو الشاة. (٤) الفرقان: ٢٠.

(٥) الرَّوق: الجميل المُعجب المحبوب.

طلبوا، فها هم فى رياض أنس محبوبهم يرتعون، ومنشدهم ينشد بلسان حالهم لو تسمعون:

شعر:

ظَفِرْنا بمن نهواه والدهْر غلاب ... ومرت لنا فى ساعة الوصـل آراب

صَبَّرْنا على نارِ الغرامِ ففتحت ... لنا من جنان الخلدِ بالوصلِ أبوابُ

فيا بعدنا عنهم، متى تدنو منهم، وأين الثريا من يد المتناول؟!، يا زَمِن[1] الهمة، يا مُقعَد العزيمة، يا عليل الفهم، يا بعيد الذهن.

[الخوف من الجليل]

يا أخى: عصفت رياح الزفرات من قلب المشوق، فأججت نار الأسف على فراق المعشوق، فلو رأيت كيف شئونهم على اختلاف شجونهم، لرأيت أمرا مهولا، ولرأيت دمعا همولا، هذا يعاتب نفسه على التقصير، وهذا يتفكر فى أهوال المصير، وهذا يخاف من ناقد بصير، منازل تَعَبُّدهم متناوحة[2]، وفى كل بيت لهم نائحة، التائب يقول: أنا المقر على نفسى بالجناية.

شعر:

اعفُ عنى وتَقَبَّلْ توبتى ... يا عياذى لملماتِ الزمن

لا تعاقبنى فقد عاقبنى ... ندم أقلق روحى فى البدن

لا تطير وَسَنًا[3] عن مقلتى ... أنت أهديت لها طيب الوسن

يا أخى: المعتذر يبكى على الفتور، بكاء ثكلى[4] بين القبور، ويندب زمان الوصال، ويتأسف على تغير الحال.

شعر:

قد كان مشروبنا يصفو برؤيتكم ... فَكَدَّرَتْهُ الأيَّامُ حين صفا

---

(1) رجلٌ زَمِن: أى مُبْتَلًى.

(2) متناوحة: متقابلة.

(3) الوَسَن: أول النوم.

(4) الثكلى: مَن فقدت ولدها.

والخائف ينادي: ليت شعرى، ما الذى أسقطنى من عينك، أقلت: ﴿هذا فراق بينى وبينك﴾[1]؟!.

لأىِ علةٍ ولأى حالٍ	صرمت[2] حبالَ وُدِّكَ من حبالى
وعوَّضْتَ البعادَ من التدانى	ومُرَّ الهجرِ من حُلوِ الوصال
فإنْ أكُ قد جنيتُ عليك ذنبا	ولم أشعرْ بقولٍ أو فعالِ
فعاقبنى عليه بأىِّ شىءٍ	أردت سوى الصدود فلا أبالى

وصريع المحبة يستغيث ويقول:

شعر:

تحمل أصحابى ولم يجدوا وجدى	وللناس أشجان ولى شجن وحدى
أحبكم ما دمت حيا فإن أمت	فياليت شعرى مَن ذا يحبكم

وقتيل الشوق يتعلق بما يرى، ويتشبث بما يسمع، يرتاح إلى السَّحَر ومقصوده غيره، ويأوى إلى الشجر وبغيته طيره.

شعر:

أيا بانة العور عطفًا سقيتنى	وإن كنت وأكنى سواكِ
أحبك مِن أجْلِ مَنْ تعلمين لو	أنى أراه كما قد أراك
كفى الوجد أنى إذا ما انْشَرَحْتُ	إلى اسمك عميته بالأراك
إذا الصد أرضاك فهو الوصال	فأنَّى فعلتِ فأنت أهلا بذاك[1]

*****

(١) الكهف: ٧٨.   (٢) أى قطعت.

(٣) فى المدهش (ص ١٦٦) نسب الأبيات للمهيار، وهى فى ديوانه (٢/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧).

الفصل الحادى عشر

[زُفَّت عرائس الأجساد إلى الألحاد!]

يا من إذا أصبح طلب بالمعاش الشهوات، وإذا أمسى تَقَلَّب على فراش الغفلات، أما رأيت أكُفًا عن مطالبها كُفَّتْ؟، أما شاهدتَ عرائس الأجساد إلى الألحَاد زُفَّتْ؟، أما عاينت سطور الأبدان في كتب الأكفان قد أُدرجت ولُفَّت؟، أما أبصرت جثث الإخوان فى بقاع القاع صُفَّت؟، بلى والله قد حمل بريد الإنذار أخبارهم، وأر... تَصَفُّح الآثار آثارهم.

شعر:

وحَدَّثْتكَ الليالى أن شيمتها	تفريق ما جمعته فاسمع الخبرا
وكن على حذرٍ منها فقدْ نصحت	وانظر إليها تر الآيات والعبرا
فهل رأيت جديداً لم يعد خَلقا؟	وهل سمعت بصفو لم يعد

واعجبا! أعَدمَ العقل أم به خللٌ؟،ووا أسفا فقد أدرك بالفهم أم بالسمع نقل؟، أما يكفى من الزواجر كيف صَرَّف الأحداث مبسوطُ الأمل؟، أما يكفى من البيان عيان الأعيان فى الأجداث خالين بالعمل؟، أين مَن فاق قمم الشرف فعُزل وولَّى؟، أما ذاق ألم المُنْصَرَف فترك وولَّى؟، أين المسرور بشهوات أمسه؟ حزن، أين المغرور بلذات نفسه؟ غبن.

[هلاك كل الناس فى الحرص والطمع]

يروى أن عيسى عليه السلام مرَّ فى نفر من أصحابه بجمجمة نخرة[1] هائلة، فقال له أصحابه: يا روح الله لو دعوت الله تعالى أن ينطق لنا هذه الجمجمة حتى تخبرنا بما رأته من العجائب لرجونا أن ننتفع بذلك!، قال فَصَلَّى عيسى عليه السلام ركعتين، ودعا الله تعالى فأنطقها الله عز وجل، فقالت الجمجمة: يا روح الله سل عما تريد؛ فقد أمرنى الله تعالى أن أخبرك بما سألت عنه، فقال عيسى عليه السلام: من كنت فى هذه الدنيا؟ فقالت الجمجمة: يا روح الله كنت ملك هذه الأرض، عشت فيها ألف سنة، وولدت ألف ولد، وفتحت ألف مدينة، وهزمت ألف جيش، وقتلت ألف ملك جبار، ثم كان بعد ذلك كله الموت، ولقد امتحنت هذا الدهر فلم أر شيئًا أنفع من الزهد فى الدنيا، ولم أ. هلاكَ كل أحد

---

(١) نَخِرَ العظم: بَلِىَ وَ رَمَّ

إلا فى الحرصِ والطمعِ، ولم أجدْ العزَّ إلا فى الرضا بما قسمَ الله عز وجل.

شعر:

لا ترقدن فما لعينك السهر	وانظر إلى ما تصنع العِبَرُ
انظر إلى عِبَرٍ مصرفة	ما دام يمكن طرفك النظرُ
فإذا جهلت ولم تجد أحدًا	سل الزمان فعنده الخبرُ
يا من يؤمل أنت منتظر	أملا يطول ولست تنتظرُ

[فيم النجاة؟!]

قال سرى السقطى[1] رضى الله تعالى عنه: كنت فى بعض سياحتى فمررت بمغارة فسمعت فيها أنينا يتبعه حنين، فقربت من المغارة فإذا أنا بفتى قد أنحلته أحزانه، وأقلقته أشجانه، وبكى عليه مكانه، فقلت له: يا فتى فيم النجاة؟ قال: فى أداء الفرائض ورد المظالم والإنابة إلى الله عز وجل. فقلت له: هل لك أن تعظنى؟ قال لى: عظْ نفسك بنفسك، وراقب الله فى الخلوات يكفر عنك السيئات، ويباهى بك أهل السموات، فقلت له: زدنى، قال: إن لله عبادا خلقهم لخدمته، واصطفاهم لمحبته ومنح قلوبهم الإقبال عليه، وسقاهم بكأس الشوق إليه، فطاشت من الفكر أحلامهم، واصفَرَّت من السهر ألوانهم، فأجفانهم من كثرة البكاء مقروحة، وأكبادهم من شدة الظمأ مجروحة، ثم قال: انصرف عنى ... متعلتى

[مزاحمة الخلق فى سوق الهوى]

أنفَ القومُ من مزاحمة الخلق فى سوق الهوى، وقوى كرب شوقهم فلم يحتملوا حرص الدنيا، خرجوا إلى فضاء العز فى صحراء التقوى، وضربوا مخيم

---

(١) سرى بن المغلس السقطى (ت٢٥٣هـ = ٦٧م) أبو الحسن البغدادى، من كبار المتصوفة، وهو أول مَن تكلّم فى بغداد بلسان التوحيد وأحوال الصوفية، وكان إمام البغداديين وشيخهم فى وقته، وهو خال الجنيد وأستاذه، قال الجنيد: ما رأيت أعبد من السرى أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤى مضطجعا إلا فى علة الموت.

انظر فى ترجمته: الأعلام (٣/ ٨٢)، صفة الصفوة (٢٧٢)، الحلية (١٠/ ١١٦)، وفيات الأعيان (١/ ٢٠٠)، لسان الميزان (٣/ ١٣)، تاريخ بغداد (٩/ ١٨٧).

الجد فى ساحة الهدى، وتخيروا شواطئ أنهار الصدق، فشرعوا فيها مشارع البكاء، وانفردوا بقلقهم فساعدهم ريم الفلا[1]، وترنمت بلابل بلابلهم فى ظلام الدُّجَى[2].

شعر:

لو رأيتَ المحبَ فى مأتمِ الندبِ … وقَدْ شقَّ جيبَ ثوبِ الوصـــال

لــعــذرت الـذى بــلــى بفراق … ورحــمــت المحب فى كلِّ حال

لا تطمع أن تخرج إلى فضاء قلبك حتى تتخلص من وثاق نفسك، كيف لا يفتقر إلى الرياضة مَن أول غذائه دم الطمث؟ ابك على ظلام قلبك يضىء، إذا بكَى السحابُ الرُّبى تبسمت.

[كيمياء التوبة]

يا هذا: أتسمع بالكيمياء، ولا رأتك صحة قط، وها أنا أدلك عليها، إجمع عقاقير التوبة فى بوتقة العزم، وأوقد تحتها نار الأسف على ما سلف، فإن تصاعد منها نَفَس صار نحاس نحوسك ذهب سعادتك.

[خَرَزُ الذُّل]

أحسنُ منظومٍ فى سلك الاعتذار: خَرَزُ الذُّل، أحلى نُطْق يلج سمع القبول: الاستغفار، أطْرَبُ كلام يحرك قلب الرحمة: التملق.

شعر:

يا مَنْ بصدودهم لقلبى جرحـــوا … وازداد بى الغرام لما نزحوا

ما جادت بهم وهم بهجرى سمحوا … هذا المطروح كم ترى يُطْرَحُ؟

المذنب يأوى إلى الذل كما يأوى الطفل إلى الأبوين، بكى آدم على تفريطه حتى جرت الأودية من دموعه، كان كلما ذكر الجنة قلق، وكلما رأى الملائكة تصعد يحترق.

---

(١) الريم: الظبى... الفلاة: الصحراء.

(٢) الدُّجى: الظلام.

شعر:

والذى بالبعدِ والبينِ بلانى ... ما تذكرت الحِمَى إلا شجانى

حبذا أهل الحمى من ساكن ... شَفَّنى[1] الشوقُ إليهم وبرانى

كلما رُمْتُ سَلْوًا عَنْهُمُ ... جذب الشرق إليهم بعنانى

أحسد الطير إذا طارت إلى ... أرضهم أو أقلعت للطيران

أتمنى أننى أصحبها ... نحوهم لو أننى أُعْطى الأمانى

لا تزيدرنى غراما بَعْدَكُم ... حل بى من بعدكَ ما قد كفانى

ذهب العمر ولم أحظ بكم ... وتقضى فى تمنيكم زمانى

يا خليلىَّ احفظا عهدى الذى ... كنتما قبل النوى عاهدتمانى

واذكرانى مثلَ ذكرى لكما ... فمن الإنصاف أنْ لا تنسيانى

واسألا من أنا أهواه على ... أىِّ جرمٍ صَدَّ عنى وجفانى

[المحبون لله تيجان العباد]

حكى عن بعض الصالحين أنه قال: سمعت سالما خادم ذى النون المصرى[2] يقول: بينما أنا أسير مع ذى النون فى جبل لبنان إذ قال لى: قف مكانك حتى أعود إليك، فغاب عنى ثلاثة أيام وأنا آكل من نبات الأرض وأشرب من غدرانها[3]، ثم عاد بعد ثلاثة أيام وهو مُتَغَيِّر الحال مُتحير البال، فلما رآنى

---

(١) شَفَّهُ الهم أو الحزن أو الشوق: هزله وأضمره حتى رَقَّ، وهو من قولهم شَفَّ الثوبُ إذا رَقَّ حتى يصف جلد لابسه.

(٢) ثوبان بن إبراهيم الإخميمى المصرى (ت ٢٤٥هـ = ٨٥٩م)، أبو الفياض أو أبو الفيض، الزاهد العابد المشهور، من أهل مصر، نوبى الأصل، كانت له فصاحة وحكمة وشعر، انظر ترجمته فى: الأعلام (٢/ ١٠٢)، وفيات الأعيان (١/ ١٠١)، صفة الصفوة (٨٣٩)، لسان الميزان (٢/ ٤٣٧)، الحلية (٩/ ٣٣١)، (١٠/ ٣)، تاريخ بغداد (٨/ ٣٩٣).

(٣) الغدير: مستنقع الماء صغيرا كان أو كبيرا.

رَجَعَتْ إليه نفسه، فقلت: يا سيدى أين كنت؟، قال: دخلت كهف من كهوف الجبل، فرأيت رجلا أشعث أغبر، نحيفا نحيلا كأنما أُخْرِجَ من حُفْرَتِه[1]، وهو قائم يصلى، فلما قضى صلاته سَلَّمْتُ عليه، فرد علىَّ السلام، ثم قام إلى صلاته، فلم يزل راكعا ساجدا حتى صلى العصر، ثم أسند ظهره إلى حجر بإزاء المحراب، وجعل يذكر الله تعالى، فقلت له: يرحمك الله ادع الله لى بدعوة، فقال: يا بنى آنسك الله بقربه، ثم سكت، فقلت له: زِدْنى، فقال: يا بنى مَن آنسه الله بقربه أعطاه أربع خصال: هيبة من غير سلطان، وعلمًا من غير تعلم، وغنى من غير مال، وعزاً من غير أهل ولا عشيرة، ثم شهق شهقة وسقط إلى الأرض مغشيا عليه، فأقام بقية يومه وليلته ويومه الثاني إلى العصر وأنا أظن أنه قد مات، فلما كان بعد صلاة العصر فتح عينيه وقال: إلهى من سكر بحبك لا يفيق إلا بلقائك.

شعر:

ترى المحبين صرعى فى ديارهمُ	كفتيةِ الكهفِ لا يدرون كمْ لَبِثُوا
قومٌ إذا هجرُوا من بعدما وصلوا	ماتوا وإن علا من يهواهم بُعثوا
والله لو حلفَ العشاق أنهمُ	مَوْتَى من الوجد يوم البينما حَنَثُوا[2]

ثم قام توضأ وقال: يا بنى كم فاتنى من الصلوات؟ فقلت: خمس، فقضى ما فاته، ثم قال: إن ذِكْرَ الحبيب هَيَّجَ وجدى وشغل سرى وأزال عقلى، قلت له: يرحمك الله إنى أريد الرجوع فأوصنى بوصيةٍ أنتفع بها، فقال: أوصيك بحب الله ولا تردْ به بديلا، فإن المحبين لله تيجان العباد وزين البلاد، ثم صرخ صرخةً عظيمةَ، فَحَرَّكته، فإذا هو ميت، فما كان إلا يسيرا وإذا بجماعة من العُبَّاد منحدرين من أعلى الجبل، فأتوا إليه وجهّزوه، وصلوا عليه، وانصرفوا.

*****

---

(١) يعنى من قبره.

[يا مُعرضا عنه إلى مَن أعْرَضْت؟]

شعر:

ألفت الهوى حتى حلت لى حروفه	ورب نعيمٍ قد كان جالبه شَقَى
ولى عَبَراتٌ تستهل صبابة	عليك إذا برق الغمامُ تملقا
وأذهلُ حتى أحسبُ الصدَّ والنَّوى	بمعتزلِ الذكرى وصالاً وملتقى
فها أنا ذو حالين إما تنعمى	فحى وإما سلوتى فلك البقا

إخوانى: بادروا قبل العوائق، واستدركوا فما كل طالب لاحق، واشكروا نعمة من ستر عليكم الذنوب، واعرفوا جوده حيث أعطاكم كل مطلوب، فما أعم جوده لجميع خلقه، وما أكثر تقصيرهم فى حقه، عمَّ إحسانُه الجاهلَ والعالمَ، والمظلومَ والظالم، والمستيقظ والنائم، فسبحانه ما أكثر المعرضين عنه، وما أقل المعترضين للفضل منه، فيا روح القلوب أين طلابك؟!، ويا نور السموات والأرض أين أحبابك؟!، ويارب الأرباب أين عبادك؟!، ويا مسبب الأسباب أين قُصَّدك؟!، من ذا الذى عاملك بصدقه فلم يربح؟!، من ذا الذى جاءك بكربه فلم يفرح؟! أى صَدْر صَدَرَ عن بابك فلم يشرح؟!، أى عبد لاذ بجنابك فاشتهى أن يبرح؟!، يا معرضًا عنه إلى مَن أعرضت؟، يا مشغولاً بغيره بمن تعوضت؟.

شعر:

مت على من غبت عنه أسفا	ليست عنه بمصيبٍ خلفا
لـن ترى قـرةَ عيـنٍ أبدا	أو ترى نحوهم منصرفا

[نفوسنا أقرب أعدائنا]

إلهنا سَلِّمنا من نفوسنا التى هى أقرب أعدائنا منا، وأعظمهم نكاية[1] فينا، إلهنا لعبت بنا صوارع آجالنا فى مدة أعمارنا، وأغارت علينا خيول الهوى فأسَرَتْنَا بِأَسْرِنَا، إلهنا فأنقذنا من أسرنا، وانصرنا على عدونا، يا ملاذ العارفين، يا معاذ الخائفين، خد بيد من زلت به قدم فطنته فى مهوات[2] فتنته، أقِمْ مَن قعد به

---

(١) أى أعظمهم كيد وغلبة.

(٢) المَهْوَاة: البئر والهوة العميقة.

سوء عمله، قبل هجوم أجله، يا من هو بالإجابة جدير، وهو على كل شيء قدير.

يا ذا المكـــارمِ والعُلاَ	ياذا الجـــلالِ الأوحـــد
إن العُصــــاةَ تجمــعوا	وأتوا لبابـــكَ سيدى
قَصــدَتْكَ كــلُ قبيلـــة	ممـــن يروحُ ويغـــتدى
بسطوا إليـــــك أكفُهُم	والرامقـــات(١)مـــع اليد

الفصل الثانى عشر

[ثوب البلى يُخاط!]

اسمع يا عظيم الاغتباط، يا كثير الانبساط، أما تخاف عواقبَ هذا الإفراط؟!، يا مؤثرا الفانى على الباقى غلطت لا كالأغلاط، أيعجبك ثوب الصحة؟!، كلا ثوب البلى يُخاط، أين من سلف من الأولين والآخرين؟، أين أبوك آدم صفوة رب العالمين؟، أين محمد سيد المرسلين؟، أين الأمم الماضية؟، أين القرون الخالية؟، أين الذين ملؤوا ما بين الخافقين(٢) فَخْراً وعزاً؟، أين الذين فرشوا القصور خزًا وقزًا؟(٣)، أين الذين ارتجت بهم الأرض رَجْفًا وهَزًا؟، ﴿هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا﴾(٤) ،أهلكهم والله مُهلك الأمم ومُبيدها، وأفناهم مفنّى الأمَم ومُعيدُها، فسكنوا بعد سعة القصور ضيق القبور، وتبدلوا بعد الفرش الوثيرة خشونة المدر(٥)، وبليت منهم محاسن تلك الصور، وخلى كل منهم بما قدم وأخر.

شعر:

يا من أقام وقد مضى أسلافُه	هل أنت إلا واحدٌ ممن مضى
دين المنية لا يؤخـــر ساعـــةً	فكأننى بك للمنيـــة تقتضـــى

(١) الرامقات: العيون (٢) الخافقان: المشرق والمغرب.
(٣) الخز: ثياب فاخرة تنسج من الصوف . والقز: الحرير
(٤) مريم: ٩٨ (٥) المَدَر: الطين.

من مَهَرَ الدنيا الدنية، زُفَّت إليه بالسقم والألم، ومن ركب مطايا الغفلة، أشرفت به على غاية الندم.

[من مواعظ السابقين والأولين]

قال أبو زكريا التميمي: بينما سليمان بن عبد الملك[1] فى المسجد إذا أُتى بحجر وفيه خط منقوش، فلم يحسن أحد مما كان عنده يقرؤه، فأتى بوهب بن منبه[2] فقرأه فإذا فيه: ابن آدم لو رأيت قرب ما بقى من أجلك، لزهدت فى طول أملك، ولرغبت فى الزيادة من عملك، ولقصرت من حرصك وحيلك، وإنما تلاقى ندمك، إذا زل بك قدمك، وأسلمك أهلك وحشمك، وبان عنك الولد والقريب، ورفضك الوالد والنسيب، فلا أنت إلى دنياك عائد، ولا فى حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة، يوم الحسرة والندامة، يا شدة الوجل عند هجوم الأجل، يا حسرة الفوت عند طول الموت.

شعر:

إلى حتفى سعى قدمى ... أرى قدمى أراق دمى

فمـا أنفَـكَّ من غرمٍ ... وهان دمى فها ندمى[3]

استَلِب زمانك يا مسلوب، وغَالِب الهوى يا مَغْلوب، وحاسِب نفسك فالعمر محسوب، وامحُ قبيحك فالقبيح مكتوب، واعجبا لضاحك وعليه ذنوب!، وللنائم وهو مطلوب!.

شعر:

تَزَوَّد من الدنيا فإنك لا تـدرى ... إذا جنّ ليلك هل تعيشن إلى الفجر

فكم من سليم مات من غير علةٍ ... وكم من سقيم عاش حينًا من الدهرِ

وكم من فتى يُمسى ويُصبح لاهيًا ... وقد نُسِجت أكفـانُه وهـو لا يدرى

---

(١) سليمان بن عبد الملك بن مروان (٥٤ ـ ٩٩هـ = ٦٧٤ ـ ٧١٧م) أبو أيوب، الخليفة الأموى، كان عاقلاً فصيحا طموحًا إلى الفتح، جهز جيشًا كبيرًا وسيره فى السفن بقيادة أخيه مسلمة لحصار القسطنطينية، انظر: الأعلام (٣/ ١٣٠)، تاريخ الطبرى (٨/ ٩١٢٦)، مروج الذهب (٢/ ١٢٧).

(٢) تقدمت ترجمته.

(٣) فى المدهش (٢٠٦ ـ ٢٠٧) نسب البيتين للحجاج بن يوسف الثقفى.

[نائم أم مُتَنَاوِم؟]

أين الدموع السواجم؟ قبل المنايا الهواجم، أين القلقُ الدائم؟! للذنوب القدائم، أترى أثرت الملاوم فى هذه الأقاوم؟!، أيها القاعد والموت قائم، أنائمٌ عن حديثنا أو مُتَنَاوِم؟!.

[كلكم يبكى لنفسه]

قيل: كان بالبصرة عابدٌ قد أجهده الخوف والوَلَه[1]، وأسقمه البكاء وأنحله، فلما حضرته الوفاة، جلس أهله يبكون حوله، فقال لهم: أجلسُونى، فأجْلَسُوه، فأقبل عليهم وقال لأبيه: يا أبتِ ما الذى أبكاكَ؟! قال يا بُنى ذكرت فقدك وانفرادى بعدك، فالتفت إلى أمه وقال: يا أماه ما الذى أبكاك؟! قالت: يا بنى لتَجرُّعى مرارة ثكلك، فالتفت إلى زوجته وقال: ما الذى أبكاك؟! قالت: لفقد بِرك وحاجتى لغيرك، فالتفت إلى أولاده وقال: ما الذى أبكاكم؟!، قالوا: لِذُلُّ اليتم والهوان بعدك، فعند ذلك نظر إليهم وبكى، فقالوا له: ما يبكيك أنت؟! قال: أبكى لأنى رأيت كلاً منكم يبكى لنفسه لا لى، أما فيكم مَن بكى لطول سفرى؟!، أما فيكم مَن بكى لقلة زادى؟!، أما فيكم مَن بكى لمضجعى فى التراب؟، أما فيكم من بكى لما ألقاه من سوء الحساب، أما فيكم مَن بكى لموقفى بين يدى رب الأرباب؟!، ثم سقط على وجهه فحرَّكوه فإذا هو ميت.

إخوانى: مَرَّ الأعمار على مَدْرَجة[2]، وخيول الرحيل للباقين مُسْرَجة[3]، سار القوم والفتور هملجة[4]، وبانت الأرواح من الأجساد وهى مستخرجة، إلى كم هذا التسويف والمجمجة؟[5]، وبضائعكم كلها بهرجة[6]، وطريقكم صعبة عوسجة[7]، ستعرفون الخبر وقت الحشرجة، أين مَن حَصَّن واحترس، وعمر

(١) الوله: الخوف والحزن.

(٢) المَدْرَجَة: ممر الأشياء على الطريق

(٣) وُضع عليها السرج (الرحل) استعداد للرحيل

(٤) أمرٌ مُهَمْلَج: مُذلَّل ومُنقاد. . . والهملجة الذل والانقياد

(٥) المجمجة: تغيير الكتاب وإفساد ما كتب فيه من الكتابة

(٦) فاسدة مزيفة

(٧) العوسج. نبات ذو شوك.

الحدائق وغرس، وغصب سرير الكبر وجلس، وظن بقاء النفس فخاب الظن فى نفس، ووَجَّهُه الموت إلى ديار البلى فانطمس وتركه فى ظلام ظُلَمِهِ بين العيب والدنس، فالعاقل من بادر بالسلامة فإن السلامة خلس.

شعر:

الا مَن لقلبٍ فى الهوى غيرُ مُنْتَهٍ ... وفى الغىِّ مطْواعٌ وفى الرشدِ مُكْــــرَهٌ

أشَاوِره عن توبةٍ فيقـــــول: لا ... فإن قلتُ: تأتى فتنةٌ، قال: أين هى؟[1]

[درس من إبليس!]

يروى أن إبليس لعنه الله، بعث جنوده فى زمن الصحابة رضى الله عنهم، فرجعوا مقهورين، فقال: ما شأنكم؟، قالوا: ما رأينا مثل هؤلاء القوم!، كلما نجتهد فى أن نصيب منهم شيئا، فلم نقدر عليه، وقد أعيانا أمرهم، فقال لهم: إنكم لن تقدروا على هؤلاء، لأنهم صحبوا نبيهم، وصدقوا تنزيل ربهم؛ ولكن سيأتى من بعد هؤلاء قوم تنالون منهم بغيتكم. فلما جاء التابعون رضى الله تعالى عنهم، وبث الملعون جنوده فيهم، فرجعوا خائبين، فقال لهم: ما بالكم؟ فقالوا: ما رأينا أعجب من هؤلاء!، نُصيب منهم الشىء بعد الشىء، حتى إذا كان آخر النهار أخذوا فى الاستغفار فَتُبَدَّلَ سيئاتهم حسنات، فقال: إنكم أيضًا لن تنالوا من هؤلاء شيئا، ولكن سيأتى من بعد هؤلاء قوم تلعبون بهم كيف شئتم، يُوعَظُون فلا يتعظون، ويُدعون فلا يجيبون؛ لا يستغفرون فيُغفر لهم، ولا يتوبون فيتوب عليهم.

فيا سادرا[2] فى سُكْرِ سروره، سادلاً ثوب غروره، فكأنى بك قد اقتعدت غارب[3] الغربة، واستبدلت بالأثواب الترية، بين أناس كلهم أسير الفرق[4]، وجميعهم على مهاد القلق، فيا مؤخرًا توبته بمطل التسويف ﴿لأى يوم أُجِّلت﴾[5]، ويحك قد نفد السليط[6]، فاستدرك ذبالة[7] المصباح.

---

(١) فى المدهش (ص٢١٢) نسب البيتين لابن المعتز.

(٢) السادر: المُتحيِّر.

(٣) الغارب: ذروة سنام البعير.

(٤) الفَرَق: الخوف.

(٥) المرسلات: ١٢.

(٦) السليط زيت السراج.

(٧) الذبالة: فتيلة السراج والمصباح.

[حقوق الله عز وجل]

قال طلق بن حبيب[(١)]: إن حقوق الله عز وجل أعظم من أن يقوم بها العبد، لكن عباد الله امسوا تائبين فإن الشيطان لا يفارق أحدكم حتى تفارق روحه جسده. فابسط فى الرجاء يد الطلب، فأطيب ما أكل العبد من كسب يده، إذا قمت فى ظلام الليل بين يدى سيدك فاستعمل أخلاق الأطفال، فإن الطفل إذا طلب منه أبيه شيئا بكى عليه، واسترح إلى حديث المناجاة، وإن لم يسمع منك، وابعث رسائل الأحزان مع رياح الأسحار، وإن لم تصل!.

[خوف الحساب وذكر المعاد]

قيل لبعض الزهاد: ما الذى أضنى العباد وأتعب الزهاد؟، قال: خوف الحساب، وذكر المعاد، ولم لا تذوب أبدانهم، والقيامة أمامهم، ثم صاح الزاهد وقال: مَن لغريقٍ فى ذلك الموقف العظيم؟، لقد حركت الفكرة فيه منى ساكنًا، وأثارت منى غمًا كامنًا، فيا طول وقوفًا، ويا ثقل ظهرًا؛ من كثرة الذنوب!، وحمل العيوب، فآه من حملها، ثم آه من ثقلها!.

إخوانى: تعالوا نرق دمع تأسفنا على قبيح تخلفنا، ونبعث مع قاصدى الحبيب رسالة محصر[(٢)] لعلنا نفوز بأجر المصاب إن لم يرجع المفقود، يا أرباب القلوب الضائعة: ﴿اذهبوا فتحسسوا من يوسف﴾[(٣)].

[الأنفاس خطوات]

إخوانى: السنون مراحل، والشهور فراسخ، والأيام أميال، والأنفاس خطوات، والطاعات رؤوس أموال، والمعاصى قطاع الطريق، والربح الجنة، والخسران النار، لهذا الخطب شمَّر المتقون عن سوق الجد فى سوق المعاملة، كلما رأوا مركب الحياة تجد فى بحر العمر شغلهم ماهم فيه عن التنزه فى عجائب البحر، فما كان إلا قليل حتى قدموا من السفر، فاعتنقتهم أيدى الراحة فى طريق

---

(١) طلق بن حبيب العنزى البصرى، صدوق عابد، من الثالثة، أخرج له البخارى فى الأدب المفرد، ومسلم، والأربعة فى سننهم، مات بعد ٩٠هـ، انظر: التهذيب (٥/ ٣١ - ٣٢)، التقريب (١/ ٣٨٠)، الحلية (٣/ ٦٣)، صفة الصفوة (٥١٢).

(٢) المحصر: الذى لا يستطيع السفر.

(٣) يوسف: ٨٧.

التلقى، فدخلوا بلد الوصل وقد فازوا بربح الدهر، أملهم أقصر من فِتْر[1] منازلهم أقفر من قبر، نومهم أعز من الوفاء، السهر عندهم أحلى من رقد الفجر، أخبارهم أرق من نسيم السَّحَر، آماقهم بالدموع الدائمة دامية، والهموم على الجوانح[2] جوانح[3].

[لذة الخلوة وحلاوة المناجاة]

قال بعض الصالحين: بينا أنا أسير فى بعض جبال الشام وإذا برجل خارج من بين تلك الجبال، فلما رآنى استتر عنى بشجرة، فقلت له: سبحان الله! بخلت علىَّ بالنظر إليك؟، فقال: يا هذا إنى أقمت فى هذا الجبل دهرا طويلا أعالج قلبى فى الصبر عن الدنيا وأهلها، فطال فى ذلك تعبى، وفنى عمرى فى مجاهدة قلبى، فوجدته قد سكن من الاضطراب، وألِفْتَ الانفرادَ، فلما نظرت إليك خفت أن أقع فى الأمر الأول، فابعد عنى، ثم صاح: واغَمَّاه من طول المكث فى الدنيا، ثم حَوَّل وجهه عنى وقال: سبحانَ من أذاق قلوب العارفين لذة الخلوة، وحلاوة المناجاة، والانقطاع إليه، سبحانَ من ألهى قلوبهم عن الجنان، وعن الحور الحسان، فلا شىء عندهم ألذ من مناجاته، ثم ولَّى وهو يبكى ويقول:

شعر:

خَلِّ طَرْفى والبكاءَ إن كنت خِلِّى	فالحِمَى أقفرُ من جارٍ وأهلِ
والح من لم يَدْرِ ما طَعْمُ الأسى	أنا عن لومك فى أشغل شغل
لم يدع وقر الهوى فى سمعى	واعتراضات الهوى بابًا لعذل
هذه الأخبار من بعد أثرهم	والتجافى عن بلى الأطلال يبلى
ما وقوفى فى محل ساكن	فى فؤادى أهله لا فى المحل
يتمنى طيفكم صَبٌّ بكم	مستهام والمنى جهد المقل

(١) الفِتْرُ: ما بين طرف الإبهام والسبابة إذا ما فتحتهما.
(٢) الجَوانح: الأضلاع مما يلى الصدر. . ، وهى الأضلاع القصار التى فى مقدم صدر الإنسان.
(٣) يقال جنح الطائر: إذا كسر من جناحيه ثم أقبل كالواقع اللاجئ إلى موضع.

والذى يستجلب الطيف الكرى[1] من لعينى أن ترى النوم ومن لِى

قد مضى أكثر عمرى فى القِلَى[2] جفوةً منكـــم فَرِقُّوا للأقلِ

عجبًا لـــى ولقـلــب ضائع بان عــنى بين باناتٍ وأثْلِ[3]

الفصل الثالث عشر

[دنا الرحيل]

يا ساعيا لنفسه فى المهالك، دنا الرحيل ونضو[4] الرحلة بارك. متى تدرك وحشتك بعد إيناسك؟، متى تقتدى من ناسك بناسك؟، كأنى بك قد خرجت عن أهلك وولدت، وانفردت عن عُدَدِك وعَدَدِك، وقتلك سيف الندم ولم يُدِك[5]، ورحلت ولم يحصل بيدك إلا عض يدك.

شعر:

كأنك لم تسمع بأخبار مَن مضى ولم تر فى الباقينَ ما يصنَعُ الدهرُ

فإن كنتَ لا تدرى فتلك ديارهُم محاها مجال الريحِ بعدك والقطرُ

على ذاك مَرُّوا أجمعون وهكذا يمرون حتى يستردهم الحشرُ

فحتى متى لا تصحو قد قرب المدى وحتى متى ينجاب عن قلبك السُّكْرُ؟

بل سوف تصحو حين ينكشف الغطا وتذكر قولى حين لا ينفع الذكرُ

[من أهوال القيامة]

قيل: إذا كان يوم القيامة ونُفخ فى الصور نفخة البعث قام الناس من قبورهم شُعْثًا غُبْرًا حفاةً عراةً، فبين قائل يقول: أين الطريق إلى الله؟، وبين قائل يقول: أين المفر إلى الله؟، فعند ذلك يخرج لسان من النار من قعر بحر عدن فيسوق

---

(١) الكرى: النوم.
(٢) القِلَى: البُغض والهجر.
(٣) البان والأثل: من الأشجار.
(٤) النضو: المهزول من الإبل والحيوان.
(٥) لم يُؤَدِّ ديتك.
(٦) القطر: المطر

الناس جميعا إلى الموقف، فبينما هم حيارى سكارى إذا تجلّى الحق جلَّ جلالُه لفصل القضاء، فتشرق الأرض من نوره، فتنظر الخلائق بعضهم إلى بعض، فتنظر المرأة إلى ولدها الذى كان فى دار الدنيا، فتعرفه فتناديه: يا ولدى، فلا يجيبها، فتقول: يا ولدى ألم يكن بطنى لك وعاءً؟ ألم يكن ثديى لك سقاءً؟، ألم يكن حجرى لك وطاءً؟، فيقول: بلى يا أماه، فتقول يا ولدى، فلا يجيبها، فتقول يا ولدى فاحمل اليوم عن أمك شيئًا من أوزارها، فقد ثقل ظهرها، وضعفت قُوَّتها، فيقول: يا أماه هيهات هيهات ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾[1] يا أماه إذا حملت اليوم عنك فمن يحمل عنى؟، قال: فبينما هو يخاطبها إذ نادى مناد من السماء: أين فلان ابن فلانة؟، هَلُمَّ إلى العرض على الله عز وجل، فإذا سمع ذلك تَغَيَّر لونه، واضطربت جوارحه، واصطكت ركبتاه، فإذا نظرت أمه ما نزل به قالت: يا ولدى ما شأنك؟، فيقول: يا أماه قد دنوت للعرض على الله عز وجل، فكيف لى بالفرار قبل أن تُهتك الأستار؟، فبينما هو كذلك إذا أقبل ملكان، فيقبضان على عضديه ويقولان له: يا عبد الله هَلُمَّ إلى العرض على الله، قال: فإذا رأته أمه قد أوثق عليه، قامت إليه، وضمته إلى صدرها، ودافعت عنه؛ لما ترى من جزعه، فيدفعانها الملكان عنه، فإذا رأت أنها لا حيلة لها فيه أسلمته راغمةً وقالت: يا ملائكة ربى أقسمت عليكما بالذى بعثكما إليه ألا رفقتما به، قال فيقبضان عليه، وينطلقان به، فلما ولى نادته: يا ولدى سألتك بالذى دعاك للحساب إن نجوت لا تنس أمك، وطول وقوفها، وتزايد كربها، وشدة عطشها، قال: فينطلق الملكان به حتى يأتيان به إلى سدرة المنتهى، فيسلمانه إلى الملك الموكل بالحجاب، فيقول له الملك: من أى الأمم أنت؟، فيقول: من أمة محمد، فيقول له: طوبى لك ولأمة أنت منها، ثم يقبض عليه ويزجه فى النور، ويقول له: اذهب يا عبد الله، فيمر فى النور ما شاء الله، ثم يقف مُتَحَيِّرًا لا يدرى أين يذهب، وإذا النداء من قبل الله عز وجل: هَلُمَّ يا عبدى فأنا ربك الحنَّان المنان، قال: فيتقدم وقد أذهله الخوف والجزع، فيقول الله عز وجل: عبدى اسكن من هذا الخوف والجزع، فوعزتى وجلالى إنّى لأرأف بك من والدتك، ثم يقول الله عز وجل: اقرأ كتابك فيقرؤه، فإذا مر بخطيئة كان عملها فى دار الدنيا يقول الله

(1) المدثر: ٣٨.

عز وجل: أتعرفها يا عبدى؟، فيقول: نعم وعزتك يارب، فيقول: يا عبدى لَمَّا سترتها من المخلوقين أما علمت أنى مُطَّلع عليك؟ فيقول: بلى يارب، فيقول له: أما خفت من عقوبتى لَمَّا جعلتنى أهون الناظرين إليك؟ فيقول: سيدى ومولاى لئن تأمر بى إلى النار خير لى من هذا التوبيخ، فيقول الله عز وجل: عبدى إذا أمرت بك إلى النار فأين جودى؟، وأين كرمى؟، وأين عفوى ومغفرتى؟، يا ملائكتى انطلقوا بعبدى إلى الجنة. قال: فيبقى باهتًا متحيرًا، فيقول الله عز وجل: عبدى مم تَحيُّرك؟، فيقول: إلهى وسيدى كانت لى والدة فى دار الدنيا تمنحنى بِرَّهَا وحياتها، وقد حيل بينى وبينها، وقد أدركها من هول يوم المطلع وشدة العطش ما لا طاقة لها به، فأسألك يارب أن تُشَفِّعنى فيها، فيقول الله عز وجل: ما فَرَّقْتُ بينكما إلا بعد أن رحمتكما، خذ بيدها وأدخلها الجنة.

فيا من بين يديه هذه الأهوال والعجائب، وقديمًا أُعِدَّت له النوائب، أما سهم المصائب كل يوم صائب؟!، أحاضرٌ تحمل من عتبنا؟!، وكلا بل أنت غائب!.

[كيف غَلَبْتَ نفسك؟]

قيل لبعض أهل الرياضة: كيف غلبت نفسك؟ فقال: قمت فى صف حربها بسلاح الجدِّ، فخرج مَرْحَبُ[1] الهوى يدافع، فعلاه عَلِيُّ العزم بصارم[2] الحزم، فلم تمضِ ساعة حتى ملكتُ خَيْبَر.

[يا معاشر المعْرِضين]

اسمعوا يا معاشر المعرضين عن أهل الدِّين:

شعر:

تعالوا نُقِمْ مأتمًا للفراقِ ونندبُ إخوانَنَا الظاعنينا[3].

هَلُمُّوا نُرِقْ دَمْعَ أسفنا على قبيح تَخَلُّفنا، فأنجح المراهم لجراحات الذنوب البكاء، هتكة الدمع ستر على الذنب.

---

(١) المَرْحب: السعة والاتساع.

(٢) الصارم: السيف.

(٣) الظَّعن: الارتحال..، الظاعنون: الراحلون.

[وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون]

كان محمد بن المنكدر[1] كثير البكاء فسُئل عن ذلك فقال: آية من القرآن أبكتني. قيل: وما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون﴾[2].

أَبْ يا شارد الطبع من سفر الهوى، وأذِبْ جامد الدمع بنيران الأسى، لعل شفيع الاعتراف يسأل في أسير الاقتراف، فَرِّغ عينيك من عيوبك، وخلّص ذَنُوبك[3] من بحر ذنُوبك، وصُنْ صندوق فمك بِقُفْلِ صمتك، واطْوِ طيلسان[4] لسانك عن بذلة نطقك، واغضض عينيك عن عيب غيرك حفظًا لدينك، وابْنِ منبر التذكير لواعظ القلب في ساحة الصدر، فإنْ رماك القدر بسهم الفتور عن قوس الحكمة من يد: «لكل عامل فترة»[5]، فاتق بجُنَّة[6] الاعتذار، واجلس ليلة على مائة السَّحَر، وذق طعام المناجاة ينسيك كل لذة، أرياح الأسحار لا يستنشقها مزكوم غفلة، وأعجب الرسائل تُحمل في الأسحار لا يدري بها الفَلَك، والأجوبة ترد إلى الأسرار لا يعلمها المَلَك.

شعر:

يا حبذا رند[7] العقيق[8] وبانه[9] ... سقى العقيق وأهله وزمانه

راقت خمائله[10] ورقّ نسيمه ... وصفَتْ على حَصْبائه غُدْرانه[11]

---

(١) محمد بن المنكدر التيمي المدني (٥٤ ـ ١٣٠هـ = ٦٧٤ ـ ٧٤٨م) من رجال الحديث، ثقة فاضل، حديثه في الكتب الستة، انظر: التقريب (٢/ ٢١٠)، التهذيب (٩/ ٢٧٣)، التاريخ الكبير (١/ ٢١٩)، صفة الصفوة (١٧٩).

(٢) الزمر: ٤٧.

(٣) الذَّنوب: الدَّلْوُ العظيمة.

(٤) الطيلسان: رداء أخضر اللون (فارسي).

(٥) في جمع الجوامع (١/ ٦٥١) عزاه للطبراني عن ابن عمرو. . ، وأخرجه أحمد بنحوه (٢/ ١٥٨، ١٦٥، ١٨٨، ٢١٠) ورجاله ثقات، انظر مجمع الزوائد (٢/ ٢٥٩).

(٦) جُنَّة: وقاية.

(٧) الرند: من أشجار البادية وهو طيب الرائحة يُستاك به.

(٨) وادي بالحجاز.

(٩) البان: من شجر البادية.

(١٠) الخميلة: الشجر الكثير الملتف.

(١١) الغدير: مستنقع ماء المطر.

وشكت تباريح الصبابة ورقه | وتمايلت بيد الصبابة أفنانه[1]
يا مُفْرَدًا فى حسنه صِلْ مُدْنِفًا[2] | فى حزنه لعبت به أشجانه[3]
صبًا إذا ذُكر العقيق وأهله | فاضت مدامعه وجُنَّ جَنَانُه

[من الله وإليه!]

قال الشبلى[4]: لقيت جارية حبشية فقلت لها: من أين؟، قالت: من عند الحبيب، قلت: وإلى أين؟، قالت: إلى الحبيب، قلت: ما الذى تريدين من الحبيب؟، قالت: أريد من الحبيب الحبيب، قلت: كم تذكرين الحبيب؟، قالت: ما يفتر لسانى من ذكر الحبيب، حتى ألقى الحبيب.

شعر:

وحرمـة الودِ مـالى عنكم عوضٌ | وليس لى فى سواكم بعدكم غرضٌ
ومن حديثى بكم قالوا: به مـرضٌ | فقلت: لا زال عنى ذلك المـرض

من مشى إلىَّ هرولت إليه، دعوناك بالوسائط فلم تحضر، فأتى المرسل ينزل إلى سماء الدنيا!، النطق متشابه، والذوق محكم، مَن غَرَس فى نفسه شرف الهمة فنبت[5]، نبت[6] عن الأقذار همته، ومَن استقر ركن عزيمته وثبت[7]، وثبت[8] عن الأكدار عزيمته.

---

(١) الأفنان: الأغصان.
(٢) المدنف: الذى براه المرض حتى أشرف على الموت.
(٣) الأشجان: الأحزان.
(٤) الشبلى (٢٤٧ ـ ٣٣٤هـ = ٨٦١ ـ ٩٤٦) أبو بكر، الناسك العابد، كان حاجبًا للموفق العباسى ثم ترك الولاية وعكف على العبادة فاشتهر بالصلاح، اشتهر بكنيته واختُلف فى اسمه، وانظر ترجمته فى: الأعلام (٢/ ٣٤١)، وفيات الأعيان (١/ ١٨٠)، النجوم الزاهرة (٣/ ٢٨٩)، الحلية (١٠/ ٣٦٦)، صفة الصفوة (٣١٦)، تاريخ بغداد (١٤/ ٣٨٩).
(٥) من الإنبات، أى نَبَتَ شرف الهمة فى نفسه بعد أن غرسه فيها.
(٦) نَبَتَ: ابتعدت.
(٧) من الثبات وهو الاستقرار.
(٨) وثبت: قفزت، من الوثوب.

[والله لأجْتَهِدَنَّ حتى ألْحَقَ بهم]

قال ابن السماك عفا الله تعالى عنه ورحمه: كنت جالسا عند باب دارى إذ جاءنى رجل من بعض إخوانى فقال لى: يا أبا بكر لى ولدٌ من المبرزين فى العبادة، والمخلصين فى الزهادة، يقوم الليل، ويصوم النهار، ومع ذلك لا يفتر من البكاء، وقد أضرً ذلك ببدنه، وأنا خائف عليه أن يهلك، فأحبُ أن تسألهُ الرفق بنفسه، فلعله أن ينامَ فى الليل نومةَ واحدةَ، يقوى بها على عبادة الله عز وجل، فقلت له: نعم إن شاء الله تعالى، قال: فبينما هو يخاطبنى إذ طلع علينا شابٌ كأنّه عودُ بان، له نور كالبدر، ووجهه قد علاهُ اصفرارٌ، ناحلُ الجسمِ، فقال: يا أبا بكر هذا ولدى، فقلت للولد: حبيبى، إن الله عز وجل قد فرض عليك طاعة أبيك ونهاك عن معصيته، وتنام فى الليل نومةً، فإنك تقوى بذلك على عبادة ربك، فقال: أما والله لقد طلب منى التقصير فى العمل، قبل حلول الأجل، يا أبا بكر إنى بايعتُ إخوانًا على السباق؛ فأخشى أن تُعرض أعمالى وأعمالهم، فيوجد فى أعمالى دون أعمالهم تقصيرا، فيا سوء حالى إن بادرنى أجلى قبل أن أبلغ ما بلغوا، يا أبا بكر لو رأيت إخوانى الذى بايعتُهم وقد تجافت جنوبهم عن المضاجع، وركبوا رواحل الظلام، وقطعوا عليها الليل والناس نيام، قد وصلوا الكلال بالكلال[1]! اشتياقا إلى ذى الجلال، أفتشيرُ علىَّ يا شيخ بالتقصير؟، والله لأجتهدنَّ ثم لأجتهدنَّ؛ حتى ألحق بهم.

شعر:

وحياةُ من ملكت يداهُ قيادى	لأخالفنَّ على الهوى حُسَّادِى
ولأعصينَّ عواذلى فى حبهِ	ولأهجرنَّ لذاذتى ورُقَادِى
ولأجعلنَّ نزاهتى فيه البكاءُ	ولأكحلن محاجرى بِسُهادِى
ولأحفرنَّ بسره ضمن الحشا	قبرًا ولم يعلم بذاك فؤادى

(١) الكلال: الإعياء والتعب

[احرق قلبك بنار التقصير]

اسمع يا من أبعدته الخطايا عنهم، وأخرجته الذنوب منهم، لابد والله من قلق وحُرقه، إما فى زاوية التعبد، وإما فى هاوية الطرد، أما آن لك أن تحرق قلبك بنار الندمِ على التقصير، والخوف من سوء المصير، وإلا فنارُ جهنم أشدُّ حرّاً.

[البكاء على الذنوب]

شعر:

شجاكَ الفراقُ فما تصنع؟	أتصبــرُ للبيــنِ أم تجزعُ؟
إذا كنتَ تبكى وهم جيرة	فكيف تكون إذا وَدَّعوا؟!

القلق القلق يا من سُلب قلبه، البكاء البكاء يا من عَظُم ذنبه.

كان الشبلى يقول فى مناجاته: ليت شعرى، ما اسمى عندك يا علاَّم الغيوب؟، وما أنت صانع فى ذنوبى يا غفَّارَ الذنوب؟، وبم تختم لى عملى يا مُقَلِّبَ القلوب؟، ثم يصيح: قرة عينى وسرور قلبى ما الذى أسقطنى من عينك؟، أقلتَ: ﴿هذا فِراقُ بينى وبينك﴾[1]؟.

شعر:

إن ترحلت أو أقمت فعندى	فيض دمع يجرى ووجد مقيم
وفؤادى ذاك الفؤاد المُعَنــى	وغرامى ذاك الغــرام القديــم

الفصل الرابع عشر

[أما أنذرك الشيب؟]

يا جائراً كلما قيل اقسط[2] قسط[3]، يا نازلا فسطاط[4] الهوى على ساحل

---

(١) الكهف: ٧٨.

(٢) أقسط: من القسْط، وهو العدل..، والمراد: اعْدل.

(٣) قَسَّطَ: من القُسوط وهو الجَوْر، وفى القرآن: ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا﴾ أى الجائرون عن الحق.

(٤) الفسطاط: الخيمة

الشطط، يا مُمْهَلاً لا مُهْمَلاً ما عند الموت غلط، كم سلب شريفا ووضيعاً سلبًا عنيفًا وخبط، تالله ما يبالى حَمَامَ الحِمَام[1] أىَّ حَبٍّ لقط، أما يكفى نذيرهم بلى قد خوف الفرط[2]، أما خَطَّ الشيبُ خط النهى عن الخطأ لما وخَطَ[3]، أما آذن[4] الشباب بالذهاب فما بعد الشمط[5]؟ فإلى متى يعظك الدهر ولا تقبل؟، وحتى متى ينذرك القهر إنك عن قريب ترحل؟، وتضم العيب إلى الشيب وبئس ما تفعل، كن كيف شئت فإنما تجازَى بما تفعل.

اسمع: يا هذا عليك حافظ وضابط، ليس بناسٍ، ولا غالط، يكتب الألفاظ السواقط، وأنت فى ليل الظلام خابط، يا من شاب إلى كم تغالط؟، ابك على ما مضى ويكفيك الفارط[6]، ما للعيون قد أخلفت أنواؤها[7]؟؛ كثر نظرها إلى الحرام فقل بكاؤها؟!، ما للقلوب المريضة قد عَزَّ شفاؤها؟، ساكنت إخوان الأمل فقلَّ وفاؤها، آه لأمراض نفوس يئس طبيبها!، ولأصوات مواعظٍ قد خرس مجيبها، هبت والله دبور[8] الذنوب، فتركت الأجساد بلا قلوب، أين الفهم والتأمل؟.

إخوانى: دنا الترحل، لابد وشيكا من التحول، رقيبكم يا غافلين لا يغفل، أتذكرون الذنوب بلا تململ؟، يا من يَعِدُ بالتوبة كم تمطل؟، المعاصى سُمٌّ واليسير منه يقتل.

يا من هبت على قلبه جنوب[9] المجانبة، فلفقت[10] غيم الغفلة، فأظلم أفق المعرفة، لا تيأس فالشمس تحت الغيم، لو تصاعدت أنفاس الأسف دارت شمالا[11] فقطعت السحاب وظهرت شمس المعرفة!.

---

(١) الحِمَام: الموت.

(٢) الفرط: السابق والمتقدم.

(٣) الوَخط: فُشُوُّ الشيب فى الرأس.

(٤) من الأذان وهو الإعلام.

(٥) الشَّمط: بياض شعر الرأس يخالط سواده.

(٦) الفارط: المتقدم والسابق.

(٧) أخلَفَت أنواؤها: أمْحَلَت ولم تمطر..، والمراد هنا أن العيون توقف دمعها وبكاؤها.

(٨) الدَّبُور: ريح تأتى من دُبُر الكعبة مما يذهب نحو المشرق..، وفى الحديث قال ﷺ: «أُهْلِكَت عادٌ بالدَّبور».

(٩) الجنوب: رياح، وهى ريح حارة، يقال: أصابتهم الجنوب أى أصابتهم فى أموالهم.

(١٠) أى ضمت كل قطعة إلى أختها.

(١١) إذا ذهبت ريح الشمال بالسحاب لم يلبث أن ينحسر السحاب ويذهب فتقشعه.

[البكاء دواء]

يا هذا دواء أجده لك البكاء اقتداء بأبينا آدم ﷺ، قيل: كان آدم يبكى حتى يخوض فى دموعه فيأتيه جبريل عليه السلام فيقول له: يا آدم لم هذا البكاء؟!، فيقول: يا جبريل ما تغير عليك أمر، وأنا نُقلت من نعيم الجنان إلى شظف هذا المكان!.

شعر:

يا عاذلين[1] على الغرام متيمًا	السفه الصبابة مالكم ولفتيه
أنى يفيق من الهوى من نفسه	رضيت بضر الحب من ولعت به

[بكاء داود عليه السلام]

قيل: أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام: يا داود عليك بالبكاء فإنه يمحو السيئات، ويثبت الحسنات، يا داود كيف غفلت عن عينك حتى امتدت إلى ما يحل لك؟، يا داود أما علمت أنى غيور؟، قال: فصاح داود وأخذ فى البكاء، فأوحى الله عز وجل إليه: يا داود لمَ هذا البكاء؟ إن كنت مظلومًا نصرتك، وإن كانت جائعًا أطعمتك، وإن كنت عطشانا سقيتك، وإن كنت عريانًا كسوتك، فقال: إلهى وكيف لا أبكى، وقد سوَّدت الخطيئة فى كتابى؟، فبحرمة ما قد كان بينى وبينك ألا غفرت لى، فأوحى الله عز وجل إليه: يا داود لم تُبْقِ الخطيئة بينى وبينك حرمة، ياداود أنت بخطيئتك محجوب، فإن أحببت أن تصير القطيعة وصلاً فعليك بالبكاء.

شعر:

بَرِّدْ غراماً بقلبٍ أنتَ مُضْرِمُهُ	وداوى سقما بصبٍ أنتَ مُسقمُهُ
ولا تكلنى على بعد الديارِ إلىَّ	صبرى ضعيفٌ فصبرى أنتَ تعلمُهُ

يا من كانتْ له معنا معاملةٌ، وطالت بيننا وبينهُ المواصلة، ثم اختار الهجر والمفاصلة، إن لم يكن جميلا فمجاملة. ، تَفكَّر تعرف قدر ما فاتك، وابك

(١) العذل: اللوم.

• لذنب حرمك الفوز وفاتك، اسكب دموع أسفك، قرب دم سُفِكَ، واندب أطلال مألفك، تعد فى موقفك، ترى العجب من إقبالنا عليك.

شعر:

فـــى قُرْبِنَا نيلُ المنـــى	فَتَنَبَّهُـــوا يا غـــافلينـا
عجبًا لقومٍ أعرضوا عنَّا	وقـــــومٍ وَاصَلُــــونا
نقضوا العهودَ وكاشطونا[1]	بالصـــدود ويـــارَزُونَا
يا ويحهم إن لو رأوا	ما فـــاتهم لاسـتعطفونا

[رحمتى سبقت عذابى]

قيل: إن الله عز وجل أوحى إلى نبيٍ من أنبيائه: بعينى ما تحمل المتحملون من أجلى، وما يكابدون فى طلب مرضاتى، فكيف بهم إذا صاروا إلى جوارى؟، واستنزلتهم للجلوس عندى، وسفرتُ لهم عن وجهى؟، أيظنون أنى أنسى لهم عملاً؟ كيف وأنا الجواد الكريم؟، أجود على المولِّين عنِّى، فكيف لا أجود على المقبلين علىَّ، وما أغضب لشىء كغضبى على من أخطأ خطيئةً واستعظمها فى جنب عفوى، فلو عجلت العقوبة على أحدٍ لعجلتها على القانطين من رحمتى.

[التوبة تمحو الذنوب]

وكان الحسن بن شمعون يقول: إذا قال العبد: إلهى عصيت، يقول الله عز وجل: عبدى وأنا رأيت، فإذا قال: إلهى بالفضول نطقت، يقول الله عز وجل: عبدى وأنا سمعت، فإذا قال: إلهى وإلى الحرام نظرت، يقول الله عز وجل: عبدى وأنا شهدت، فإذا قال: إلهى ندمت، يقول الله عز وجل: عبدى وأنا علمت، فإذا قال: إلهى اعترفت، يقول الله عز وجل: عبدى وأنا عفوت، فإذا قال: إلهى تبت، يقول الله عز وجل: عبدى وأنا قبلت.

---

(١) الكشط: القطع والتفريق.
(٢) كشفت.

[داووا جراح الذنوب]

يا جرحى الذنوب قد علمتم المراهم، فداووا جراح الذنوب، اخرُجوا من قصر مصر الهوى، فقد لاحت مدينة مَديَن، حزيم العزم الصادق حرام على التردد متى يحزم العزم.

يا هذا لو عرفت نفسك التحقيق؛ لصارت معك فى أصعب مضيق، لكنها ألفَت التفاتك، فلما طلبت قهرها فاتك، هلاَّ شددت الحيازم؟، وقمت قيام عازم؟، وفعلت فعل حازم؟، وقطعت على أمر جازم؟، تقصد الخير ولكن ما تلازم.

شعر:

ولو أنهُم عند كشفِ القناعِ	وحلِّ العقودِ ونقضِ العهودِ
وخلعهم لعـــذار الحياءِ	ولبْسهـــم لبرودِ الصدودِ
أناخــوا بأبوابنـــا ســـاعةً	وأجـروا مدامعهم فى الخدودِ
لعدنا سراعًا إلى وصلهم	وقلنا: قلوب المحبين عودى

إذا سيصلح القدر أرض قُلْبٍ قَلَبها بمحراث الخوف، وبذر فيها حب المحبة، فإذا رواها دولاب[1] العين، وأقام حارس المراقبة؛ فترى زرع التقوى على سوقه.

روى أبو ذر الهروى[2] عن حامد الأسود صاحب إبراهيم الخواص[3] أنه خرج معه فى طريق مكة المشرفة، فانضم إليهما شاب، فمشى معهما يومًا وليلة ما سجد لله سجدة واحدة، فأعلم إبراهيم بذلك، فقال له: يا غلام مالك لا تصلى والصلاة أوجب عليك من الحج؟ فقال له: يا شيخ ما علىَّ صلاة، فقال

---

(١) الدولاب: آلة لسقى الماء.

(٢) عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن غفير، أبو ذر، الأنصارى الهروى، من حفاظ الحديث، من فقهاء المالكية، يقال له ابن السماك، له تصانيف منها: تفسير القرآن، المستدرك على الصحيحين، السنة والصفات، توفى ٤٣٤هـ = ١٠٤٣م. انظر: الأعلام (٣/٢٦٩).

(٣) إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل (ت ٢٩١هـ = ٩٠٤م) أبو إسحاق الخواص، صوفى، كان أوحد المشايخ فى وقته، من أقران الجنيد، انظر: الأعلام (١/٢٨)، تاريخ بغداد (٦/٧)، الحلية (١٠/٣٢٥)، صفة الصفوة (٦٧٥).

له: ألست مسلمًا؟، قال: لا، قال: فما دينك؟، قال: النصرانية، وإشارتى فى دينى إلى التوكل، وادَّعت نفسى أنها احكمت هذا المقام فأردت أن أختبرها، هل هى صادقة فيما ادعته أم لا؟. فقال إبراهيم: دعه يمشى معك، فلم يزل يمشى معنا إلى أن وصلنا بطن مر[1]، فقام إبراهيم، ونزع خلقانه[2] وطهرها بالماء، ثم التفت إلى الشاب وقال له: ما اسمك؟، قال: عبد المسيح، قال: يا عبد المسيح هذا دهليز مكة، وقد حرم الله عليك وعلى أمثالك دخولها، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿إنما المشركون نجس﴾[3]. قال حامد: ثم مضينا وتركناه، فبينما نحن بعرفات فإذا به قد أقبل وعلى جسده ثوب إحرامه، وهو يتصفح الوجوه، حتى وقف علينا، فَأكَبَّ على رأس الشيخ يُقَبِّلها، فقال له الشيخ: ما جاء بك يا عبد المسيح؟، فقال: يا سيدى أنا اليوم عَبْدُ مَن المسيحُ عبده، فقال له الشيخ: حَدِّثنا بقصتك!، قال: يا سيدى لما مضيتم وتركتمونى، بقيت مكانى، وأنا منكسر القلب، ذليل النفس، وإذا بقافلة الحج قد أقبلت، فقمت وتنكرت بزى المسلمين، وسرت معهم محرما، وفعلت كما رأيتهم يفعلون، فما هو إلا أن وقع بصرى على الكعبة، فعند ذلك اضمحل كل دين عندى سوى الإسلام، فأسلمت وتَطَهَّرت وأحرمت، وها أنا فى طلبك.

شعر:

ما لى إذا ذُكِرَ العذيب[4] وأرضهُ ... ثم الركابُ وماؤهُ المودودُ
أبدى التماسك فى الأراك تجلدًا ... ويُمدنى مر الصبَا فأميدُ
يا ساكنى كثب العقيق أظَلَّكُمْ ... ورقُ الشبابِ وظلهُ الممدودُ
أحسبتم أهدى التباعُد سلوةً ... للوجد وأنسى الغرامُ صدودُ
ولدونِ ما أودعتموه من الهوى ... نارٌ لها حبُ القلوبِ وقودُ
تزكو فتمنحه الملامةُ فيكم ... لهبًا فينمو وَقْدُهَا ويزيدُ

(١) وادى.
(٢) خَلُقَ الثوب: اى بَلِىَ.
(٣) التوبة: ٢٨.
(٤) ماء لبنى تميم على مرحلة من الكوفة.

يهوى لأجلكم الحجيجُ وما بِهِ ... لولاكم تشك ولا تزهيدُ
ويشوقه أرج الحجاز وذكره ... إلى مرتبع بالحجاز بعيدُ
يا حاج بيت الله صبراً إن لى ... حاجًا وحملكم لما المقصود
حيوا أعاريب العذيب وسائلوهُ ... إن كانَ سؤالُ العذيب يُفيدُ
وسلوهم رد السلام عليهم ... وأظن أن سؤالكم مردود

قال: فالتفت إبراهيم وقال: يا حامد انظر بركة الصدق فى النصرانية كيف هداه الله تعالى إلى الإسلام!، قال إبراهيم: فكان هذا الشاب من المجتهدين ولم يزل يصحبنا إلى أن مات.

[المفتاح بيد الفَتَّاح]

وقال الحسن البصرى[١]: رأيت مجوسيا يجود بنفسه[٢]،فقلت له: كيف أنت؟ قال: ألمٌ شديد ولا طاقةَ لى، وطريق بعيدٌ ولا زادَ معى، وقبر موحشٌ ولا أنيس لى، فقلت: هذا كلامُ حكيم، ثم أقبلت عليه وقلت له: لم لا تسلم؟، فقال: يا شيخ ليس لك من الأمر شىء، المفتاح بيد الفتاح، والعقل هاهنا، وأشار إلى صدره، ثم غشى عليه. قال الحسن: فقلت إلهى إن كان سبق لهذا المجوسى عندك سعادة فَعَجل بها فى هذه الساعة، وإذا به قد فتح عينيه وقال: يا شيخ إن الفتاح قد أرسل المفتاح، مُدّ يدك، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، ثم مات من ساعته.

[دعاء ورجاء إلى الله]

اللهم نَوِّر قلوبنا بنور توفيقك، واقطع أيامنا فى الاتصال بك، وانظم شتاتنا فى سلك طاعتك، فأنت أعلم بتلفيق المقترف، اللهم قَوِّ متن[٣] أطفال التوبة بِلِبَن[٤] الصبر، وارفق بمرضى الهوى فى مارستان[٥] البلاء اللهم افتح مسامع

(١) الحسن البصرى، تقدمت ترجمته.
(٢) يحتضر.
(٣) المتن: الظهر والصُّلب.
(٤) لِبَن: جمع لَبِنَة، وهى ما يُبنى بها الجدار (الطوب).
(٥) مستشفى.

الأذهان لقبول ما ينفع، اللهم سلم سيارة الأفكار من قاطع الطريق، احرس طلائع المجاهدة من خديعة كمين، وقِّع على قصص الإنابة بقلم العفو، اللهم لا تسلط جاهل الطبع على عالم القلب، لا تُبَدِّل نعيم عيش الروح بجحيم حر النفس، لا تمت حى العِلْم فى حى الجهل، أَخْرِجْنا من ظلمة الشك إلى نور اليقين، لا تجعلنا ممن رأى الصبح فأنكره، لا تؤاخذنا بقدر ذنوبنا، فأنت قلت: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[1].

شعر:

إلهى فلا تهتك ذنوباً سترتها	فأنت رءوفٌ بالعبادِ رحيمُ
إلهى ولا تُحرق بنارِ جهنم	نفوساً رَجتْ عفواً وأنت كريمُ
إلهى وأدخلنا مع الزمرةِ التى	مثوبتها يوم الجزاءِ عظيمُ

الفصل الخامس عشر

[إلى متى تحرص على الدنيا؟]

يا جامع المال لغيره إلى متى تحرص على الدنيا وتنسى القدر؟، من ذا الذى طلب ما لم يقدر فقدر؟، تأمل أهل القصور والممالك ثم عد بالنظر فى حالك لعل ينجلى القلب الحالك[2]، إن لذات الدنيا لفواتك[3]، وإن موج بلائها لمتدارك، كم حج كعبتها قاصد فقتلته قبل المناسك، خَلِّها واطلب خلة ذات سرور وسُرُر وأرائك، والله ما طيب العيش إلا هنالك.

شعر:

ألـم تروْا دول الماضين قبلكـم	شادوا فأحسن ما كانوا به ذهبـت
لا تفرحوا بهبات من زمانكم	ستسترد الليالـى كـل مـا وهبت

يا أخى: مالك تجمع مالك ولست تملك ما تخلف؟، والزمان يسوقك

(١) البقرة: ٢٣٧. (٢) الأسود المظلم. (٣) تفتك بالإنسان.

للذهاب وأنت للأذهاب[1] تؤلف، والله لو كنت من رياشها أكْسَى من الكعبة لم تخرج منها إلا أعرى من الحجر الأسود.

فيا هذا أوقد مصباح الفكر فى بيت العلم، تَلُح لك الأعلام، من عمر ثغو الهوى بجند الجد ملأ عين راحته من نوم الطمأنينة، لله در أقوام تأملوا الوحو ففهموا المقصود.

[من كرامات سهل التسترى]

قال محمد بن أحمد: خدمت سهل بن عبد الله التسترى[2] ثلاثين سنة فما رأيته وضع جنبه على الأرض بليل ولا نهار، وكان يصلى الصبح بوضوء العتمة[3]، وهرب من الناس إلى جزيرة بين عبادان والبصرة، وسبب فراره من الناس أن رجلا حجَّ، وكان له أخ، فلما رجع قال لأخيه: رأيت سهل بن عبد الله فى الموقف يوم عرفة، فقال له أخوه: لعلك شبهت به، فإنا كنا عنده يوم التروية فى رباط[4] عند باب تستر، وقال لنا: لا تجيئونى فى غد فإنى أحس بضعف عندى، فحلف الحاج لأخيه بالطلاق الثلاث أنه رآه فى الموقف، فقال له أخوه: امض بنا إليه حتى نسأله، فقاما حتى دخلا عليه، فقال له أخو الحاج: يا أبا محمد كنا عندك يوم التروية، وكان أخى هذا قد توجه إلى الحج، وزعم أنه رآك بعرفة، وحلف على ذلك بالطلاق الثلاث، فما تقول فى يمينه؟، فقال: ما لكم ولهذا الأمر، اشتغلوا بذكر الله تعالى، ثم قال للحاج: امسك زوجتك، ولا تخبر بذلك أحداً بعد ذلك، ثم خرج إلى هذه الجزيرة وأقام بها إلى أن مات.

شعر:

قد كنتُ أطوى على الوجدِ الضلوعَ ... أبدى الهوى وأسوم القلب كتمانًا

فخاننى الصبرُ إذ ناديتُه ووفت ... لى الشؤون فعاد السر إعلانا

أأكتم الوجدَ والعينان تُظهرهُ ... لَلْحُب أعظم مما رمته شانا

---

(١) الذَّهَب.

(٢) سهل بن عبد الله بن يونس التسترى (٢٠٠ ـ ٢٨٣هـ = ٨١٥ ـ ٨٩٦م)، أحد أئمة الصوفية وعلمائهم، انظر ترجمته فى: صفة الصفوة (٦٤٥)، الحلية) (١/ ١٨٩)، وفيات الأعيان (١/ ٢١٨)، الأعلام (٣/ ١٤٣).

(٣) العشاء.

(٤) المرابط: الذى يحرس ثغور بلاد المسلمين.

قال أبو عمران الجونى[1]: أرتنى أمى موضعاً من الدار قد انحفر فقالت لى: هذا موضع دموع أبيك.

وكان حسان بن أبى سنان[2] يحضر مجلس مالك بن دينار[3] فيبكى حتى يبل ما بين يديه، ولا يُسمع له صوتٌ أبدا.

شعر:

أجاب دمعى وما الداعى سوى طللٍ	دعا فلباه قبلَ الركبِ والإبلِ
ظللت بين أصحابى أكفكفُه	فظل يسفح بين العذر والعدلِ
وما صبابة مشتاق على أملٍ	من اللقاء كمشتاق بلا أمل[4]

يا هذا: دموع المحبين غدران فى صحارى الشوق، من عادات القوم ألف الصحارى والبرارى والجلوس إلى الشجر فى السَّحَر، فإن سمعوا هتاف الحمام استغنوا عن كل نائح من البشر.

شعر:

شوقى إليكَ مجاوزٌ وصفى	وظهور وجدى دونَ ما أخفى
مادام ذكر منك فى خلدى	إلا طرقت بدمعتى طرفى

يا هذا: إذا تمكنت المحبة من القلب، استحال السلو[5].

---

(١) أبو عمران الجونى، عبد الملك بن حبيب، ثقة، حديثه فى الكتب الستة، سمع جماعة من الصحابة وروى عنهم، مات سنة ١٢٣هـ، انظر: الكبير (٥/ ٤١)، الحلية (٢/٣٠٩)، الجرح والتعديل (٥/٣٤٦)، شذرات الذهب (١/ ١٧٥)، صفة الصفوة (٥١٧)، التهذيب (٦/٣٨٩).

(٢) حسان بن أبى سنان بن أبى أوفى بن عوف التنوخى (٦٠ - ١٨٠هـ = ٦٨٠ - ٧٩٦م)، مترجم، كان نصرانيا فأسلم، له ترجمة مطولة فى الحلية (٣/ ١١٤ - ١٢٠)، وصفة الصفوة (٥٤٣)، وانظر الأعلام (٢/ ١٧٦)

(٣) تقدمت ترجمته

(٤) فى المدهش (ص ٥٠٣) نسب الأبيات للمتنبى، قال محققه: وهى مطلع قصيدة فى ديوانه (ص٣٢٨) يمدح بها سيف الدولة عام ٣٤١هـ

(٥) السلو النسيان

[سوء الفراق.. وحسرة يوم السباق]

قال بعض الصالحين: كان لى بجانبى عجوز قد أضنتها العبادة حتى صارت كالشن[1] البالى، فسألتها أن ترفق بنفسها، فقالت: يا شيخ أما علمت أن رفقى بنفسى غيبة عن بابه؟، ومن غاب عن بابه عرض نفسه إلى البلاء والمحن، يا شيخ ما قدر عملى إذا اجتهدتُ فكيف إذا قصرتُ؟!، والله لأجتهدنَّ ثم لأجتهدنَّ.

شعر:

قالوا: مُر العينَ تمسك؛ قلت: لو فعلَت

قالوا: مر القلب يصبر، قلتُ: لو قدرا

الوجد بعدهم حفظ لعهدهُم

والصبرُ غدرٌ بهم لا كان مَن غدرا

ثم قالت: واسواتاه من سوء الفراق، واحسرتاه من يوم السباق، قلت لها: وما حسرة السباق وسوء الفراق؟، قالت: أما حسرة السباق فإذا قام الناس من قبورهم، وركب الأبرار نجائب أعمالهم، ورفعت لهم أعلام المحبين، وبقى المسبوق فى جملة المتخلفين، فعند ذلك تنقطع قلوبهم حسرة وندامة، وأما سوء الفراق فعند تميز الناس بعضهم من بعض، وذلك أن الله جل جلاله إذا جمع الناس فى صعيد واحد الأولين والآخرين، أمر مناديا ينادى: أيها المجرمون امتازوا، فإن المتقين قد فازوا، فيفارق الرجل زوجته، والوالد ولدهُ، والحبيب حبيبه، هذا يُحمل مُكرماً إلى رياض النعيم، وهذا يساق مُهانا إلى نار الجحيم، وقد طال بينهم التلفت والوداع، ودموعهم تجرى لانفاد لها ولا انقطاع.

شعر:

لو كنتَ ساعةَ بيننا ما بيننا ... لرأيت كيف تكرر التوديعا

لعلمت أن من الدموع محدثًا ... وشهدت أن من الحديث دموعا

---

(١) الشنُّ: الخَلَق (البالى) من كل آنية صُنعت من جلد

يا أخى: اطْوِ الدنيا وزوالك، فكأنك بالموت وقد حيز[1] بك وأبْدَى علالك[2]، وخلوت تبكى خلالكَ، وشاهدت أمراً فظيعا أفظعك وهَالَك، تود ان تفتديه بالدنيا لو أنها لك، فتنبه من رقاد الهوى لما هو أولى لك، واحذر أن تكون أعمالك وأفعالك كالأفعى لك.

قال عليه الصلاة والسلام: «يؤتى بأقوامٍ يوم القيامة معهم من الحسنات كأمثال تهامة، حتى إذا جىء بهم جعلها الله هباءً منثورا، ثم يقذف بهم فى النار»، قالوا: يا رسول الله كيف ذلك؟، قال: «كانوا يصلون كما تصلون، ويصومون كما تصومون، ويزكون كما تزكون، غير أنهم كانوا إذا عُرض لهم شىء من الدنيا حرام وثبوا عليه، فأحبط الله أعمالهم»[3].

وعن بنان الحمال[4] أنه قال: كنت مطروحاً على باب بنى شيبة سبعة أيام، ولم أذق شيئا، فنوديت فى سرى: مَن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أعمى الله عين قلبه.

اسمع يا مقهور على الدنيا بغلبة النفس صل عليها بسوط العزم، فإنها إن عرفت جدك أستأسرت لك، امنعها ملذوذ مباحها ليقع الصلح على ترك الحرام، فإذا جنحت تطلب المباح ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾[5]، الدنيا والشيطان جاريتان خارجان عنك، والنفس عدو مباطن، ومن آداب الجهاد ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم﴾[6]، ليس من بارز بالمحاربة كَمَن كَمُن، ما دامت النفس حية[7]، تسعى فهى حية[8] تسعى، من عرف تصرف الأيام لم يغفل عن الاستعداد، ما جرى عبد فى ميدان أمله إلا عثر فى الطريق بأجله.

---

(١) أى نزل بك بيطء.

(٢) العُلالة: بقية القُوَّة.

(٣) سنن ابن ماجه (٤٢٤٥) بنحوه، وإسناده صحيح رجاله ثقات.

(٤) بنان بن محمد بن حمدان الحمال، يكنى أبا الحسن، أصله من واسط، لكنه نشأ ببغداد وأقام وسمع الحديث إلا أنه انتقل إلى مصر، ومات بها فى رمضان سنة ٣١٦هـ، انظر صفة الصفوة (ترجمة ٣١١).

(٥) محمد: ٤

(٦) التوبة: ١٢٣

(٧) من الحياة

(٨) الحية الثعبان

شعر:

عجبتُ والدهرُ لا تَفْنَى عجائبُه	للراكنين إلى الدنيا وقد صدَقُوا
دار تغر بها الآمالُ مهلكةٌ	وذو التجارب فيها خائف فَرِقُ
والمرء مثل هلالٍ عند طلعته	يبدو بضوءٍ لطيفٍ ثم يتسقُ
يزداد حتى إذا ما تم أعقبهُ	كر الجديدين[1] نقصاً ثم ينمحقُ
يا للرجال بمخدوعٍ بزخرفها	بعد البيان ومغرور بها يثقُ
يا أهل دار فناءٍ لا بقاءَ لها	إن اغتراراً بظل زائل حمقُ

[أنْطَقُ من سحبان، وأَبْلَهُ منْ بَاقل!]

يا من هو فى حديثها أنطق من سحبان[2]، فإذا ذُكرت الآخرة فأبله من باقل[3]، حيلتك فى تحصيلها أدق من الشَّعر، وأنت فى تدبيرها أصنع من النحل، وفم شرهك أشرب من الهيم[4]، تجمع فيها الدر كجمع الذر، ياشبيها فى البله لدود القز، أما انتفعت بموهبة العقل:

شعر:

كدودٌ كدودِ القز ينسج دائماً ويُهلك غماً وسط ما هو ناسجُه

ويحك إن سرورها أقتل من السنم، وإن شرورها أكثر من الهم، إنها فى قلبك أعز من النفس، وستصير عند الموت أهون من الأرض، حرصك بعد الشيب أحرُّ من الجمر، أبقى عمر يا أبرد من الثلج؟، يا من هو عن نجاته أنوم من فهد[5]،

(١) الجديدان: الليل والنهار.

(٢) يقال فى أمثال العرب: «أبْلَغُ من سَحْبَان»...، وهو رجل من باهلة، وهو سحبان بن زفر بن إياس بن عبد شمس، كان خطيباً بارعاً بليغاً يعجز الخطباء عن مجاراته، انظر: جمهرة الأمثال للعسكرى (رقم ٣٣٧)، المستقصى للزمخشرى (١٥).

(٣) فى أمثال العرب: «أعيا من باقل»، العىُّ خلافُ البيان...، وباقل كان رجلاً من إياد، اشترى ظبياً بأحد عشر درهماً، فسُئل عنَ ذلك، فَمَدَّ يديه ودلّع لسانه، فشرد الظبى [انظر مجمع الأمثال للميدانى (١/ ٣٢٩)، المستقصى للزمخشرى (١٠٣)، جمهرة الأمثال (١٣٨٦)].

(٤) الهيم: الإبلُ الظّمَاءُ.

(٥) الفهد: الحيوان المعروف، يضرب به المثل فى كثرة النوم، انظر: جمهرة الأمثال (٢٠٤٢)، مجمع الأمثال (٢/ ٢٠٨)، المستقصى (١٧٠).

ضيعت عمرا أنفس من الدُّر، أنت فى الشر أجْرَى من جواد، وفى الخير أبطأ من أعرج، تسعى فى العاجل سعى رخ[1]، وتمشى إلى الآجل مشى فرزان[2]، صدرك فى حديث الدنيا أوسع من البحر، ووقت العبادة أضيق من عقد التسعين[3]، معاصيك أشهر من الشمس، وتوبتك أخفا من السُّها[4]، إن عرضت خطيئة وثبت وثوب النمر، فإذا لاحت طاعة رُغت روغان الذئب، ويحك تفكر قبل سلوك الهوى إلى كثرة المعاش، فإن طائر الطمع يرى الحبة ولا يرى الشَّرَك، أين ما حلى فى الفم وجلى فى العين؟، ذهب الكل وأنت لا تدرى، إلى أين ضيعت سُهَادك بسعادك؟، رمتك هند إلى الهند، صيَّرتْكَ ليلى ليلاً، دع سلمى وسل ما ينفعك.

[للنفس حظ وعليها حق]

شعر: ١

دعه لمثلك ترك وعد فى الهوى   وسعادة لك هجرة لسعاد

يا صبيان التوبة، للنفس حظ وعليها حق ﴿فلا تميلوا كل الميل﴾[5] ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾[6]، فإن رأيتم فى النفوس فتورا ﴿فاضربوهن﴾ بسوط الهجر ﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا﴾[7].

شعر:

يا نفسُ قد عزَّ المرادُ فخذى   إن كنتِ يومًا تأخذين أو ذرى

عمر الفتى شبابهُ وإنمـــــا   آونـة الشيبِ انقضاءُ العُمُرِ[8]

---

(١) الرُّخ: من أجزاء الشطرنج، قال امرؤ القيس:

ولاعبتها الشطرنج خيلى ترادفت   ورُخّى عليها دار بالشاة بالعجل.

(٢) الفرزان: من أجزاء الشطرنج (لعلها القطعة المسماة باسم الوزير).

(٣) عقد الحساب: اصطلاح للعرب فيما بينهم؛ ليستغنوا به عن التلفظ، وكان أكثر استعمالهم له عند المساومة فى البيع والشراء، فيضع أحدهما يده فى يد الآخر فيفهمان المراد من غير تلفظ بالثمن، بقصد ستر ذلك عن غيرهما ممن يحضرهما. . .، وعقد التسعين: أن يجعل طرف السبابة اليمنى فى أصلها ويضمها ضمًا محكمًا بحيث تنطوى عقدتاها [انظر فتح البارى (١٣/ ١١٦)].

(٤) السُّها: كويكب صغير خفى الضوء، والناس يمتحنون به أبصارهم.

(٥) النساء: ١٢٩.   (٦) الشعراء: ١٨٢   (٧) النساء: ٣٤.

(٨) فى المدهش (ص٢٩٥) نسب الأبيات للشريف الرضى، قال محققه: قالها مفتخرًا وهى فى ديوان شعره (١/ ٤٧٥).

[عمارة الفانى خراب]

تالله ما صح من يطلبه مرضه، ولا سُرَّ من سيرحل عنه غرضه، ولا استقام غصن يلويه كاسره، ولا طاب عيشٌ الموت آخرُه، إن الطمع لعذابٌ، وحديث الأمل كذابٌ، وفى طريق الهوى عقاب[1]، وعاقبة المعاصى عِقابٌ، فلا يخدعنك ضياء ضباب، ولا يطمعنك شراب سراب، فمجىء الدنيا على الحقيقة ذهاب، وعمارة الفانى إن فَهِمْتَ خراب، وفرح الغرور ثبور واكتئاب، ودنو الشيب يدفع ضياء الشباب، فيا تائها فى ظُلْمَةِ ظُلْمِه، يا موغلاً فى مفازة تيهه، يا باحثًا من مدية[2] حتفه، يا مشيدًا زبية[3] هَلَكته، يا معمقا مهواة مصرعه، بئس ما اخترت لأحب الأنفس إليك، ويحك تطلب الجادة ولستَ على الطريق؟!.

شعر:

يا غاديًا فى غفلةٍ ورائحًا	إلى متى تستحسن القبائحا؟
وكم إلى كم لا تخافُ موقفًا	يستنطق الله به الجوارحا؟
واعجبًا منك وأنت مبصر	كيف تَجَنَّبْتَ الطريقَ الواضحا؟
كيف تكون حين تلقى فى غدٍ	صحيفةً قد حوت الفضائحًا؟
وكيف ترضى أن تكون خاسرًا	يوم يفوز من يكون رابحا؟

الفصل السادس عشر

[مَن لك إذا سُوِّى عليك التراب؟]

اسمع يا مخدوعًا قد فُتن، يا مغرورا قد غُبن[4]، من إذا سُوِّى عليك اللَّبن؟، فى بيتٍ قط ما سُكن، سَلْبُ الرفيقِ نذيرٌ والعاقل فطن، واعجبًا لنفسٍ تدعى إلى الهُدى فتأبى ثم ترى خطأها بعين الهوى صوابًا!، كم أذهبت زمانًا وكم أفنت شبابًا، وكم سودت فى بيض أعراضها كتابا.

(١) جمع عَقَبَة.
(٢) المدية: السكين.
(٣) الزبية: حفرة يصنعها الصياد لصيد الأسد والذئب.
(٤) غُبن: خُدع.

شعر:

يا محب الدنيا الغَرُور اغترارًا ... راكبًا فى طِلاَبِها الأخطار

يبتغى وَصْلَهَا فتأبى عليه ... وترى أُنْسَهُ فتبدى نفارا

كم محب أرته أُنسًا فَلَمَّا ... حاول الزَّوَر[1] صيَّرَتْهُ ازْوِرَارَا[2]

شيب[3] حلو اللذات منها بِمُرٍّ ... إن حلَت مرة أمَرَّت مِرَارَا

فى اكتساب الحلال منها جلال ... واكتساب الحرام يُصْلِى النارا

وليالى الهموم فيها طوال ... وليالى السرور تمضى قِصَارا

كم مليك مُسَلَّطٍ ذللته ... بعد عزٍ فما أطاق انتصارا

ونعيم قد أعقبته بؤسٌ ... ومغان[4] قد أعقبتها قفارا[5]

أيها المستعير منها متاعا ... عن قريب ستأخذ المستعارا

لله دَرُّ أقوامٍ تأملوا غيبها، وما زالوا حتى رأوا عيبها، نزلوا من الدنيا منزلة الأضياف، أخذوا الزاد وقالوا: ما زاد إسراف، رموا فضول الدنيا من وراء جبل قاف، لو رأيتهم فى الدُّجى يراعون النجوم، وخيل الفكر قد قطعت جلباب الهموم، أحرقت أحزانهم أجسامهم وبقيت الرسوم، بلغتهم البلغ[6] و رمتك التخم[7] فى التخوم، سكروا من مناجاة الكريم، لا من نبات الكروم، هذه سلع الأسحار مَن يشترى؟! من يسوم؟!.

قال الحسن[8]: بلغنى أن ريحا من الجنة تهب وقت الأسحار خاصة؛ فتحرك أشجار الجنة، فبرد السَّحَر وطيبه إنما هو مما يخرج من خلال تلك الأشجار.

---

(١) الزَّوَرُ: المَيْل.. والزَّوْرُ: الزائروان، والزَّوْرُ: الذى يزورك ولعله المراد ههنا.

(٢) الأورار: البُعْدُ.

(٣) خُلِط.

(٤) المَغانى: المواضع التى كان بها أهلوها.

(٥) مكان قفر: لا أحد به

(٦) البُلْغَة: ما يكفى من الطعام لسد الرمق.

(٧) التخمة والوخم: التعب من كثرة تناول الطعام.

(٨) الحسن البصرى، تقدمت ترجمته.

شعر:

يا حبذا جبلُ الريان من جبلٍ	وحبذا ساكنُ الريانِ مَن كانا
وحبذا نفحاتٌ منـــــه واردة	تأتيك من قِبَلِ الريانِ أحيانـا

[قـوم يـحـبـهـم الـلـه ويـحـبـونـه]

قال ذو النون المصرى[1]: كنت بمكة شرفها الله تعالى، فقمت ذات ليلة إلى الطواف، فلما كان وقت السَّحَر رأيت نوراً قد بلغ عنان السماء، فتعجبت من ذلك النور، وأتممت طوافى، واستندت إلى السقاية متفكرًا فى ذلك النور، إذ سمعت صوت قائل يقول:

أنت تدرى يا حبيبى	مَن حبيبى أنت تدرى
قد كتمت الحب حتى	ضاق بالكتمان صدرى
ونحول الجسم والدمع	يبوحـــــان بســـرى

قال ذو النون: فشجانى والله ما سمعت، فبكيت حتى انتحبت، وقمت اتبع الصوت، فإذا هى امرأة، فسمعتها تقول: إلهى بحبك ألا غفرت لى. فتعاظمنى ما سمعته منها، فقلت لها: لا تقولى هكذا، ولكن قولى: بحبى لك ألا غفرت لى، فقالت: يا ذا النون أما سمعت قوله تعالى: ﴿فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾[2] يا ذا النون لو لم يحبنى ما اختارنى لمحبته، فقلت: أراك نحيفة الجسم صفراء اللون أبك علة؟!، فقالت:

محب الله فى الدنيا عليلٌ	تطاول سقمُه فدواه داؤه
كذا من يدعى لله حبًا	يهيمُ بوجده حتى يراه

ثم قالت: انظر مَن خلفك، فلا أدرى السماء رفعتها أم الأرض ابتلعتها؟!.

[إلـى مـتـى تـسـتـعـبـدكـم الـدنـيـا؟]

إخوانى: ذودوا[3] هممكم عن مرعى الهوى فإنه يزيدها عجفا، لا تولوا فرعون الهوى على مدن الأبدان، ﴿إنى أخاف أن يبدل دينكم أو يُظهِر فى الأرض

---

(١) تقدمت ترجمته. (٢) المائدة: ٥٤. (٣) ابعدوا.

الفساد﴾[1]، زنوا حُلْوَ المشتهى بِمُرِّ العقاب يبين لكم التفاوت، إلى كم يقودكم الهوى؟، إلى كم تستعبدكم الدنيا؟.

شعر:

كم اصطبار علىَ ضَيْم[2] ومَنْقَصَةٍ — وكم على الذل إقرارٌ وإذعانُ
ثوروا لها ولتهن فيها نفوسكم — إن المناقب للأحرار أثمان[3]

إخوانى: تَيَقَّظوا فالأيام دائبة، وتَحَفَّظُوا فالسهام صائبة، واحذروا دنياكم فما هى مواتية، واذكروا أخراكم فها هى آتية، أما رأيتم الدنيا قد أبانت خداعها ومكرها، إذ أبانت من جمعها بمكرها، أين الارتياد للسلامة؟، أين الاستعداد قبل الندامة أبدا؟، عبادَ الله مَن تَعَلَّق قلبه بالجنة لم يصلح لنا، فكيف بمن يهوى الدنيا؟!.

شعر:

أردناكم صرفًا فلما مزجتم — بعدتم بمقدار التفاتكُم عنَّا
وقلنا لكم لا تُسكنُوا القلبَ غيرنا — فأسكنتم الأغيار ما أنتم منا

[عبدى ارْجِع إلىَّ]

قال عبد الواحد الواعظ: ذُكر لى عن جارية مجنونة أنها تتكلم بالحِكَم والمواعظ الحسنة، فلم أزل أطلبها حتى وجدتها يومًا بفلاة من الأرض، وهى جالسة على حَجَر، وعليها جُبَّة من صوف، وهى محلوقة الرأس، قال: فلما نظرت إليها قالت لى مِن قبل أن أُكلمها: مرحبا بك يا عبد الواحد، فتعجبت من معرفتها لى ولاسمى ولَم تَرَنى قبل ذلك، فعلمت أنها من الصالحات، إلا أنها قد غلب عليها الْوَلَه، ثم قالت: ما جاء بك يا عبد الواحد؟، قلت: جئت لتعظينى، فقالت: سبحان الله! كيف أعظك وأنت تعظ الناس؟!، قلت لها: إن بى جُرْحًا

(١) غافر: ٢٦.
(٢) الضَّيْمُ: الظُّلْم.
(٣) فى المدهش (ص٣٢٣) نسب البيتين للشريف الرضى. ، قال محققه: هى من قصيدة قالها يصف الأسد، وهى فى ديوانه (٢/٤٤٨ ـ ٤٥٣)

قد نَغِلَ[1] بى وأعيا الأطباء دواؤه، فإن رأيتِ أن تَمُنّى علىَّ بمرهم يلائمه كان لك أجر ذلك!، فقالت: اعلم أن العبد إذا كانَ من الله فى كفاية، ومَالَ إلى الدنيا سلبه الله حلاوة الطاعة فيظل والهًا حيرانًا، فيقول الله عز وجل: عبدى أردتُ أنْ أرفع قدرك عند ملائكتى وحملة عرشى فملتَ إلى عرض الدنيا وتركتنى، فأورثتك تلك الوحشة بعد الأنس، والذل بعد العز، عبدى ارجع إلى ما كنت تعهده من نفسك، ارْجِع إلى ما عهدته من إحسانى.

ثم تركتنى وانصرفت.

[رحلوا عنها وفاتوا]

إخوانى: أين أرباب العزائم القوية؟! امتلأت بالأبرار البرية، رحلوا عنها وفاتوا، ونحن متنا وهم ماتوا.

شعر:

وما وَجْدُ أعرابية قَذَفَتْ بها ... صروفُ الهوى من حيث لم تَكُ ظنت
إذا ذكرت ماء العذيب وطيبه ... وبرد حصته آخر الليل جُنَّت
بأكثر منى لوعة غير أننى ... اجمجم[2] احشائى على ما اجنت[3]
لها أَنَّةٌ وقت العشاء وأنةٌ ... سحيرا فلولا أَنَّتَاهَا لَجُنَّت

يا هذا: كرب المحب بالنهار يشتد لمزاحمة رقباء المخالطة، فإذا هب نسيمُ السَّحَرِ وجد بروحه روحا[4]، تصل من قصر مصر المنى إلى أرض كنعان الأملِ، فيقوم راكب الشوق يتحسس النسيم من فرج الفرح، طال الرجاء على الأبدان وقصر على القلوب.

شعر:

شكونا إلى أحبابنا طولَ ليلنا ... فقالوا لنا: ما أقصرَ الليلَ عندنا
وذلك أن اليوم يغشى عيونَهم ... سريعا ولا يغشى لنا النومُ أعيُنَا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثلَ ما ... نلاقى لكانوا فى المضاجع مثلنا

---

(1) نَغِلَ الجُرْحُ: فسد.
(2) اخفيه ولا ابديه.
(3) اجنت: سترت واخفت
(4) ريح طيبة.

دموع الخائفين يحبسها بالنهار مراقبة الخلق، فإذا جن الليل انفتح سد الدموع ﴿فسالت أودية بقدرها﴾[1] رياح الأسحار أقوات الأرواح.

شعر:

سلوا بعدكم وادى الحما ما أسَالَهُ — دمى ودموعى فى هواكم أم القطر؟

وهل ما أراه الموت أم حادث النوى — وهل هو شوق فى فؤادى أم الجمرُ؟

وبعضهم كان يقول لولده: يا بنى طال والله حزنى على دار أُخرجت منها فلو رأيتها زهقت نفسك.

شعر:

كيف لا أبكى على عيش مضى — بعتُ روحى برخيصِ الثمنِ

كيف أرجوا البرءَ من داءِ الهوى — وطبيبى فى الهوى أمرضنى

يا أخى: اكتب قصة الندم بمداد الدمع، وابعثها مع ريح الزفرات، لعل الجواب يصل برفع الجوى[2].

شعر:

خَلِّ دمعَ العينِ ينهمـــل — بانَ من تهواه وارتحـــل

كل دمعٍ صَانَهُ كَلِفٌ[3] — فهو يـــوم البين مبتذل

[قلبك محبوس فى سجن طبعك]

يا أخى: انتبه لنفسك، يا مَن كُلَّمَا تَحَرَّكَ تعرقل، قلبك محبوس فى سجن طبعك، يا مقيداً بقيود جهلك، البس لأمة[4] عزمك، وسر فى جند جدك لعلك تخلصه من أيدى أعاديه، يا جامد الدمع اليوم، غدا تدنو الشمس من الرءوس فتنفتح أفواه مسام العروق، فتبكى كل شعرة بعين عرقها، أين الذين نصبوا الآخرة بين أعينهم فنصبوا[5]، وندبوا أنفسهم للبكاء، فمُحيت سيئاتهم إذ ندبوا.

---

(١) الرعد:١٧.

(٢) الجَوَى: الحُرْقة وشدة الوجد من عشق أو حُزن.

(٣) كَلِفٌ: مُحِبٌ.

(٤) اللأمة: السلاح.

(٥) نصبوا: تعبوا.

[مَن عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل]

قال ذو النون المصرى: بينا أطوف ذات ليلة وإذا بجارية معلقة بأستار الكعبة، وهى تناجى ربها، فقلت لها: السلام عليك يا أمة الله، فقالت: وعليك السلام يا ذا النون، فقلت لها: ومن أين عرفتينى؟، فقالت: جالت روحى وروحك فى الملكوت فعرفنى بك ذى العزة والجبروت، ثم ولَّت وطافت حول البيت، ورجعت، فنظرت إليها فإذا هى من كثرة البكاء لا تبصرني!، فقلت لها: يا جارية إن معى كحلا صنعته لنفسى، وإنى أرى عينيك قد أضرَّ بهما البكاء، أفآتيك منه بشىء؟، قال: فمضت ولم تكلمنى، وطافت حول البيت، ثم رجعتْ فتأملتها فإذا هى كالشن البالى تكاد الريح تحملها لدقة جسمها، فقلت لها: يا جارية إنَّ لربك عليك حقا، ولبدنك عليك حقا، فَأَدِّ لكل ذى حق حقه، وعليك بالرفق لنفسك، فقد يُنال ما عند الله بدون هذا الجهد، فقالت: يا ذا النون قد كان لى دمع فأفنيته، وجسم فأبليته، ونظر فأعميته، وقلب فاضنيته، ومَن عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، فدَعْ عنك ما يضرنى ولا ينفعك، ثم غابت عنى فلم أرها.

شعر:

مهلاً عذولِ صليت نار جوانحى   وغرقت فى تيار دمعى المسبل
هذا حشاى لديك فانظر هل ترى   قلبًا فإن صادفت قلبا فاعـذل

الفصل السابع عشر

[عظة القبور]

اسمع: يا من يمشى على ظهور الحفر، ويرى السابقين إلى بيوت المدر، لو أصغى سَمْعُ التدبر سَمعَ العبر، كفى بالموت واعظًا يا عمر.

شعر:

وعَظَتْكَ أَجْدَاثٌ[1] صمت   ونعتك أزمنة خفت
وأرتك قبرك فى القبور   وأنت حى لم تمت[2]

---

(١) قبور

(٢) فى المدهش (ص٢١٦) نسب الأبيات لأبى العتاهية، قال: وهى فى ديوانه (ص ٧٨ ـ ٧٩).

[الموت الناصب أباد أرباب المناصب]

أين أرباب المناصب؟، أبادهم الموت الناصب[1]، أين المتجبر الغاصب؟، أذله عذاب واصب[2]، لُفت والله الأكفان كالعصائب[3]، على تلك العصائب[4]، وحلت بهم آفات المصائب، إذ حلَّ بفنائهم سهم صائب، فيا من بين يديه هذه المصائب، أحاضر عندنا أم غائب؟، كم عاصٍ بات فى ذنوبه، يتقلب على فراش عيوبه، بين مزمار ومزهر[5]، ومُسْكِرٍ ومُنْكَرٍ، فجاءه الموت فجاءة، فأنساه ولده ونسَاءَه، وجلب مساؤُه ما ساءَه، فنقل إلى اللحود ذميمًا، ولقى من غب[6] المعاصى أمرا عظيما.

شعر:

أمسى وأمستْ عنده قينة[7]	فأصبحت تندبه نائحة
فكُنْ من الدنيا على أهبة	فأينا ليست به صائحة؟
من كانت الدنيا بَرَّةً	فإنها يوما له ذابحة

اسمعوا يا معشر الأصحاء، اغتنموا نعمتى السلامة والإمهال، واحذروا خديعة المنى والآمال، فقد جريتم على النفس تبذيرها فى بضاعة العمر، فانتبهوا لحفظ الباقى، ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾[8]، أيام العمر معدودة، وسيفنى العَدَدُ، وطريق صعبة على قلة العُدَدُ، أتراك تظن أنك تبقى إلى الأبد؟، أما يعتبر بالوالد الولد؟، أين المتحرك فى الهوى؟ همد، أين ماء الأعراض الجارى؟ جمد، تساوى فى الممات الثعلب والأسد، وشارك الموهى بين الحديد والمسد[9]، واستقام قياس النقض للكل واطَّرَد، أفلا ينتبه مِن رقدته مَن قد رقد؟.

---

(١) النَّصَبُ: الإعياء والتعب.
(٢) واصب: مستمر ودائم
(٣) العصائب، جمع عصابة، وهى العمامة.
(٤) جمع عُصْبة وعصابة، وهم الجماعة من الناس.
(٥) المِزْهَر: العود الذى يُضرب به (من آلات الموسيقى).
(٦) غَب كل شىء عاقبته وآخره.
(٧) القينة: المُغَنِّية. (٨) النساء: ٥.
(٩) المسد: حبل مفتول من من الليف أو النبات أو لحاء شجرة.

شعر:

تفور بنا المنون وتستبد	ويأخذنا الزمان ولا يَرُدُّ
وأنظرُ ماضيًا فى عقب ماضٍ	لقد أيقنت أنَّ الأمرَ جِدُّ
رويدا بالفرار من المنايا	فليس يفوتها السارى[1] المجد
أعارهم الزمان نعيم عيش	فيا سرعان ما استُلِبُوا ورُدُّوا
فأين ملوكنا الماضون قدمًا	أعدوا للنوائب واستعدوا؟
هم فَرَطٌ لنا فى كُلِّ يوم	نَمُدُّهُمُ وإن لم يستمدوا[2]

يا شاربين من منهل الهوى شرب الهيم[3]، يا جاعلين نهار الهدى كالليل البهيم[4]، يا مقيمين على الدنس وليس فيهم مقيم، يا سالمين من أمراض البدن وكلهم سليم[5].

[آخر الدواء: مخالفة النفس والهوى]

قال بعض السائحين: رأيت فى تيه بنى إسرائيل رجلا يتمايل ضَعْفًا ونحولا، فسألته عن حاله، فقال: أنا رجل عليل، فقلت له: وما يصنع العليل فى البرية؟، فقال: يا هذا إنى تفكرت فى نفسى، وتأملت فى حالى، فلم أر لى معينا على برء علتى غير وحدتى. فقلت له: يا أخى كم لك بهذه العلة؟!، قال: منذ عرفت نفسى، قلت: ما بالك لا تتداوى؟، فقال: لم أترك دواء إلا استعملته، ولا طبيبا إلا سألته، فلم أجد لدائى عندهم دواء، فقلت له: يا هذا إنى أعرف طبيا حاذقا لبيبًا، فإن وصفت لى دائك أتيتك منه بدوائك، فنظر إلىَّ ثم قال:

قُلْ للطبيب دوائى لستَ تعرفُهُ	فخلِّ عنك علاجى أيها الرجلُ
هل فى دواءٍ مَن يطبُّ الناسَ منفعة	لمن أضرَّ به التسويفُ والأملُ؟

(١) السرى: السير ليلاً.

(٢) فى المدهش (ص١٥٩) نسب الأبيات للشريف الرضى، قال محققه. وهى فى ديوانه (١/٣٦٦) من قصيدة يرثى أبا طاهر بن ناصر الدولة، وكان صديقًا له.

(٣) الهيم: الإبل العطاش.

(٤) الليل المظلم الذى لا ضياء فيه.

(٥) السليم: اللديغ.

ثم قال: يا أخى عزمت على الكَىِّ، فقلت له: وما الكى؟، قال: مخالفة النفس والهوى، فإنه الطب الذى فيه الشفاء، ثم تركنى ومضى.

اسمع يا ثقيلَ النوم يا بطىء اليقظة يا عديم الفهم، أما ينبهك الأذان؟ أما تزعجك الحداة؟ أترى نخاطب عجمًا أو نكلم صمًا، يا مُطْلِق النواظر فى محرم المنظور، ﴿لترون الجحيم﴾[(١)].

يا إخوانى: لا يغرنكم إمهال العصاة ﴿إن إلينا إيابهم﴾[(٢)].

[لَفْحَةٌ بنظرة .. ولو زدْتَ لزدناك!]

قال بعض الصالحين: كان بالبصرة رجل يعرف بذاكون، وكان سيدا فى زمانه، فلما توفى لم يبق بالبصرة رجل إلا شهد جنازته، فلما انصرف الناس من دفنه نمت بين القبور، فإذا ملك نزل من السماء وهو يقول: يا أهل القبور قوموا لأجوركم، فانشقت القبور عن أهلها وكل مَن كان فيها، وذكوان من جملتهم، وعليه حُلَّتان يفوقان الوصف، وعلى رأسه تاج من الذهب الأحمر، مرصع بأنواع الدُرّ والجوهر، فقمت مُسَلِّما عليه، ومُهَنِّئا له، فرأيت فى وجهه نقطة سوداء، فسألته عن تلك النقطة، فبكى بكاء شديدا وقال: يا أخى كنت قبل موتى بأيام يسيرة ماشيا فى بعض شوارع البصرة، فرأيت جارية لم أر أحسن من عينيها، فقلت لها: يا جارية هل أنت خالية من زوج؟، فقالت لى: يا شيخ وما حملك على ما ذكرت لى؟، فقلت لها: حُسْنُ عينيك، فقالت: إن كنت صادقا فاتبعنى، فاتبعتها حتى أتت إلى دار فدخلت، فخرجت إلىَّ عجوز فأذنت لى فى الدخول، فدخلت، فوجدتها خلف ستر، فقالت لى: يا شيخ أنت مقيم على حالتك وصادق فى مقالتك؟، فقلت: نعم، فقالت: والله لا فتنتُ بعدك مسلمًا أبدًا، ثم أدخلت أصبعيها فى عينيها ورمتْ بهما إلىَّ، وقالت: يا شيخ هذا الذى فتنك منى، قد رميت بهما إليك، قم فى حفظ الله. قالت: فخرجت من عندها هاربا وأتيت إلى محرابى، ولم أزل فى بكاء وانتحاب حتى قُبضت، فلما نُفخ فى الصور نفخة البعث، وقمنا من قبورنا، وطفنا حول العرش، نادى ملك: يا أهل

(١) التكاثر: ٦

(٢) الغاشية: ٢٥.

الاجتهاد إن الله يستحى أن يناقشكم الحساب، جوزوا الصراط بفضل الله ورحمته ومغفرته، فقام المجتهدون فسرت معهم، فلما توسطنا الصراط جاز الناس وبقيت أنا، فجعلت أنادى: يا أحبائى!، فلا يجيبونى، فأيقنت بالهلاك، فبينما أنا كذلك، وإذا بلسان من نار قد خرج من جهنم فلفح فى وجهى ما رأيت، ونادى منادى: يا ذاكون هذا يوم الجزاء، لفحة بنظرة ولو زدت لزدناك.

شعر:

جنبونى خطب البعاد وسهل   كل خطب سوى النوى والبعاد

[عقدة العهد]

يا من عهدنا معه يوم ﴿ألست﴾[1] لا تحل عقدة العهد بأنامل الزلل فما يليق بشرف قدرك خيانة.

شعر:

بحرمةِ الودِّ الذى بيننا   لا تفسد الأول بالآخر

اسمع يا من أبعدته الذنوب عن ديار الأُنس، ابْكِ وطر[2] الوطن عساك تُرَدّ.

[عبد آبق[3] من مولاه!]

قال بعض السلف: رأيت شابا فى سفح جبل، عليه آثار القلق، ودموعه تتحادر، فقلت له: مَن أنت؟، فقال: آبق من مولاه، قلت: تعود وتعتذر، فقال: العذر يحتاج إلى حُجَّة، فكيف يعتذر المفرط؟، قلت له: تتعلق بشفيع، فقال: كل الشفعاء يخافون منه، فقلت: مَن هو؟ قال: مولى ربانى صغيرا، فعصيته كبيرا، فواحيائى منه، ومِن حُسن صنيعه، وقُبح فعلى، ثم صاح صيحة خرجت فيها روحه، فخرجت عجوز إليه وقامت: من أعان على قتل البائس الحيران؟، فقلت لها: أقيم عندك أعينك عليه، فقالت: خَلّه ذليلا بين يدى [مولاه]، عساه يراه بغير معين فيرحمه.

---

(١) يعنى قول الله تبارك وتعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾ [الأعراف ١٧٢]

(٢) الوطر: كل حاجة يكون لك فيها همة.

(٣)آبق: هارب

شعر:

يا حادى الأظعان عج[1] متوقفا   وانظر دَمَ العشاق كيف يُراق

صبروا على ألم التهاجر والقِلى[2]   وتجرعوا مُرَّ الفراق وذاقوا

[يا معشر التائبين]

يا معشر التائبين: مَن أقامكم وأقْعَدَنَا؟ مَن قَرَّبكُم وأبْعَدَنَا؟ ﴿إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾[3] كم وعظتنا الدنيا فأبلغت إذ قالت، وخبرت برحيلها قبل أن يقال زالت، وما سقطت جدرانها حتى أنذرت ومالت، وحذرت: لقد قرب الاغتراب فى التراب، ودنى سَلُّ السيف من الرقاب، يا من زمانه الذى يمضى عليه، يا من ذنبه أوجب أن لا يُلْتَفَت إليه، أتلهو برند[4] الصبا وبانه[5]، ويروقكم برق الهوى بلمعانه، وتغتر بعيش فى عنفوانه، وتمد يد الغفلة إلى جنى أغصانه، وتنسى أنك فى حريمِ خطره وامتحانه، أما لقمة أبيك آدم أخرجته من مكانه؟، أما نودى عليه بالفطر فى رمضانه، أما شأنه شانه[6]؟ لولا وكف[7] شانه[8] ،أما يستدل على نار العقاب بدخانه؟.

شعر:

قل للمُفرطِ يستعد   ما مِنْ ورودِ الموتِ بد

قَدْ أخلق الدهرُ الشبابَ   وما مضى لا يُسترد

فإلى متى شُغل الفتى   فى لهوِه والأمرُ جد؟

والعمر يقصر كل يوم   بى وآمالى تُمَدّ

يا هذا لا تبرح من الباب وإن طُرِدْت، لا تزل عن الجناب ولو أُبعِدت، وقُل بلسان التملق: إلى من أذهب؟.

يا من كان له قلب فمات، يا من كان له له وقت ففات، احضر فى السَّحَر

(1) عِجّ: ارفع صوتك.
(2) القلى: الهجر.
(3) إبراهيم: 11.
(4) الرند: شجر طيب الرائحة.
(5) البان: من أشجار البادية.
(6) شَانَهُ: عَابَهُ.
(7) وكَفَ الدمعُ والماءُ: سَالَ.
(8) الشأنُ: مَجْرَى الدمع إلى العيْن.

فإنه وقت الإذن العام، واستصحب رفيق البكاء فإنه مساعد صبور.

يروى أن العبد إذا بكى من خشية الله عز وجل بكى معه الملكان الموكلان به، فإذا صعد إلى السماء قال الله تعالى لهما - وهو أعلم -: مِن مَاذا بكيتما؟، فيقولان: إلهنا، عبدُك بكى من خشيتك فساعدناه، فيقول الله عز وجل لهما: قد عفوت عنه بمساعدتكما إياه.

شعر:

قِفْ صاحبى إنْ كنتَ تُسعدنى	عندَ الكثيبِ فَثَمَّ لى غرض
فرضوا على الأجفان أن لا تلتقى	أو نلتقى فاصبر لما فرضوا
كيف اصطبارى بعد فرقتهم	واحسرتى ما عنهمُ عوض[1]

الفصل الثامن عشر

[يا مَن شاب وما تاب وما أصلح!]

اسمع: يا من شاب وما تاب وما أصلح، يا معرضا إلى ما يؤذى عن الأصلح، ليت شعرى بعد الشباب بماذا تفرح؟، ما أشنع الخطايا فى الصبَّا وهى فى الشيب أقبح، إذا نزل الشيب ولم يزل العيب فبعيد أن يبرح.

شعر:

حتى متى لا تستفيق من الصبَّا	والقلبُ منكَ إلى الجهالة مائلُ
ما لاح شيبٌ فى المفارقِ ظاهرٌ	إلا وأخبرَ أنَّ حَتْفَـكَ عاجـلُ
دنيا إلى حالِ الذهابِ مصيرُها	وجميعُ ما تَحْويه منها زائلُ
فانظر لنفسك فى جهازِكَ مُسْرِعًا	واعلم بأنك من قريبٍ راحلُ

اسمع يا مستلبا عن أهله وماله، يا خالياً فى القبر بأعماله. ، ليته خَلاَّك ما منه تَخَلَّيت، ليته ولَّى عنك إثم ما عنه تَوَلَّيت

---

(١) الأبيات لابن الجوزى، كما فى المدهش (ص٣٦٢)

[قافلة الموت!]

قال أحمد بن أبى الحوارى[1]: رأيت شابًا قد انحدر من مقبرة، فقلت له: من أين؟، قال: من هذه القافلة النازلة، قلت: وإلى أين؟، قال: أتَزَوَّد والحقها، قلت: فأى شىء قالوا لك؟ وأى شىء قلت لهم؟، قال: قلتُ: متى ترحلون؟، قالوا: حتى تقدمون!.

[قال التراب]

وقيل: دخل عمر بن عبد العزيز الجبانة فبكى بكاء شديدا حتى احْمَرَّت عيناه، فقيل له فى ذلك، فقال: أتيت قبور الأحبة فسلمت عليهم فلم يردوا جوابا، فلما ذهبت لأنصرف نادانى التراب: يا عمر ألا تسألنى ماذا لقى الأحبة؟ قلت: بلى، قال: خرقت الأكفان، ومزقت الأبدان، وتغيرت الألوان؛ فبكيت لذلك بكاءً شديدا.

شعر:

فهمُ فى بطـونِ الأرضِ بعـد ظهورهـا ... محاسنهُـم فيهـا بَوَالٍ دواثـر

خلت دورهم منهم وأسفت عراصهم[2] ... وساقهم نحو التراب المفاور[3]

[الفناء مصير كل حَىّ]

ياهذا إن المستقيظين نظروا فى العواقب بعين البصيرة، فتحقق كل منهم أن إلى الفَنَاء مصيره، فجنبوا جنوبهم الفرش الوثيرة، وغسلوا الذنوب بفيض الأدمع القريرة[4]، وراقبوا فى الملأ والخلاء، عَالِم الجهر والسريرة، فقطعوا الليل بالسهاد، وهجروا اللذات خوف المعاد، فإذا أظلم عليهم الليل وَصَلُوا بالزفير أنينهم، وأقرحوا بالدموع جفونهم، فقطعوا الأطماع بسيوف الأخلاق، وقمعوا

---

(١) أحمد بن عبد الله بن ميمون، ثقة، من الزهاد العبَّاد، أخرج له أبو داود وابن ماجه، مات سنة ٢٤٦هـ، انظر: الحلية (١٠/ ٥)، صفة الصفوة (٧٦٤)، التقريب (١/ ١٨)، التهذيب (١/ ٤٩)، شذرات الذهب (٢/ ١١)

(٢) العرصة ساحة الدار

(٣) فورة الناس: مجتمعهم

(٤) أى الباكية، القَرُّ: صَبُّ الماء دفعة واحدة.

الأهواء بذكر يوم التلاق، فكرعوا[1] من المصفاة كؤوسًا حلوة المذاق.

شعر:

أطاعَ اللهَ قومٌ فاستقامـــوا — على طرقِ الودادِ فلمْ يناموا
سَقَاهم بالصفاءِ كؤوسَ وُدٍّ — فتاهوا من محبتِهِ ونامـــوا

أناخت بهم مطايا الهم فى رياض الحكم، فهم بأفياء[2] أشجارها يستظلون، وبنسيم أرواحها يتنعمون، وفى فلوات الخلوات يُسبِّحون، وبمحبوبهم فى وحدتهم يأنسون.

[منكم هربت إلى !!]

قال أبو فروة السائح: بينا أنا أسير فى جبل لبنان، وقد جَنَّ الليل، إذ سمعت صوتَ حزينٍ، وهو يقول: يا مَن آنسنى بذكره، وأوحشنى من خلقه، اجبُر الليلة غربتى، وارحم عبرتى، يا عظيم الصنع لأوليائه، اجعلنى من أوليائك وأصفيائك قال: فاتبعت الصوت، فلما دنوت منه إذ هو شيخ قد سقط حاجباه على عينيه، فلما أحس بى نفر، وقال: إنسى ورب الكعبة، فقلت: لا بأس عليك، قف لتخبرنى، فقال: إليكَ عنى[3] فمنكم هربت..، ثم مضى وتركنى.

شعر.

ولقيتُ فى حبِّكَ ما لمْ يَلْقَهُ — فى حُبِ ليلى قيسُها المجنـونُ
لكننـى لم أتبعْ وحـشَ الفلا — كفعـالِ قيسٍ والجنـونُ فنـونُ

[قَتَلَتنَا الذنوبُ]

قيل مَرَّ عيسى عليه السلام بجانب جبل، فقطرت عليه منه قطرات من ماء، فصعد إلى الجبل لينظر من أين ذلك الماء، فرأى قوما عليهم مسوح[4] الشعر، والأغلال فى أعناقهم، فسألهم عن أمرهم، فقالوا يا روح الله قَتَلَت أنفسنا

(١) كل شيء شربت منه بفمك من إناء أو غيره فقد كَرَعْت فيه
(٢) ظلال
(٣) ابتعد عنى
(٤) المسح كساء غليظ من الصوف أو الشعر

الذنوبُ، فأقمنا عليها مأتم الحزن والبكاء، فقال لهم: كم لكم على هذه الحالة؟، قالوا: لا ندرى لكثرة ما مَرَّ علينا من الزمان، فقال لهم: فمن أين تأكلون؟، فقالوا: يا روح الله وهل نتفرغ لأكل أو شرب؟، غير أنا إذا غلب علينا الجوع أتينا هذه الصخرة عند شدة الفاقة[1]، فتنفلق لنا عن رمان على عددنا، وهو طعامنا، فانصرف عيسى عليه السلام عنهم، وقال: حقيق لمن فعل مثل فعلكم أن يكون له مثل ما لكم.

شعر:

دَعْ مَلامى فى الهوى أو رُحْ ودَعْنى	واقفا أنشد قلبًا ضاع منى
أنا يا دارُ على عهدِ الوفاءِ	فيكِ مَن خانَ وعزمى لم يخنى
ولئن غال[2] مغانيك البلى	عادةُ الدهرِ فشخصٌ منك يغنى
إنْ خبَتْ نارُ فهذى كبدى	أو جفا الغيث فهذا لك جفنى[3]

يا هذا إذا خيَّم سلطان المعرفة بقاع القلب؛ بث جنوده فى بقاع البدن؛ فصارت السباخ رياضا بالرياضة.

[هل من شفيع عند الله؟]

يروى أن رجلا من بنى إسرائيل كان كثير المعاصى والذنوب، ثم أنقذه الله عزَّ وجلَّ منها، فأقبل على طاعة الله، وأعرض عن معاصيه، فلما كان فى آخر عمره قال لأهله: هل تعرفون لى من شفيع عند الله؟، قالوا: أما الأنبياء فلا يقبلون عليك، وأما الصالحون فلا ينظرون إليك، فعلى مَن نَدُلُّك بعد هؤلاء؟، قال: فلما سمع كلامهم خرج هائما على وجهه، حتى أتى بعض الأدوية، فوضع خده على الأرض، ورفع طرفَه إلى السماء. وأخذ يتضرع إلى الله عز وجل ويقول: إلهى أنت العالم بِضرّى وقد جئتك بفقر فادح[4]، وعمل غير صالح، فاصنع بى ما يليق بكرمك يا كريم، قال: فناداه هاتف من أقصى الوادى: ما يصنع الرؤوف

(١) الفاقة: الحاجة. (٢) غَالَ واغتال: أهلَكَ.

(٣) الأبيات فى المدهش (٣٦٣)، ونسبها للمهيار، وهى فى ديوانه (٤/ ٧٢ ـ ٧٧) ضمن قصيدة كتبها لعميد الكفاة فى النيروز.

(٤) فَدَحَهُ الأمرُ والدَّين: أثقَلَه.

الرحيم بمن وقف بين يديه هذا الوقوف؟، قَدْ بَدَّلنا السيئات بالحسنات، ورفعنا لك الدرجات فى الجنات.

يا هذا:

مَن لم يَذُق مرارة الفراقِ   لم يدر ما حلاوة التلاقى

ما لم يقع سهم فى مقتلِ فالعلاج سهل، كانت صُحبة آدم للحق أصلية، وتَعَبُّد إبليس تكَلُّفًا، والعِرْقَ نَزَّاع لأنه ﴿كان من الجن﴾[1]، وإنما يُعَالَج الرَّمد لا الأكمه[2]. ما دامت نفسك عند التوبيخ منكسرة، وعينك وقت العتاب تدمع ففى قلبك بعد حياة، فإنما المعاصى أوجبت هجرك، فابك وطر الوطن عساك ترد.

[أين تذهبون عبادى عن بابى؟]

يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من ليلة يجن ظلامها، وتهجع العيون فيها، إلا نادى الجليل جل جلاله: مَن أعظم منى جودا وكرمًا؟، عبادى يعصوننى، وأنا أحفظهم فى مضاجعهم كأنهم لم يذنبوا، أجود على العاصى، وأتفضل على المسىء، وأنا ذو الفضل، ومنى الفضلُ، وأنا الجواد ومنى الجودُ، وأنا الكريمُ ومنى الكرم، فأين تذهبون عبادى عن بابى؟، إنْ دعانى العاصى أجبته، وإن سألنى أعطيته، وإن هرب منى أدنيته، وأنا عند ظن عبدى بى، ولا أعاجل العبد بالعقوبة، وإن عصى وإن أعصى».

شعر:

بما بيننا من حرمةٍ هلْ رأيتُما   أرَقَّ مِنَ الشكوى وأقسى من الهجْر؟

يا معاشر التوابين هلموا لِقَرْع الباب، اسمع يا مَن يقول إذا شبْتُ تُبْت:

اليوم عهدكم فأين الموعـــــد؟   هيهات ليس ليوم عهدكـــم غــد

يا أخى: وقوع الذنب على القلب كوقوع الدهن على الثوب، وإن لم تُعَجِّل غسله انبسط ﴿وإن منكم لمن ليبطئن﴾[3].

---

(١) الكهف: ٥٠.   (٢) الأكمة: مَن وُلِدَ أعمى.

(٣)النساء: ٧٢.

أيها التائبون بألسنتهم لا يدرون ما تحت نطقهم، لا يحكم بإقراركم ﴿حتى تعلموا ما تقولون﴾[1] إذا صدقت توبة التائب بنى بيت التعبد بصخور العزائم ولم يفده فى أساسه دون الماء، إن التائبين كاتَبُوا الله بدموعهم، وهم ينتظرون الجواب.

شعر:

يا حادى الأظعان عج متوقفـــا	وانظر دم العشاق كيف يراق
صبروا على ألم التهاجر والقلى	وتجرعوا مُرَّ الفراق وذاقـــوا

أهل الله وجوههم أضوء من البدر، جباههم أنور من الشمس، نَوْحُهُم أفضل من التسبيح، سكوتهم أبلغ من فصيح، فلو علمت الأرض قدر خوفهم تزلزت، ولو سمعت الجبال ضجيجهم تقلقلت.

شعر:

أمسى وأُصبح من تذكاركم قَلِقاً	يرثى لى المشفقانُ الأهلُ والوُلْد
قد خدَّد[2] الدمع خدِّى من تَذَكُّرِكُم	واعتادنى المضنيانُ الشوقُ والكمدُ
وغابَ عن مقلتى نومى ونافرها	وخاننى المسعدان الصبُر والجلدُ
لم يبق إلا خفى الروح من جسدى	فداؤك الباقيان الروحُ والجسدُ

[ثم يأتى الحزن]

يا هذا أول الطريق سهل ثم يأتى الحزن، فى البداية إنفاق البدن، وفى التوسط إنفاق النفس، فإذا نزل ضيفُ المحبة تناول القلب فأملق[3] المنفق، قلق القوم بلا سكون، انزعاجهم بلا إتباب[4]، حلفت جنوبهم على جفاء النوم، فلو سمعت ضجيجهم فى دياجى الليل يقولون:

شعر:

مَن لِقَلْبٍ لازم الفِكَرَا	ولِعَيْنٍ لا تذوق الكرى[5]
ولِصَبٍ[6] بالغرام قضى	ما قضى فى حبكم وطرا

(١) النساء: ٤٣.

(٢) أى جعل به أخاديد.

(٣) افتقر: من الإملاق وهو الفقر

(٤) إتباب: انقطاع.

(٥) الكرى: النوم.

(٦) الصب: العاشق.

أحصروا[1] القلوب فى سبيل المحبة فأشغلتهم عن كل مطلوب ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾[2].

[غضوا أبصاركم]

ورد أنه لاحت لبعض التائبين نظرة فصاح وجعل يقول:

حلفت بدين الحب لا خنت عهدكم ... وتلك يمينٌ لو علمت غموس

إذا لاحت للتائبين نظرة لا تحل فامتدت عين الهوى، تزلزلت أرض التقوى فهبط معمار الإيمان، ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[3]، أكثر فساد القلب من تخليط العين، ما دام باب عين البصر موثقاً بالغض فالقلب سليم من كل آفة، فإذا فتح طار الطائر وربما لم يعد.

اسمعوا يا متصرفين[4] فى إطلاق الأبصار، جاء توقيع العزل ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾[5] إطلاق البصر ينقش فى القلب صورة المنظور، والقلب كعبة: «ويسعنى»[6]، ما يرضى المعبود بمزاحمة الأصنام.

عيناى أعانتا على سفكِ دَمى ... باللذة نظرة أطالتْ نَدَمـــى[7]

كم أندم حينَ لا يغنى ندمى ... ويْلى ثبت الهوى وزلت قدمى

---

(1) المُحْصَر: الذى لا يستطيع السفر.

(2) البقرة: 273. (3) النحل: 15.

(4) المتصرف فى الشىء: القائم به. (5) النور: 30.

(6) يعنى الحديث القدسى: «قال الله تعالى: ما وسعنى سمائى وأرضى، ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن»..، ذكره الغزالى فى «الإحياء»، قال العراقى فى تخريجه: لم أر له أصلاً، ووافقه الزركشى فى «الدر».. ثم قال العراقى: وفى حديث أبى عتبه عند الطبرانى بعد قوله: «وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين، وأحبها إليه ألينها وأرقها» انتهى..، وقال ابن تيمية: هو مذكور فى الإسرائيليات، وليس له إسناد معروف عن النبى ﷺ،... وكذا قال فى المقاصد تبعاً لشيخه فى «اللآلىء»، ومعناه: وسع قلبه الإيمان بى ومحبتى ومعرفتى، وإلا فمن قال إن الله يحل فى قلوب الناس فهو أكفر من النصارى الذين خصوا ذلك بالمسيح وحده.. ونقل عن خط الزركشى أن بعض العلماء قال: إنه حديث باطل، وأنه من وضع الملاحدة، وأكثر ما يرويه المتكلم على رؤوس العوام على بن وفا لمقاصد يقصدها، ويقول عند الوجد والرقص: طوفوا ببيت ربكم...، وقد دافع الزبيدى صاحب «الإتحاف» عن هذا الصوفى على بن وفا وعن الصوفية، وقال: إنه تحامل من الزركشى!، فلا يُلتفت إلى كلام الزبيدى لأنه منهم.
انظر: إحياء علوم الدين (3/ 23 ـ 24)، كشف الخفاء [(2/ 255 ـ 256)، ح (2256)].

(7) فى المدهش (ص363): باللذة لحظة أطالت ألمى

يا هذا لا تجزع من ذنب مضى، فَرُبَّ زَلَّة أورثت تقويما، «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ثم أتى بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم»[1].

[إن الحسنات يذهبن السيئات]

سُئل بعض الصالحين عن سبب توبته؛ فقال: كنت فى حداثة سنى لا أقف على زلة، فرأيت فى بعض الأيام جارية لم أر أحسن منها وجها، فَفُتِنْتُ بها، فاشَرْتُ إليها، فلما صارت بالقرب منى أدركها جزع شديد، فقلت لها: لا تخافى، لا بأس عليك، فلم ينقص ذلك من خوفها شيئا، وجَعَلَتْ ترعد كسعفة فى يوم ريح، فقلت لها: أخبرينى بخبرك، فقال: والله يا أخى هذا موقف ما وقفته قبل يومى هذا قط، ولى ثلاث بنات، ولى ولهن ثلاثة أيام لم نستطعم فيها طعاما، فلما كان فى هذا اليوم حملنى الجوع والشفقة على ما ترى، قال: فعند ذلك رَقَّ لها قلبى، وسألتها عن مسكنها فاعلمتنى به، فحملت إليها ما قدر الله عز وجل من دراهم وكسوة وقمح وغير ذلك، ثم عمدت إلى ما فى بيتى، فبعته ودفعته لوالدتى، وأخبرتها بالقصة، وكان عندى سِجِلٌ أثبت فيه سيئاتى، فقالت: يا ولدى أنت رجل لم تعمل قط حسنة غير هذه، وعندك سجل تثبت فيه سيئاتك، فقم وأثبت فيه هذه الحسنة، فقمت إلى السجل وفتحته، فوجدته أبيض من أوله إلى آخره، وفيه سطر واحد: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾[2] فرفعت يدى إلى السماء وقلت: وعزتك وجلالك لاعصيتك بعد يومى هذا أبدا.

اسمع أخبارهم، يا مطلقا طرفه لقد عَقَلَك[3]، يا مرسلا سبع فمه لقد أكلك، يا مشغولا بالهوى مهلاً قتلك، بادر رمقك[4]، فقد رمقك[5] بالرحمة من عذلك[6]، أول منازل القوم: «عزفت عن الدنيا» وأوسطها: «لو كشف الغطاء ما ازددت إلا يقينا»، ونهايتها: «ما رأيت شيئا إلا رأيت الله قبله».

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٨)، والترمذى (٣٥٣٩)، وأحمد (٢/ ٣٠٥، ٣٠٩) عن أبى أيوب الأنصارى، ورواه مسلم (٢٧٤٩)، والترمذى (٢٥٢٦)، وأحمد (٢/ ٣٠٥، ٣٠٩) عن أبى هريرة.

(٢) هود: ١١٤.

(٣) عَقَلَ البعير: ثنى رجله ثم شدها فى وسط الذراع (قَيَّدَهُ بالحبل فلا يستطيع السير).

(٤) الرَّمَقُ: بقية الحياة. (٥) رمقك: نظر إليك.

(٦) العذل: اللَّوْم.

شعر:

شغلت نفسى عن الدنيا ولذتها   فانت والروح شىء غيرٌ مفترق
فَكَمْ تُعَذِّبها بالصدِّ يا أملى   ارْحَم بقية ما فيها من الرَّمَقِ
وما تَطَابقَت الأجفانُ عن سِنَةٍ   إلا رأيتُكَ بين الجفن والحدق
فارْحَم محباً كئيباً مُوجَعاً قَلِقاً   أجفانه وكلت بالسُّهدِ والأرق

الفصل التاسع عشر

[انتهت المُهلة]

اسمع يا مؤخراً توبته حتى شابَ، خرج وقت الاختيار يا ابن السبعين، لقد أمْهل المتقاضى، فالبدار البدار.

شعر:

ولم يبق من أيام جمع إلى منى   إلى موقف التجمير غير أمانى

يا هذا، عقلك يحثك على التوبة، وهواك يمنعك منها، والحروب بينهما قائمة، فلو جهَّزْتَ جَيْشَ العزم فَرَّ العدو، وتنوي قيام الليل فتنام، وتسمع المواعظ فلا تخشع، ثم تقول: ما السبب؟، ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾[1] عصيت بالنهار، فنمت بالليل، أكلت الحرام، فأظلم القلب، فلما فُتِح باب الوصول للمقبولين طُردت، ويحك! فكرُ القلب فى المباحات يحدث له ظُلْمَةً، فكيف فى تحصيل الحرام؟، إذا غَيَّر المسكُ الماءَ مُنع من التوضؤ به، فكيف بالنجاسة؟!.

شعر:

متى تفيق اليومَ من لوعةٍ   وأنتَ نَشْوانٌ بغيرِ مُدَامِ[2]

يا هذا، إذا رأيت جنازة فاحسبها أنت، وإذا عاينت قبرا فتوهمه قبرك، وعد باقى الحياة ربحا.

---

(١) آل عمران: ١٦٥.

(٢) المُدَام: الخمر...، والبيت فى المدهش (ص٣٥٥) مع آخر، ونسبه للشريف الرضى، قال محققه وهو من قصيدة فى ديوانه (٢/ ٣١٣ ـ ٣١٧).

شعر[١]:

لَقَدْ لامَنى عِنْدَ القُبُورِ على البُكَــاء ... رفيقى لتذراف[٢] الدموع السَّوَافِك[٣]

وقــال أتبكــى كــل قبــرٍ رأيتــه ... لقبر ثوى[٤] بين اللوى والدكــادك[٥]

فقلت له إنَّ الشجى يبعث الشجى[٦] ... دعـونى فهـذا كلـه قبر مـالـك[٧]

[تَفَكَّروا فى الذين رحلوا.. أين نزلوا؟]

إخوانى، تَفَكَّروا فى الذين رحلوا أين نزلوا؟ وتذكروا أنهم نوقشوا وسُئلوا، واعلموا أنكم ترحلون كما رحلوا، واعلموا أنهم ودوا لو رُدُّوا فعملوا!.

شعر:

سألتُ الدارَ تُخبِرنى ... عن الأحباب ما فَعَلُوا

فَقَالتْ لى: أنَاخَ القومُ ... أيَّاماً وقَدْ رَحَلوا

فَقُلتُ وأيْنَ اطْلُبُهُمْ؟ ... وأىُّ منازلٍ نزلوا؟

فقالت: بالقبور وقد ... لَقُوا واللهِ ما عملوا

أناسٌ غرَّهُم أملٌ ... فبادَرَهُم به الأَجَلُ

وأثْبَتَ فى صَحَائِفِهِم ... قَبِيحَ الفِعْلِ والزَّلل

فلا يستعتبون ولا ... لهم ملجأ ولا حيل

ندامى فى قبورهم ... وما يغنى وقد حصلوا[٥]

إخوانى، أين مَن كانت الألْسُن تهذى بهم لتهذيبهم؟، أضحت فُلْك الاختبار تجرى بهم لتجريبهم، وقام منادى الرحيل يغرى بهم لتغريبهم، فباتوا فى القبور لا أنيس لغريبهم.

---

(١) فى المدهش (ص٣٥٦) نسب الأبيات لمتمم بن نويرة.
(٢) الذَّرْفُ: صَبُّ الدَّمْع.
(٣) سفك الدمع: صبه.
(٤) ثوى: أقام بالمكان فهو موجود به.
(٥) اللِّوَى: ما التوى من الرمل. . والدكادك: جمع دكدك، وهو ما تكبَّس واستوى من الرمل.
(٦) الشجى: الحزن والهم.
(٧) مالك هنا هو مالك بن نويرة بن جمرة بن شداد اليربوعى التميمى (ت١٢هـ = ٦٣٤م)، وهو أخو الشاعر صاحب الأبيات، حيث اشتهر الشاعر برثاء أخيه مالك، انظر ترجمتهما فى الأعلام (٥/ ٢٦٧، ٢٧٤)
(٨) فى المدهش (ص٣٦٧) نسب الأبيات لأبى العتاهية، قال محققه: ولم أجد هذا الشعر فى ديوانه

شعر:

أعِدْ عَلَيَّ فكرك أسلافَ الأمَمِ	وقِفْ على ما فى القبور من الرِّمَمِ
ونادِهِم أين القوى منكم	القاهر؟ أم أينَ الضعيف المهتضم؟
تفاضلت أقدامهم فوق الثرى	ثم تساوى تحته كُلُّ قدم
قبرُ البخيلِ والكريمِ واحِدٌ	ما نَفَعَ البُخْلُ ولا ضرَّ الكرَم
واعجبْ لغافلٍ أمامه	هجوم ما لا يتقى إذا هجم
إذا تخطاه على عهدِ الصبَّا	أو الشباب لم يَفُتْهُ فى الهرمِ
أى خليلين أقاما أبدا	ما افترقا؟ وأىُّ حبلٍ ما انصرم؟

يا إخوانى: أين أهل الوداد الصافى فى التصافى؟، أين قصورهم الذين ضمنت الشعراء مدحِها فى القوافى؟، ذاقوا طعام الآمال فانتزع من أفواههم يوم المآل لذة النعم الخوافى، ولقوا فى قبورهم أمرا مُرًّا لا تبلغه أوصافى، وعوى فى ديارهم ذئب السقام بتكدير العوافى، فاعتَبِر بحالِهم فإنه يَكُفُّ كفَّ الهوى وهو الواعظ الكافى.

يروى أن ملك الموت إذا قبض روح الميت وقف على باب الدار؛ ينظر ماذا يفعل أهله، فيرى الناشرة شعرها، واللاطمة خدها، والداعية بويلها.

شعر:

أيهـا الباكـى على خِـلِّهِ	نَفْسَـكَ فابْكِهـا ولاتَبْكِـهِ
إنَّ الذى يبكى على غيرِهِ	يُوشِكُ أن يَسْلُكَ فى سِلْكِهِ

فيقول لهم: يا أهل الدار ما هذا الجزع الذى أراكم به؟، والله ما نقصتُ من رزقه، ولا قبضته دون أجله، فإن يكن هذا مِن أجْلى فإنى عبدٌ مأمور، وإن يكن تسخطا على ربكم فالسخطُ لا يرد المقدور، ألا وإنَّ لى فيكم عودة ثم عودة، حتى يرث الله الأرض ومَن عليها، والذى نفسى بيده لو ترون مكانه؛ وتسمعون صوته؛ لأذهلكم ذلك عن ميتكم، وشغلكم بأنفسكم!.

شعر:

ما دار دنيا للمقيم بدار وبها النفوس فريسة الأقدار
ما بين ليل عاكف ونهاره نفسان مرتشفان للأعمار
خطب[1] تضاءلت الخطوب لهوله أخطاره تعلو على الأخطار

أين الأبصار الحدائد، قبل إحضار الشدائد، أما استلبت القلائد من ترائب[2] الولائد؟، سبق الفراق بين فريق الفراقد[3]، يا موثقا فى حبائل الصائد، والله ما كذبك الرائد، يا أعمى البصيرة ولا قائد، كم تضرب فى حديد بارد.

[لا تؤثرن نارى على نورى]

قال إبراهيم بن بشار: كنت أماشى إبراهيم بن أدهم[4] نريد الكوفة إذ عدل فى بعض الطريق إلى قبر فترحم عليه وتأسف، فقلت: قبر من هذا؟، قال: هذا قبر حميد بن جابر[5]، أمير هذه المدائن كلها، قلت: فما كان شأنه؟ قال: سر ذات ليله بشيء من ملاهيه، ثم نام فرأى فى منامه رجلا قائما على رأسه بيده كتاب فتناوله منه وفضه، فإذا فيه مكتوب بالذهب: لا تؤثرن نارى على نورى، ولا يغرنك ما ملكت يداك فى دنياك، فإنه يصدك عما ادخرته لك فى عقباك، فإن الذى أنت فيه جسيم، لولا أنه وخيم، وهو ملك لولا أن بعده هلك، وهو فرح وسرور لولا أنه يعقبه هم وثبور[6]، فحذارك أن تستهويك هذه الزخارف فتلحقك بالهالكين، ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[7]، قال: فانتبه من منامه فزعا مرعوبا، وأقبل على ربه وخرج عن ملكه، وقصد هذا الجبل يتعبد فيه، فسمعت به، فأتيته فوجدته خير رجل، فكنت أختلف إليه حتى مات[8].

(١) الخطب: الأمر الشديد العظيم.
(٢) الترائب: موضع القلادة من الصدر.
(٣) الفرقد: ولد البقرة.
(٤) تقدمت ترجمته.
(٥) حميد بن جابر، الأمير الشامى، من عباد جبال أهل الشام، ترجم له ابن الجوزى فى صفة الصفوة (ت٨٨٦)
(٦) الثبور: الهلاك
(٧) آل عمران
(٨) الخبر فى صفة الصفوة (٤/ ٢٩٢)، فى ترجمة حميد بن جابر

مَن رأى بعينِ فِكْرِهِ معاولَ النقض[1] فى هذه الدار ناح على السكان، يا هذا مشكاة بدنك فى مَهابِّ قواصف الهلاك، وزجاجة نفسك فى معرض الانكسار، فاغتنم زمان الصفو فأيام الوصل قصار، كم يلبث قنديل الحياة على عواصف الآفات؟، كم يلبث مصباح الحياة على نكباء النكبات؟، أنفاس الحى خطاه إلى أجله، درجات الفضل كثيرة المراقى، وفى الأقدار ضعف، وفى الزمان قِصَر، فمتى تنال الغاية؟.

[خير الزاد ما يكفى للسفر]

قيل: وقف جماعة على راهب، فقالوا له: إنَّا سائلوك أفمجيبنا أنت؟، فقال: سلوا ولا تكثروا فإن الماضى من العمر ليس بِمُعَاد، والطالب حثيث فى طلبه وهو ذو اجتهاد، قالوا: أوْصِنَا، قال: تَزَوَّدُوا على قدر سفركم، فإن خير الزاد ما أبلغ المحل.

شعر:

يـا ساهياً لاهيـاً عـما يُرَادُ بـه آنَ الرحيلُ ومـا قـدَّمْـتَ مـن زادِ
ترجوا البقاء صحيحا سالما أبدا هيهات أنت غداً فيمن غدى غادى

[أتشترى الخسائس بالنفائس؟!]

إخوانى، الأيام صحائف الأعمار فخلدوها أحسن الأعمال، كم دارس عليك إن الرَّبع دارس، كم واعظ ناطق وآخر هامس، كم غمست حبيبا فى الثرى كفُّ رامس، كم طمس وجها صحيحا فى البلى طامس، فيا أيها الفَطِن اللبيب واليَقِظ القائس، أتشترى أَخَسَّ الخسائس بِأَنْفَسِ النفائس؟!، أتؤثر لذة لحظة تجنى حرب البسوس وداحس[2]، يا مُقترين من التقى بل يا مفالس، يا منهمكين فى الخطايا ما

---

(١) الهَدْم.

(٢) حرب البسوس: قامت حرب البسوس بين قبيلتى بكر وتغلب ابنى وائل بن هنب، وهما من القبائل العدنانية، وكان يتزعمها وائل بن ربيعة بن الحارث المعروف بكليب، وهو من قبيلة تغلب، وسبب هذه الحرب أن كليبا كان له حِمًى يرعى فيه ولا يسمح لغيره بالرعى فيه، وذات يوم وجد ناقة غريبة فقتلها، وكانت الناقة لخالة جساس بن مرة شقيق زوجة كليب وابن عمه. وقد استمرت هذه الحرب نحو ٤٠ عاما، انظر تفصيلها فى الكامل لابن الأثير (١/ ٣١٢) فما بعدها.

أما داحس والغبراء: فقد استمرت هى الأخرى نحو ٤٠ عاماً بين قبيلتى عبس وذبيان، وسبب تسميتها إلى فرسين أصيلين يحملان هذا الاسم، وكان سباقهما سبباً فى قيام هذه الحرب.

انظر: ابن الأثير (١/ ٣٤٣) فما بعدها.

تنفع الملابس، اشتروا أنفسكم عن الذنوب تشتروا لها السَّنَادِس.

[ما عُذركم بين يدى الله؟]

قال حبيب العابد[1]: دخلت البصرة فإذا أسواقها مغلقة، وسككها خالية، فقلت: يا أهل البصرة أعندكم عيد لا أعرفه؟، قالوا: لا، ولكن الحسن بن أبى الحسن البصرى[2] فى الجامع يعظ الناس، قال حبيب العابد: فبادرت إلى مجلسه فوجدته جالسا على نشز من الأرض مرتفع وهو يقول: أيها الناس استعدوا للرحيل فلم يبق من الدنيا إلا القليل، وخذوا أهبة التحويل، فليس إلى البقاء من سبيل، أما علمتم أنكم على أسِرَّةِ المنايا تُحملون؟، وعلى دَيَّان يوم الدين تُعرضون؟، أمركم بالطاعة فما أطعتم، ونهاكم عن المعصية فما انتهيتم، وخَوَّفَكُم فما خفتم ولا ارعويتم[3]، وشوَّقكم إلى الجنة فما اشتقتم ولا اشتهيتم، فيا ذا الشيبة المؤذنة باقتراب الأجل ما انتظارك؟، ويا ذا الشبيبة القادرة على اكتساب العمل ما اعتذارك؟، ويا أيها المطيع لغيه وهواه، المضيع فى حظه دنياه من أخراه، المقيم على ذنوبه وخطاياه، ليت شعرى! ما عذركم إذا أوقفتم بين يديه؟، وما حجتكم إذا قدمتم عليه؟. لقد ضَلَّ سعيكم، وخاب قَصْدُكم، فاستغفروا الله العظيم لى ولكم.

شعر:

قل لمن فاخر بالدنيا وحَامَى ... قَتَلَتْ قبلك ساما ثم حاما[4]

ندفن الخل وما فى دفننا ... بعده شك ولكن نتعامى

إن قدامك يوماً لو به ... هُدِّدَت شمس الضحى صارت ظلاما

فانتبه مِن رقدة النوم وقُم ... وانْفِ عن عين تماديك المناما

---

(١) حبيب أبو محمد الفارسى، العابد الزاهد، كان مجاب الدعوة، سمع الحسن البصرى يعظ الناس فوقعت الموعظة من قلبه فتنسك، انظر أخباره فى الحلية (٦/١٤٩ ـ ١٥٥)، صفة الصفوة (ت ٥٣٦).

(٢) الحسن البصرى، تقدمت ترجمته

(٣) ارعوى ارتدع عما هو فيه

(٤) سام وحام من أبناء نوح عليه السلام

[أما سمعتم كيف نادى المُنَادُون؟]

إخوانى، لو ذكرتم أنكم تبادون، ما كنتم إلى المعاصى تبادون، لقد صوت فيكم الحادون، وما كأنكم للخير ترادون، واعجبا تصادون المواعظ ولا تصادون، إلى متى تراوحون الذنوب وتغادون؟، يا مقيمون وهم حقا غادون، أتعادون من يقول إنكم تعادون؟، أما سمعتم كيف نادى المنادون؟، كل شىء دون المنى دون، الدهر خطيب كافٍ، والفكر طبيب شافٍ.

شعر:

أرى الدهر أغنى خَطْبُهُ عن خِطَابِهِ	بوعظ شفا ألبابه بِلُبَابِهِ
هيهات لم تسلم حلاوة شهده	أصاب إليه من مرارة صابه
مناد أمانيه تَغرُّ وإنما	عواقِبُهُ محفوفةٌ بعقابه
ألم تر مَن سَاسَ الممالك قادرا	وسارت ملوكُ الأرضِ تحتَ رِكَابِهِ
ودانت له الدُّنيا وكادت تحله	على شهبا لولا خمود شهابه
لقد أسلمته حِصِنِه وحصونه	غداة غدا عن كَسْبِهِ واكتسابه
فلا فضةٌ ألجته عُندَ انفضَاضه	ولا ذَهَبٌ أغناه عِنْدَ ذِهَابِهِ
سلا شخصه وُرَّاثُه بِتُرَاثِه	وأفرده أترابه بِتُرَابِهِ

من عرف الستين أنكر نفسه، من بلغ السبعين اختلفت إليه رسل المنية، يوسف العقل ينظر إلى العواقب، وزليخا[1] الهوى تتلمح العاجل.

قيل: أن امرأة جاءت إلى رجل من الصالحين فقالت له: أيها العبد الصالح، هل لك فى الزواج؟، فقال لها: وما تريدين منى؟ قالت: لا شىء غير خدمتك، أصب الماء على يديك إذا توضأت، وأصنعُ لك طعامك، وأغسل ثيابك، ليكون لى ذلك ذخيرة عند الله عز وجل، فقال لها: وأنا الآخر أشترط عليك أن لا تضاجعينى[2]، فقالت: لكَ ذلك، فتزوج بها، قال: فلما كان الليل قام إلى

(١) امرأة العزيز.

(٢) مثل هذا مخالف للشرع.

محرابه فصلى ما قَدَّره الله له، ثم أخذ مضجعه ونام، فقامت المرأة ونزعت ثيابها ودخلت معه فى فراشه، فلما أحس بها استيقظ وقال لها: أين الشرط الذى شرطناه بيننا؟، فقالت: يا سيدى كل شرط ليس فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله ﷺ فهو باطل، ثم إنها ألصقت جسدها بجسده ثم قامت عنه، وقالت: والله ما جئتك لشهوة عرضت؛ ولا للذة خطرت؛ وإنما قصدت أن يمس بدنى بدنك؛ ليكون لى ذلك وقاء من النار.

شعر:

إنْ تَشْقَ عينى بهم فَقَدْ سَعَدَتْ	عين رسولى وفُزْتُ بالنظرِ
فكلما جاءنى رسولُهم	رَدَدْتُ شوقاً فى طرفه نظرى
رأيتُ فى طرفه محاسنهم	قد أثَّرت فيه أحْسَنَ الأثرِ
خذ مقلتى يا رسول عارية	فانظر بها واحتكم على بصرى

الفصل العشرون

يا من غرَّهُ امتداد الأمل وطوله، وطمع فى البقاء وقد دنا رحيله، اسمع وافهم ما سأذكره وأقوله، قال الله جل جلاله وصدق قيله، فيما ورد على تنبيه تنزيله ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾(١).

[حُسْنُ الظَّنِّ بالله]

يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه: «أتدرون كيف يحاسب الله أهل التوحيد»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ينادى مناد من قِبَل العرش فلا يسمع أحد ذلك الصوت إلا وتضطرب فرائصه، فتقول الملائكة لذلك الشخص: أنت المطلوب، هلم إلى العرض على خالق السموات والأرض، قال: فتشخص الخلق بأبصارهم تجاه العرش، ويوقف ذلك الشخص بين يدى الله تعالى فيلقى الله تعالى عليه من نوره حتى يستره عن المخلوقين، ويقول له: عبدى أما ذكرت موقفك بين يدىّ؟، فيقول: بلى، فيقول الله عز وجل: عبدى أما سمعت بنقمتى وعذابى لمن عصانى؟، فيقول: بلى، فيقول الله عز وجل: فيا عبدى لم عصيتنى؟، فيقول: يا رب

(١) التوبة: ١٠٥.

قد كان ذلك، فيقول الله عز وجل: يا عبدى فما ظنك اليوم بى؟ فيقول: يارب ظنى بك أن تعفو عنى، فيقول الله عز وجل: تحققت أن أعفو عنك؟، فيقول: نعم يارب، لأنك رأيتنى فى دار الدنيا على المعصية فسترتها علىّ، فيقول الله عز وجل: قد عفوت عنك، وغفرت لك، وحققت ظنك بى، خذ كتابك بيمينك فما كان من حسنة فقد قبلتها منك، ولك عشر أمثالها، وما كان من سيئة قد غفرتها لك، وأنا الجواد الكريم».

[سَهْمُ الموت صائب]

يا معاشر الشباب، انتهبوا القوى فى التقوى، ولا تغرنكم السلامة فمع الخواطىء سهم صائب، الشباب باكورة الحياة، والشيب رداء الردَى؛ إذا قرع المرء باب الكهولة فقد استأذن على البلى.

كان بعض الأشياخ[1] يقول: إلهى، من عادة الملوك إذا كبر عندهم مملوك أعتقوه، وقد كبرت فاعتقنى.

شعر:

لما أتونا والشيبُ شافعهم ... وقد توالى عليهم المهل

قلنا لتلك الصحائف انقلبى ... بِيضاً فإن الشيوخ قد عقلُوا

وقيل: يؤتى بشيخ يوم القيامة لم يعمل حسنة قط، فيقول الله عز وجل له: ما الذى أعددت للقائى؟، فيقول الشيخ: حُسْن ظنى بك يارب، فيقول الله عز وجل: أنا عند حسن ظن عبدى بى، ثم يقول الله عز وجل: يا ملائكتى وعزتى وجلالى لم يحسن ظنه بى، ولكن أستحى أن أُكَذِّب ذو شيبة شابت فى الإسلام، وأنا ذو رحمة واسعة، اذهبوا به إلى الجنة.

شعر:

وإذا الكريم أتيته بخديعة ... ورأيته فيما أردت يسارعُ

فاعلم بأنكَ لم تخادع جاهلا ... لكنه كرُم الكريم يخادعُ

(١) هو أبو عبيدة الخواص كما فى صفة الصفوة (٤/ ٢٣١) ترجمة (٨٠٠)، وأيضا فى كتاب الأرج لابن الجوزى (ق٤/أ) ـ مخطوط عندى تصويره ـ.

يا قومنا، الفوائد فوائت، مَن زرع بذر العمل فى أرجاء الرجاء ولم تقع عليه شمس الحذر جاءت ثماره فجة[1]، الجاهل ينام على فراش الأمن فيكثر نومه، فتكثر أحلام أمانيه، والعالم يضطجع على مهاد الخوف، وحارس اليقظة يوقظه، ومن فهم معنى الجود علم عزة النجاة، ما ترى عين المحب إلا المحبوب، «فبى يسمع وبى يبصر»[2].

شعر:

أنتَ عينُ العينِ إذْ نَظَرَتْ	ولِسَانُ الذِّكْرِ إنْ ذَكَرَا
انت سَمْعِى إن سَمِعْت به	أنتَ سِرُّ السِّرِّ إنْ خَطَرَا
ما بقى لى قطُ جارحة	كلها يا قاتلى أُسِرَا

يا هذا، إذا تمكنت قدم المريد وطاب له ارتضاع ثدى الوصل نزل ضيف ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾[3].

إنّ هواكَ الذى بِقَلْبى	صَيَّرَنى سامعاً مطيعاً
اخذتَ قلبى وغمض عينى	سلبتنى القلب والهجوعا
فذر فؤادى وخذ رقادى	فقال: لا بل هما جميعا

قال سعيد المقدسى وكان من الأولياء: خرجتِ من المسجد الأقصى طالبا للسياحة، فلما صرت بين الجبال رأيت امرأة وعليها ثوب من شعر وخمار من صوف، فظننت أنها راهبة، فقلت لها: أنت مسلمة؟ قالت: يا سعيد ما هذا الكلام؟، فقلت لها: مَن عَرَّفك اسمى؟، قالت: الذى حجب عنك حقيقة أمرى، فعلمت أنها ولية لله تعالى، فقلت لها: ما الذى أخرجك إلى هذا المكان؟، قالت: خوف القطيعة والأحزان، ثم رفعت طرفها إلى السماء وقالت:

يا سرورى إذا عدمتُ سُرورى	أنت فى سر خاطرى وضـمـيرى
أنتَ أنَت الرجاءُ جُدْ لى بعفوٍ	وأجِرنْى مـن حر نـار السـير

---

(١) نيئة ولم تنضج.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) البقرة: ١٥٥

ثم قالت: لا اعتراض عليك، اللهم إن كان عذابى من رضاك فَعَذِّب، وسقطت إلى الأرض، فحركتها فإذا هى قد ماتت، رحمة الله تعالى عليها.

شعر:

ظن عداة الخيف أن قد سلما	لما رمى بينهما وما أجرى دما
فكاد يستقرى حشاه فإذا	فؤاده من بينها قد عدما
لم يَدْرِ مِن أين يصيب قلبه	وإنما الرامى دار كيف رمى

واأسفا ذهب أهل التحقيق، وبقى بنيات الطريق، وخلت البقاع من الأحباب، وتبدلت العمارة بالخراب.

قيل لعون بن عبد الله[1]: مالك لا تجلس مع إخوانك؟، فقال: أخَافَ بعضُنا بعضاً فنتباغض.

يا معاشر العلماء قد كتبتم ودرستم، ثم إن طلبتمَ العلم فى بيت العمل فلستم، ثم لو ناقشكم الإخلاص لأفلستم.

[مَن أطاع مولاه أعطاه ما تمناه]

قال أبو سليمان الدارانى[2]: سمعت أبا الربيع يقول: كنت مقيما ببيت المقدس أجمع المباجات[3] من الجبال، وكان لى إخوان بالرملة[4] أزورهم فى كل عام مرتين، فلما كان فى بعض السنين خرجت لزيارتهم، فلما صرت بين الجبال والأودية على ثلاثة أميال من بيت المقدس سمعت صوتا محزونا وهو يقول: ما أبعد الطريق عَلى مَن لم تكن أنت دليله، وأوحشها على مَن لم تكن أنت أنيسه،

---

(١) عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلى (ت ١١٥ هـ= ٧٣٣م)، اشتهر بالعبادة والقراءة، وثقه أحمد وغيره، انظر ترجمته فى تهذيب (٨/ ١٧١ ـ ٣١٠)، الأعلام (٥/٩٨)، الحلية (٤/ ٢٤٠)، صفة الصفوة (ت ٤١٩).

(٢) عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسى المذحجى (ت ٢١٥هـ ٨٣٠م)، الزاهد المشهور، من أهل داريّا بغوطة دمشق، له أخبار كثيرة فى الزهد.

انظر الأعلام (٣/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤)، الحلية (٩/ ٢٥٤)، صفة الصفوة (٧٥٧)، وفيات الأعيان (١/ ٢٧٦)، تاريخ بغداد (١٠/ ٢٤٨).

(٣) لعل المراد أنه يحتطب ويبيع ذلك ليقتات بثمنه.

(٤) بلدة بفلسطين.

فقفوت الصوت واتبعت أثره، وإذا أنا بجارية عليها مدرعة من شعر وخمار من صوف، وفى رجليها نعلين من ليف، فقلت لها: سبحان الله مثلك فى هذا المكان بغير محرم! فقالت: ما أحب أن أشتغل بمن يشغلنى عن طاعة ربى، قال: فَرَقَّ لها قلبى، وكان معى دريهمات، فقسمتها شطرين، وناولتها أحدهما، فلما رأت لمعان الدارهم، تبسمت وقالت: يا أبا الربيع من أين لك هذه الدارهم؟، قلت لها: إنى أجمع المباجات من جبال بيت المقدس وأبيعها فى المدينة، فقالت: كسب حلال لرجل ضعيف، فقلت لها: كيف تصفينى بالضعف وأنا قوى البدن؟ قالت: أنت ضعيف اليقين لا ضعيف البدن، قلت: وكيف السبيل إلى القوة؟ قالت: تضع ميزان القسط عل جوارحك، حتى يخرج منها كل شىء لغير الله، ويبقى القلب صافيا، ويطلع الحق عليه فلا يرى فيه مذكورا ولا محبوبا سواه، فإذا كنت كذلك نوديت: قف بالباب فقد كتبناك من الأحباب، وأمرنا الخزان لا يعصون لك أمرا، قلت لها: فما بيان ذلك؟، فقبضت بكفها فى الهواء، ثم فتحتها ووضعت فى كفى دنانير، فقلت: سبحان الله ما أحسنه من كف، فسمعت قائلا يقول: من أطاع مولاه أعطاه ما تمناه، ثم قالت: يكفيك أم أزيدك؟ فقلت لها: ومن يشبع من عطاء هو من عند الله؟ فضربت بكفها الأرض، ثم فتحتها، فإذا هى مملوءة دنانير، ثم قالت: يا أبا الربيع فى ماذا جئت من بيت المقدس؟ قلت: فى حاجة عرضت لى بالرملة، فقالت: هل سألت قاضى الحاجات أن يقضيها لك وأنت مقيم ببيت المقدس؟، قلت: ومَن لى بذلك؟، فعند ذلك رفعت طرفها إلى السماء وقالت: يا مَن البعيد عليه قريب قَرِّب له البعيد، ثم قالت لى: ارفع رأسك فهذه حيطان الرملة، فقلت: سبحان الله بينى وبين الرملة ثمانية عشر ميلا للمُجدِّ فى السير وأنا الساعة خرجت من بيت المقدس؟!، قالت: وما يكون هذا فى جنب قدرة الله تعالى، ثم ولَّت، فتبعتها، فقالت: إليك عنى لا تشغلنى، قلت لها: فهل من موعد؟، قالت: الموعد بينى وبينك الموقف تحت لواء محمد ﷺ.

شعر:

هذى ديارهم وهذا ماؤهـــــم ... فاحْبِسْ و رُدّ وشرقت إن لم تسقنى

رحل والله أولئك السادة، وبقى قرنا المهاد والوسادة، أولئك الباكون إذا ضحك الغافلون، والتاركون إذا أحب الجاهلون، والساهرون إذا اضطجع

النائمون، قطعوا مفاوز الدنيا وعقبات الآخرة، فوجوههم بالنعيم ناضرة، إلى ربها ناظرة، إذا تُليت أوصاف محبوبهم قاموا إليه، وإذا دعاهم داعى الشوق أجابوا مسرعين.

[من صفات الجنة وأهلها]

قيل: وعظ ذو النون المصرى[1] يوما، فأتت إليه امرأة يقال لها ريحانة، فقالت له: يا مصرى صف لى الجنة وما أعد الله تعالى فيها لأوليائه، قال: يا هذه إن الجنة ما لا تحيط به معرفة عارف، ولا يأتى عليه وصف واصف، لكن سأذكر لك بعض ما أعد الله تعالى فيها لولى من أولياء الله عز وجل، ثم قال ذو النون المصرى: إن فى الجنة مرجا أفيح[2] من الفضة البيضاء، فى وسط المرج قصر من الذهب الأحمر، فى وسط القصر قبة من الياقوت الأحمر، فى وسط القبة سرير من الذهب مرَصع بالجوهر، يخرج من تحت السرير أربعة أنهار، نهر من ماءٍ غير آسن[3]، ونهر من لبن لم يتغير طعمه، ونهر من خمر لذة للشاربين، ونهر من عسل مصفى، وعلى السرير فُرُش من السندس والإستبرق، وعلى الفرش جارية لو أطلعت معصمها فى لية مظلمة لأضاءت الدنيا على مَن فيها، وإلى جانبها غلام أبيض أمرد أغيد، له طرف أحور، وخد أزهر، ووجه أنور، ودلال مليح، ولسان فصيح على ذول آدم، وحُسْن يوسف، وسن عيسى، وخُلُق محمد ﷺ، فيا حسنه فى خلوته مع كعوب لَعُوب، وقد هبَّت الأرياح، وعاشت الأرواح، وتضاعف الحبور[4]، ودوام السرور، واطمأنوا فى جوار الغفور، قال: فلما سمعت ريحانة ما وصفه ذو النون قالت: يا مصرى يكفيك هذا، فقد قتلتنى، ثم شهقت شهقة خرجت فيها روحها.

شعر:

أبى الحبُ أن يَخفى وقد كتمته	فأصبح عندى قد أناخ وَطَنَّبا[5]
فلما أسرى عزف النسيم بذكركم	سرت نحوه روحى إلى معهد الصبا

---

(١) تقدمت ترجمته.

(٢) المَرْجُ: الفضاء، والأرض الواسعة ....، والأَفْيَحُ: كل موضع واسع.

(٣) غير متغير الرائحة.

(٤) الحبور: السرور.

(٥) طنَّب بالمكان: أقام به.

الفصل الحادى والعشرون

[لك فى نفسك عبرة]

اسمع: يا من بين يديه الأهوال والعجائب، وقديماً أُعدّت له النوائب، أما سهم المصائب كل يوم صائب؟، أحاضر تحمل من عتبنا؟، كلا! بل أنت غائب، أين الزاد يا مسافر؟، أين درع التقوى يا سافر، لقد أنشب الموتُ فيك الأظافر، ولا شك أنه الظافر، هذه النبل فأين المغافر[1]، يا مبارزاً بالقبيح أمؤمن أنت أم كافر؟.

شعر:

فكَمْ مِنْ عِبْرَةٍ أصبَحْتَ فيها ... يلينُ لها الحـديدُ وأنت قاسى

إلـى كَـمْ والمعادُ إلى قريبٍ ... تُذَكَّر بالمعـاد وأنـت نـاسى؟

إن قمت سدلتَ من ثياب كِبْرِك، وإن أقمت سكَرْتَ من شراب خمرك، تقف فى الصلاة بغير خضوع، وتقرأ آية التخويف وما ثَمَّ خشوع، وتتملق الدنيا بقلبك وتعتذر بلفظ مصنوع، وتفرح بدخول العام ولعلك لا تبلغ أسبوع.

شعر:

ألا أيها الفانى وقد حانَ حينُهُ ... أتطمع أن تبقىَ ولست هناكا

تسمَّعْ ودَعْ مَن أفْسَدَ الغىُّ سَمْعَهُ ... كأنى بداعٍ قد أتى فدعاكا

أراكَ وما تنفَك تَهْدى جنازة ... وتُوشِكُ أن تُهْدَى هديت كذاكا

ستَمْضى ويبقى ما تَرَاهُ كَمَا تَرَى ... وينْسَاكَ مَن خَلَّفْتَهُ هو ذاكا

تَمُوت كما ماتَ الذينَ نسيتهم ... وتُنْسَى، ويهوى الحىُّ بعد هواكا[2]

[إلى كم هذا الهجوع؟]

اسمع يا نائما عن صلاته إلى كم هذا الهجوع؟، كيف تبقى مع كسر الأصول

---

(١) المغْفَر: رداء يرتديه المحارب يتقى به السهام من أن تصيب رأسه.

(٢) فى المدهش (ص. ٣٠) نسب الأبيات لأبى العتاهية، قال محققه: انظر ديوان شعره (٢٦٥ ـ ٢٦٦).

ضعاف الفروع؟، إصرارك كالصحيحين وإقلاعك حديث موضوع، يا هذا إن كان قد أصابك داءُ داود، فَنُحْ نَوْحَ نُوحٍ تحيا بحياةِ يحيى.

[حكاية تائب إلى الله تعالى]

قال أبان[1] عفا الله تعالى عنه: خرجتُ يومًا من عند أنس بن مالك[2] نتمشى فلما كنت بسوق البصرة إذا أنا بأربعة من الرجال يحملون جنازة فقلت: واعجبا أسواق البصرة عامرة وطرقها مشتكة[3] بالناس، ولم يصحب هذه الجنازة غيرُ أربعة من الرجال!!!؛ لأكونن خامسهم، فسرت معهم حتى أتوا إلى الجبانة، فقلت لهم: يا قوم أيكم وليٌّ هذا الميت فَلْيُصَلِّ عليه؟!؛ فقالوا: كلنا فيه سواء، فتقدم أنت فَصَلِّ عليه، فصليت عليه، وواريناه التراب، فقلت لهم: بالله عليكم ألا ما صدقتموني بخبر هذا الميت، فقالوا: ما منا من يعلم له خيراً، غير أن هذه المرأة اكترتنا[4] لحمله، فالتفتُّ إليها، وإذا أنا بامرأة مقبلة، فجاءت حتى جلست عند القبر ساعة، ثم قامت وهي تضحك، فقلت لها: يالله العجب امرأة تضحك على قبر ميتها!!، ثم قلت لها: بالله عليك ألا ما أخبرتيني مم ضحكتِ؟، فقالت لي: يا هذا ما لك وما لا يعنيك؟، قلت لها: أخبريني فإني أبان خادم أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، فقالت: يا أبان لو لم تكن ذاك ما أخبرتك بحديث أبدا، اعلم أن هذا الميت ولدي، وكان مسرفا على نفسه، فلما كان البارحة اشتد به الأمر فنادى: يا أماه؛ فأجبته. فقال: سألتك بالله إلا ما فعلتي بي ما آمرك به، فقلت له: قُلْ ما بدا لك، فقال: إذا أنا مت فلا تُعْلِمي[5] بي أحد جيراني، وخذي خاتمي هذا وانقشي عليه: لا إله إلا الله محمد رسول الله، واجعليه بين جلدي وكفني، فإذا وُضِعتُ في قبري فضعي يدك على ضفيرة شعرك وارفعيها إلى الله واضرعي إليه أن يغفر لي، وقولي: إلهي قد رضيت عنه فارْضَ عنه، ثم قال:

---

(١) أبان بن صالح بن عمير بن عبد القرشي مولاهم، وثقة الأئمة، ووهم ابن حزم فجهله، انظر: التقريب (١/ ٣٠).

(٢) أنس بن مالك، الصحابي، الأنصاري، خادم النبي ﷺ، مناقبه أكثر من أن تذكر، انظر: العبر (١/ ١٠٧)، مجمع الزوائد (٩/ ٣٢٥)، طبقات ابن سعد (٧/ ١٧)، التاريخ الكبير (٢/ ٢٧)، الاستيعاب (١٠٨)، التذكرة (١/ ٤٢)، أسد الغابة (١/ ١٥١)، تهذيب (١/ ٣٧٦)، شذرات الذهب (١/ ١٠٠)، صفة الصفوة (١٠٤).

(٣) ممتلئة بالناس. (٤) استأجرتنا. (٥) تخبري.

يا أماه قومى وضعى رجلك اليمنى على حر وجهى، وقُولى: هذا جزاء مَن عصى الله عز وجل، فقمت والله يا أبان ووضعت رجلى هذه المشئومة على حر وجهه، وجعلت أنادى: هذا جزاء من عصى الله عز وجل، فما رفعتها من على وجهه حتى مات، فاكتريت هؤلاء الأربعة فغسَّلوه وكفَّنوه وحملوه إلى قبره وواروه كما رأيت، فلما انصرفوا جعلت شعرى فى يدى كما قال، ورفعته إلى الله عز وجل وقلت: يا أرحم الراحمين يا أكرم الأكرمين، يا خير منزول به، قد علمت منا السر والعلن، واطَّلعت على ما ظهر وبطن، وقد توسل ولدى العاصى المذنب الخاطىء إليك برضا وائذته المسكينة الذليلة وقد رضيت عنه، فارْضَ عنه، فسمعتُ صوتا من داخل القبر يقول: انصرفى يا أماه فقد قدمت على رب كريم، وقد غفر لى ذنوبى، فهذا الذى أضحكنى. ثم ولَّت وهى مسرورة.

[اعملوا بما علمتم]

إخوانى: اعرفوا الدنيا وقد سلمتم، ثم اعملوا فيها بما علمتم، أما نفعكم التجارب؟، أما ترون الدنيا كيف تحارب؟، أما سيف الهلاك فى يد الضارب؟، تالله لقد جلا اليقين ظلام الغياهب.

شعر:

مَا بَالُنَا نَتَعَامَى عن مَصَائِرِنَا ... نَنْسَى بِغَفْلَتِنَا مَنْ لَيْسَ يَنْسَانا

نزداد حرصاً وهذا الدهر يَزْجُرنا ... كأن زاجرنا بالحرص أغرانا

أين الملوك وأبناء الملوك ومن ... كانت تخرُّ له الأذقانُ إذعانا؟

صاحت بهم حادثات الدهر فانقلبوا ... مُستبدلين من الأوطان أوطانا

خلوا مدائنَ كان العز مَفْرَشُهَا ... وأُسكِنُوا حُفَرًا غُبْرًا وقيعَانا

ياراكضا فى ميادين الهوى مرحا ... ورافلاً فى ثياب الغى نَشْوَانا

مضى الزمانُ وولَّى العمرُ فى لَعِبٍ ... يكَفيكَ ما قد مضى يكفيك ما كانا

يا هذا مَزِّق أملك فالعمر قصير، وحَقِّق عملك فالناقد بصير، وزِدْ زَادَ سَفَرِك فالطريقُ بعيد، وردد نظر فكرك فالحسابُ شديد، صح بالقلب لعله يرعوى، سَلِّمه إلى الرائض عساه يستوى.

قيل: أوحى الله عز وجل إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل: بعينى ما يتحمل المتحملون من أجلى، وما يُكابدون فى طلب مرضاتى، فكيف بهم إذا صاروا إلى جوارى؟، واستنزلتهم للجلوس عندى؟، وسفرت[1] لهم عن وجهى، أيظنون أنى أنسى لهم عملا؟، كيف؛ وأنا الجواد الكريم أجود على المولّين عنى، فكيف لا أجود على المقبلين علىَّ؟، ولو رأوا عبادى كيف أستوهبهم ممن عدوا عليه بالظلم فى دار الدنيا، ثم أوجب على نفسى لمن وهبهم ذلك النعيم المقيم؛ لَكَثُرَ تعجبهم من ذلك .

واعجبا!!، طار حلم حديث العذيب وأنتم وراء النهر.

يا هذا اخْلُ بنفسك فى بيت الفكر، واعذلها[2] فى الهوى فإن لم تَلِنْ فاخْرُجْ بها إلى عسكر المقابر، فإن لم ترعوى[3] فاضربها بسوط الجوع، واحبسها فى سجن العزلة فالمخالطة نهاية.

شعر:

سهر العيون لغير وَصْلِكَ باطلٌ ويُكاؤهن لغيرِ وصلِكَ ضائعُ

[من درجات العبادة]

يروى عن أويس القرنى[4] أنه قال: مررت فى بعض سياحتى براهب، فقلت له: يا راهب، ما أقل درجة يرقاها المريد!، قال: رَدُّ المظالم، وخفة الظهر من التِّبِعَات[5]؛ فإنه لا يصعد للعبد عمل وعليه تبعة أو مظلمة، ثم قال: سبحانك!، عجبا للخلائق كيف أرادوا بك بدلا؟، وعجبا للقلوب كيف استأنست بسواك!، إلهى نظرت فى محصول أمرى فلم أجد دليلا عليك إلا أنت، فلا أسأل غيرك، إلهى آنست أولياءَك بصرف هممهم إليك، وخصصتهم بكفاية التوكل عليك، فشاهدوك بضمائرهم باطلاعك على سرائرهم، إلهى فانقلنى من ضيق الوحشة

---

(١) كشَفْتُ. (٢) العذل: اللَّوم. (٣) ترتدع وتنزجر.

(٤) أويس بن عامر القرنى (ت٣٧ هـ = ٦٥٧م)، من بنى قرن بن ردمان، أحد النساك العباد المتقدمين، من سادات التابعين، أصله من اليمن، يسكن القفار والرمال، أدرك حياة النبى ﷺ ولم يره، كان مجاب الدعوة، انظر: صفة الصفوة (٣٩٨)، الحلية (٢/ ٧٩)، طبقات ابن سعد (٦/ ١١١)، الأعلام (٢/ ٣٢).

(٥) التَّبِعَة: ما فيه إثم.

منك إلى سعة الأنس بك.

شعر:

أجارتنا بالغور والركبُ متهم ... أيعلمُ خالٍ كيف بات المتيم؟

تناوءن يوم البين عنا وخَلَّفُوا ... قلوباً أبت أن تعرف الصبر عنهم[1]

كان عمر بن عبد العزيز[2] وفتح الموصلى[3] يبكيان الدم[4]، وقليل فى جنب ما نطق به لسان الوعيد.

[يوم لا ينفع البكاء]

قيل: إذا كان يوم القيامة، واستقر أهل الجنة فى الجنة، وأهل النار فى النار - أعاذنا الله تعالى منها -، نادى أهلُ النارِ: يا أهل الجنة، يا معشر الآباء والأمهات، والإخوة والأخوات، إنا أُخرجنا من الدنيا عطاشا، ودخلنا النار عطاشا، فأفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، فيقول لهم مالك[5]: كم تستغيثون فلا تغاثون، اخسئوا فإنكم ماكثون، قال: فعند ذلك يكون الدموع حتى تفنى، ثم يكون القيح حتى يفنى، فتقول لهم الزبانية: يا أشقياء تركتم البكاء فى الدار التى يُرْحَمُ فيها مَن بكى، وبكيتم فى دار لا ينفع فيها البكاء!.

شعر:

أتَتْرُكُ من تحبُ وأنتَ جارٌ ... وتطلبهَمْ وَقَدْ بَعُدَ المزارُ

وتبكى بعد نأيهم اشتياقا ... وتسأل فى المنازل أين ساروا

تركت سؤالهم وهم حضور ... وترجو أنْ تُخَبِّرْكَ الدِّيَارُ

فنفسك لُمْ ولا تَلُمِ الخطايا ... ومت كمداً فليس لك اعتذار

---

(1) فى المدهش (ص377) نسب الأبيات للمهيار، قال محققه وهى فى ديوانه ٣٠/ ٣٤٤ - ٣٤٧).

(2) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموى القرشى (٦١ - ١٠١هـ = ٦٨١ - ٧٢٠م) أبو حفص، الخليفة الصالح، والملك العادل، خامس الخلفاء الراشدين، مدة خلافته سنتان ونصف، وأخباره فى عدله وحسن سياسته وعدله كثيرة، انظر: الطبرى (٨/ ١٣٧)، مروج الذهب (٢/ ١٣١ - ١٣٧)، صفة الصفوة (١٧٢)، الحلية (٥/ ٢٥٣ - ٢٥٣)، شذرات الذهب (١/ ١١٩)، فوات الوفيات (٢/ ١٠٥) النجوم الزاهرة (١/ ٢٤٦)، الأعلام (٥/ ٥٠).

(3) فتح بن سعيد الموصلى أبو نصر (ت ٢٣٠هـ)، من أقران بشر الحافى وسرى السقطى، كبير الشأن فى باب الورع والمعاملات، انظر ترجمته فى صفة الصفوة (٧٢٤)، الحلية (٨/ ٢٩٢).

(4) انظر: صفة الصفوة (٤/ ١٦١ - ١٦٢)، طبقات الأولياء (ص٢٧٨ - ٢٧٩).

(5) خازن النار.

يا هذا، عاتب نفسك على تقصيرها، وحاسبها على تخليطها، حَدِّثْها بما ينفعها وأخبرها، وأشِر عليها بمصلحتها ودَبِّرها، وقل لها بلسان الزجر:

استَعِدِّى يا نفسُ للموتِ واسعى — لِنَجَاةٍ فالحازِمُ المستعدُ
قد علمنا بأنَّه لَيْسَ للحى — خلودٌ ولا من الموتِ بدُ
أىُّ ملك فى الارض وأىُّ حظ — لامرئٍ حَظُّهُ من الأرضِ لَحْدُ
كيف .لامرئٍ لذاذةَ عيشٍ — وعليه الأنفاس فيها تُعَدُّ

يا هذا، إذا خلى الفكر باليقين ثارت عجاجة[1] الدمع، فإذا أقرح الحزنُ القلبَ استحالت الدموع دما.

[مأتم الأسى]

شعر:

ولما دَنَا التوديُع ممن أحبُهُ — ولم يبق إلا ساعة تتغنمُ
بكيت على الوادى فحرمت ماؤهُ — وكيف يحلُ الماءُ وأكثره دمُ؟[2]

يا منقطعين عن الأحباب تعالوا نمشى رُفقة، فمجمعنا مأتم الأسى، وموعدنا مقابر الأسف.

شعر:

والذى بالبين والبعد بلانى — ما تَذَكَّرت الحمى إلاّ شَجَانى
حبذا أهل الحمى من ساكنٍ — شَفَّنى الشوقُ إليهم وبَرَانى
كلما رُمْتُ سَلْواً عنهمُ — جَذَبَ الشوقُ إليهم بِعنَانى
أحسد الطيرَ إذا طارت إلى — أرضِهم أو أقلَعَتْ للطيرانِ
أتمنى أننى أصحبها — نحوهم لو أننى أُعطَى الأمانى

(١) العَجَّاج: كثير الماء.

(٢) الأبيات بنحو هذا فى المدهش (ص٣٧٧) ونسبها للمهيار، قال محققه، وهى فى ديوانه (٣/ ٣٤٤ ـ ٣٤٧).

لا تزيدونى غراما بعدكم	حَلَّ بى من بعدكم ما قد كفانى
ذهب العمر ولم أَحْظَ بكم	وتقضى فى تمنيكم زمانى
يا خليلى احفظا عهدى الذى	كنتما قبل النوى عاهدتمانى
واذكرانى مثل ذِكْرِى لكُما	فمن الإنصاف أن لا تَنْسَيَانى
وَاسْألا مَن أنا أهواهُ على	أىِّ جُرْمٍ صَدَّ عَنِّى وجَفَانِى

[سفر الشوق]

يا إخوانى: لما انقشع غيم الغفلة عن عيون أهل اليقين، لاح لهم هلال الهدى فى صحراء اليقظة، فبيتوا نية الصوم، وأنضوا[1] رواحل الأبدان فى سفر الشوق حبا لتعجيل اللقاء، فكم طووا منزلا على الظمأ حتى كَلَّ كُلُّ المطى.

شعر:

نَفَّرَهَا عن وِرْدِهَا بحــاجــر ... شوقٌ يســوقُ الماءَ فى المحاجرِ[2]

[وهبتك لله عز وجل]

قال الدينورى: قال صبى لوالدته: يا أماه هبينى لله ليسقط عنى فرضك، وأشتغل بعبادة ربى، فقالت له: يا ولدى أى مقام بلغت من مقامات الرجال؟، فقال: لا شىء، فقالت: أما تستحى أن تطلب منى أن أهبك لله وأنت لا تصلح، وإنما يُهْدَى للملوك ما جَلَّ قدره وعظم خطره؟، قال: فعند ذلك خجل الصبى من كلامها، ودخل منزلها، وأقام يجتهد عشرين سنة، ثم خرج وقد أفاضت عليه الطاعة أنوار القبول، فَسَلَّم على والدته، فَرَدَّت عليه السلام، وقالت له: يا ولدى إنه قد ظهر عليك آثار العبادة، وأنا أرجو من الله الزيادة، اذهب فقد وهبتك لله عز وجل، قال: فخرج ولدها وغاب عنها عشرين سنة، وهو يسيح فى البرية وهو يعبد الله عز وجل، ثم عاد إلى أمه فقرع عليها الباب، فقالت: من هذا؟ قال: ولدك، فقالت: يا ولدى إنى قد علم الله إنى أحبك غير أنى وهبتك لله تعالى،

---

(١) أنضى البعير: أهزله وأتعبه.

(٢) البيت بنحوه فى المدهش (ص٣٨٢) ونسبه للمهيار، قال محققه: وهو فى ديوانه ضمن قصيدة (٢/ ٦٣ - ٦٦).

وأنا أكره أن أهب لله شيئا وأرجع فيه، اذْهَبْ إلى حال سبيلك؛ فوالله لا رأيتك بعد هذا اليوم إلا بين يديه، قال: فعند ذلك رجع وكان ذلك آخر عهدها به.

شعر:

يا نسيمَ الشَّمالِ بالله بَلِّغْ ما يقولُ المتيَّمُ المستَهامُ
قُل لأحبابِنا لديكم محبٌّ ليس يسلو ومقلة لا تنامُ
كلُّ أنسٍ ولذةٍ وسرورٍ قبل لِقَائِكم عَلَىَّ حَرَامُ

[أهلاً بمن فَرَّ إلىَّ]

وقال بعض الصالحين: كنت أمشى فى شوارع البصرة، وإذا أنا برجل يحمل قربَةً على ظهره، فبينما هو يمشى وإذا بقارىء يقرأ قوله تعالى: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[1]؛ فلما سمعه رمى بالقربة عن ظهره، وقال: نعم على الرأس والعين، ثم بكى بكاءً شديداً، ورفع طرفه إلى السماء وقال: يا سيدى هذا حملى الذى قدرت عليه قد وضعته، وهذا فراغى الذى وصلت إليه فعلته، والأمر بعد ذلك إليك فيما أرَدْتَه، لا ما أرَدْتُه.. ثم إنه ترك القربة وولَّى هائما على وجهه فى البرية بعد ذلك، قال: فلما كان فى بعض الليالى رأيته فى النوم، فقلت له: ما فعل الله بك؟، قال: لما قبضنى أوقفنى بين يديه، وقال لى: أهلا بمن فَرَّ إلىَّ، يا عبدى أزِلْ وحشة الخوف عنك، فقد قبلتك على ما كان منك.

واشوقاً إلى تلك الأشباح، سلام الله على تلك الأرواح.

شعر:

وبالحمى منازلٌ تَعَوَّدَتْ منِّى إذا شَارَفْتُهَا التسليما
وقفتُ منها سالماً وَقْتَ الضُّحَى ورُحْتُ مِن وَجْدٍ بها سليما[2]
يا نفحةَ الشَّمَالِ مِنِ تلقائهم رُدِّى على ذلك التسليما

---

(١) الذاريات: ٥٠.

(٢) السليم: اللديغ، والمريض.

الفصل الثانى والعشرون

[ذكر الموت شغل عن الحياة]

اسمع يا مشغولا بتلفيق ماله عن تحقيق أعماله، من خطر ذكر الموت بباله قنع بالبلغ ولم يباله.

شعر:

ما لك للحادثات نَهْبٌ أو للذى حازَهُ وُرَّاثه

أو لك أن تتخذه ذُخرًا فلا كُنتَ أعجزَ الثلاثة

لابد والله من العبور على قنطرة القبور تسفى عليك الصبا والدبور، آه من طول الثبور بعد طيب الحبور[1]، فى موطن لا ينفع فيه صبر الصُّبور، ويندم على عثرته العثور، ويفترش الدثور حتى يثور، أين المتقلبون فى حجور الفجور؟، أين الظباء الكُنّس[2] والأتراب الحور؟، كُنَّ يُزَيّنَّ بِدُرِّ البحور بِدْءَ النحور، غرق الكل فى يم من التلف زَخُور، واستوى الوضيع والفخور، تحت التراب والصخور، ولا فرق بين ذوات الإماء وذوات الخدور، فى ذلك المهبط الحدور، لقد بان للكل أن الدنيا غرور، وعرفوا فى المصير شرور السرور، وتيقنوا أن تزوير الأمل للخلد غرور، تنافسوا على مساكنة سعة القصور، فأسكنوا بعد ذلك فى ضيق القبور، وهذا هو المصير ولو عمرتم عمر النسور، فإذا انقضت تلك العصور، ونُفخ فى الصور، وخرجت أطيار الأرواح من أعجب الوكور، وباتت الأرض تموج والسماء تمور، ولقى الكفور ناراً تلتهب وتفور، وانزعج الخليل والكليم فَمَن بشر ومن طيفور؟[3].

يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا انقضى الأجل المعدود أمر الجبار جل جلاله إسرافيل عليه السلام أن ينفخ فى الصور نفخة الصعق، فينفخ فيه على حين غفلة من الناس، فمنهم من هو فى حرثه، ومنهم من هو فى سوقه، ومنهم من هو فى لهوه ﴿لا تَأْتِيكُمْ إلاَّ بَغْتَةً﴾[4] فلا يبقى شىء فيه روح إلا صُعق وخمد، فتبقى

---

(١) الحبور: السرور. (٢) كَنَسَ الظبى: تَغَيَّب واستتر فى كناسه، وهو الموضع الذى يأوى إليه.

(٣) بشر الحافى، وطيفور هو ابن عيسى أبو يزيد البسطامى، تقدمت ترجمتهما.

(٤) الأعراف: ١٨٧.

السموات والأرض خالية من سكانها ما شاء الله تعالى، ثم يرسل الله عز وجل ماء كمنى الرجال فيبسط على وجه الأرض، فينبت الأجسام كما ينبت الزرع المطر، ثم يأمر الله تعالى إسرافيل عليه السلام أن ينفخ نفخة البعث، فينفخ إسرافيل بإذن الله تعالى، فتخرج الأرواح من ثقب فى الصور على عدد أرواح الخلائق، حتى تملأ ما بين السماء والأرض، ثم ينادى مناد على صخرة بيت المقدس: أيتها العظام النخرة، والعروق المتقطعة، والجلود المتمزقة التئمى بقدرة الله عز وجل، قال: فيرجع إلى كل جسد ما كان منه، وتأتى روحه فتدخل فيه، ويأمر الله الأرض أن تنشق عنهم ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[1] قال: فينظرون إلى الشمس وقد كُوِّرت، وإلى النجوم وقد انْكَدَرَتْ، وإلى الجبال وقد سيِّرت، وإلى العشار وقد عُطِّلت، وإلى الوحوش وقد حُشِرت، فعند ذلك تطيش الأحلام، وتتزلزل الأقدام، وتزفر جهنم زفرة، فيتضاعف الخوف والقلق والفزع، ويشتد الكرب والعرق والجزع، ثم يخرج عنق من النار ويقول بصوت يسمعه جميع مَن فى المحشر: قد أُمرت بكل جبار عنيد، فيلتقطهم من بين الناس كلقط الحمام الحب، ثم توضع الموازين، وتُنشر الدواوين، وتتطاير الصحف بالأيمان والشمائل، ثم يمد الصراط على متن جهنم، وهى سوداء مظلمة، يأكل بعضها بعضا، ثم يلقى فيها فوج بعد فوج، فلو رأيتهم لرأيت أمراً فظيعا وأمراً مهولا، لطعامهم الزقوم، وشرابهم الحميم، ليسوا من شدة العذاب بميتين، ولا هم منها بمُخْرَجِين.

شعر:

كَمْ لِلْمنايا فى بنى آدم	تَوَسُّعٌ منه تضيقُ الصدورُ
لو فطن الناسُ لدُنياهُم	لاقتنعوا منها اقتناع الطيورِ

يا أخى ويحك إن الدنيا معبر ولابد لك منها فَخُذ قدر الحاجة فالدنيا فى مقام امرأة، واللمس ناقض، طريق المتقين يفتقر فيها إلى رواحل، وإبل عزائمك كلها كالة إنما يصلح للملك قلب فارغ عما سواه.

وقلبك خان كل يوم وليلة	يفارقة رَكْبٌ وينزله رَكْبُ

---

(١) الزمر: ٦٨.

[هكذا طاعة الله تعالى]

قال زيد بن مروان: مررت بجارية متعبدة وقد ولهت من شدة المحبة فسمعتها وهى تقول:

سَلَبَ الرُّقادُ من الجفونِ تَشَوُّقى فمتى اللقاءُ يا جَامِعَ الأمْوَاتِ؟

قال: فَسَلَّمْتُ عليها، فَرَدَّت علىَّ السلام، ثم قالت: ألست زيدا؟، قلت: بلى فبم عرفْتِينى؟، فقالت: يا هذا اتصلت المعرفة بالأسرار، فعرفتك بمعرفة الجبار، ثم قالت: يا زيد ما السخاء عندكم؟، قلت: البذل والعطاء، قالت: هذا السخاء فى الدنيا، فما السخاء فى الدين؟، قلت: المسارعة إلى طاعة الله تعالى، قالت: إلى متى؟ قلت: إلى أن تفوز بالجنة، فقالت: إنما المسارعة إلى طاعة الله تعالى إلى أن يَطَّلع على قلبك فلا يجد فيه غيره، ثم قالت:

حسبت المحب من الحبيب يعلمه إن الحبيب بباله مطروح

وإذا تَقَلَّبَ فى الدُّجى ففؤاده بسِهَامِ لوعاتِ الهوى مجروحُ

[ما خلقتُ الجنة إلا لكم]

وقيل فى بعض الأخبار: إن الله تعالى يقول للطائعين يوم القيامة: عبادى آثرتمونى على شهواتكم، فأبشِرُوا اليوم بكرامتى، فوعزتى وجلالى ما خلقت الجنة إلا لكم.

اسمع يا مظهرا من الخير ما ليس فى قلبك، لا تَبِع ما ليس عندك، تبكى ساعة الحضور على الخيانة والمسروق فى جيبك!، كم نهاك عن نظرة؟ وتعلم أنه بالحضرة، ولا تراقب الناظر، بِرَدِّ الناظر، فكأنك لا تعلم أن الحاضر حاضر.

قيل: لما توفى سهل بن عبد الله وكان أوصى إلى سالم وأبى عبد الله الخياط أن يغسلاه، قال سالم: فلما وضع على المغتسل رأيت يده اليسرى على عورته، فأخذت اليسرى، فوضع اليمنى على عورته، وفتح عينيه فى وجهى، فغُشِّىَ علىَّ هيبة له، ثم أفقت من غشيتى فجعلت عليه إزاراً، ثم غسلته، فرأيته فى المنام فقال لى: يا سالم أتكشف عن عورة ما كشفتها لحلال ولا لحرام منذ ستين سنة، ولقد

بلغت فلم أنظر إلى عورتى بعد ذلك حياء من الله عز وجل.

شعر:

الناسُ من الهوى علَى أصنافِ هذا نَقَض[1] العهدَ وهذا وَافَى
هَيْهَاتَ من الكدورِ تبغى الصافى ما يصلح للحضرةِ قلبٌ جَافى

يا هذا، أكبرُ دليل علينا أنت، كنت منبوذاً فى ظهور الأصول فنظمت بالقدرة نظما عجيبا، فما تنقض إلا لأمر هو أعجب منه، مُدَّت أطناب[2] العروق، وحُفرت خنادق الأعصاب، وضربت أوتاد المفاصل، وأقيم عمود الصلب، ثم مُدَّ السرادق، فنصب سرير القلب فى الباطن للملك «ويسعنى قلب عبدى المؤمن»[3].

شعر:

إذا لم تجد صباً على النأى مخبرا عَنِ البُعْدِ بعد البين أينَ أقاموا
فَعِنْد النَّسيمِ الرطبِ أخبارُ منزلٍ به لِسُلَيْمى فى العقيقِ خيامُ

يا هذا، إذا أقفر القلب من ساكن «ويسعنى»، فتحت النفوس بابه لعناكب الغفلة، فنسجت فى زواياه من لعاب الآمال طاقات المنى.

يا من له فى حديث القوم ذوق، أين آثار القلق والشوق؟ أشد الناس حبا لحديث الحجاز مَن سافر إليه.

شعر:

يا نسيمَ الشَّمَالِ بَلِّغْ خطابى واشْفِ مِنِّى الجوَى بِرَدِّ الجوابِ
قِفْ بِسَاحَاتِ ذلكَ الرَّبْعِ واحملْ ذَرَّةً مِن تُرَابِ ذاكَ الجنَابِ
قُلْ لِمولاى يا منى الروح والقلبِ ومَن فيه ذِلَّتى واكتئابى
كُنتُ أخشى الوشاةَ فيكَ ولكن جفوةُ الحبِّ لم تكن فى حسابى

(١) سهل بن عبد الله التسترى، تقدمت ترجمته.
(٢) النقض: الهَدْم.
(٣) الطُّنب: حَبْل الخيمة والسرادق.

[إلزم البكاء على التخَلُّف]

يا هذا كنت تدعى حبنا، وتؤثر القرب حينا، فما هذا الصبر الذى قد عَنَّ[1] عنا؟.

كنت تستطيب رياح الأسحار وما تغير المهب، ولكن دخل فصل الفتور ولم تحترز فأصابك زكام الكسل،كنت فى الرعيل الأول، فما الذى ردك إلى الساقة[2]؟، قف الآن على جادة التأسف، والْزَمْ البكاءَ على التخلف.

ورد فى بعض الأخبار: أن العبد إذا تغيرت أحواله بركوب المعاصى وشكا ذلك إلى ربه، فيقول الله عز وجل: يا عبدى أنت بالقطيعة بدأت هَلاَّ أقمت على طاعتك وجريت فى القرب منَّا على عادتك، وإنما يطلب بِرِّى وإحسانى مَن تركَ مخالفتى وعصيانى.

[اتقوا فتنة الدنيا]

إخوانى: احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت، ذانك يفرقان بين المرء وزوجه، وهذه تفرق بين العبد وربه، وكيف لا وهى التى سحرت سحرة بابل، إن أقبلت شغلت، وإن أدبرت قتلت!.

شعر:

ويلاه إن نظرت وإن هى أعرضت　　　وَقْـــعَ السهــــامِ ونزعهن أليم

يا هذا إن الدنيا إذا صفت حلالها كدرت الدين، فكيف إذا أُخِذَت من حرام؟.

*****

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ابْتَعَدَ.

(٣) الساقة: مؤخرة القوم.

[الظلم ظلمات]

ما زال الظَّلَمَة فى الظُّلْمَة، يمشون فى جمع الحطام، ويمسون على فراش الآثام ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُم﴾[1] أتراهم نسوا طَيَّ الليالى سالف الجبارين؟ ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُم﴾[2] فما هذا الاغترار ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ﴾[3] ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾[4]، كم دارٌ دارت بهم نعم النعم، فدارت عليها دوائر النقم، ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾[5]، كم جار فى حلبة المنى قد استولى طرفه على طرف الأمل صَدَمَهَ قهر عقوبة؛ فألقاه أسرع من طرفة عين، بينا القوم يسطون فى بسط البسطة إذ كفت أكفهم بمقامع القمع، لسبتهم[6] عقارب ظلمهم، نفخ عليهم ثعبان جورهم[7]، عقرتهم أُسُودُ بطشهم، نسفتهم عواصف كبرهم، وفى الغير عبر، لقد ودُّوا لو رُدُّوا فيعملون، ولكن ﴿حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[8]، ويحك، إذا كانت راحة اللذة تعقب تعب العقوبة، فدع الدعة تمضى فى غير الدعة، ما تساوى لذة سنة بغم ساعة، فكيف والأمر بالعكس؟!.

رُئى عمر بعد موته باثنى عشر سنة فقال: الآن تخلصت من حسابى.

واعجبا!، أقيم أكثر من سنى الولاية، أفينتبه بهذا راقد الغفلة؟

أحسن شرائع الشرائع العدل، الظلم ظلمة فى نهار الولاية، والعدل صوت فى صُور الحياة، يُبْعَثُ به موتى الجور، أيها الظالم تَذَكَّر عند جُورك عَدْلَ العادل، تَفَكَّر حين تصرفك فى سرفك، يا أرباب الدول لا تعربدوا فى سُكْر القدرة فصاحب الشرطة بالمقدرة، الحذر الحذر ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ

---

(1) البقرة: ١٦. (2) سبأ: ٤٥.
(3) الرعد: ٦. (4) يونس: ١٠٢.
(5) يونس: ٢٤. (6) لَسبَ: ضرب.
(7) سبأ: ٥٤. (8) الجور: الظلم.

فِي جَنبِ اللَّهِ﴾[1] ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾[2] وأنت أيها المظلوم تذكر من أين أتيت؟ فإنك لا تلقى كدراً إلا فى طريق خيانة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[3].

ورد فى بعض الأخبار: أن العبد لا يزال يُحفظ ويُربّى ويُلاطَف ويُغَذّى، حتى يبلغ الحلم فيُؤمر ويُنهى، فإذا أذنبَ وأساءَ وخالفَ وعصى يقول الله تعالى لملائكته: اطردوا هذا العبد عن بابى، فإنه سيء الأدب لم يَرْعَ الجميل الجسيم، ولا ذكر الإحسان القديم.

يا هذا، أنفعُ دواءٍ أجده لى ولك نَفض أخلاط التخليط بتسرية الدمع، فإن بضاعة المذنب دمعة، ورأس مال المفرط حزنه، وراحة الأواب قلقه، وعيشة التواب حرقة.

[إن تاب وعاد قبلته]

قال وهب بن منبه[4]: كان أول عابد من عباد بنى إسرائيل قد عبد الله تعالى أربعين سنة، ثم أخطأ خطيئة، فخرج هارباً من ذنبه طالباً عفو ربه، حتى أتى البحر، فوقف ونادى: أيها البحر هل فيك من مخبأ؟ فأوحى الله عز وجل إليه: أيها البحر أن أَجِب عبدى، فقال: ممن تريد المخبأ؟ فقال: من رب العالمين، فإنى استحى منه لما كان من خطيئتى، فقال البحر: سبحان الله؛ وكيف أستطيع ولا فىَّ قطره إلا وهى موزونة بميزان، مكيلة بمكيال، مع ملك موكل بها، مع علم الله بى وبها، فولَّى العابد وهو يقول: سبحانك ما أعظم سلطانك فأين المفر؟!، ثم ولَّى حتى وقف فى فلاة[5] من الأرض، حتى قطع ما شاء الله منها، ثم قال: أيتها الأرض الطويل طولك العريض عرضك هل فيك من مخبأ؟، فاوحى الله تعالى إليها: أن أجيبى عبدى، فقالت الأرض: ممن تريد المخبأ؟ قال: من رب العالمين،

---

(1) الزمر: ٥٦.
(2) ص. ٣.
(3) الرعد: ١١.
(4) تقدمت ترجمته.
(5) صحراء.

فقالت الأرض: سبحان الله، وكيف أستطيع ولا فيَّ حجر ولا مدر صغيره ولا كبيره إلا وقد أحصيت عددا، وحققت وزنا، مع ملك موكل بها، مع علم الله بى وبها، فولَّى وهو يقول. سبحانك ما أعظم شأنك وأعز سلطانك فأين المهرب؟، ثم لحق بالجبال، وجعل يتخللها، حتى وقف على أطولها جبلا، وقال: أيها الجبل هل فيك مخبأ؟، فاوحى الله تعالى إليه: ان أجب عبد، فقال له الجبل: ممن تريد المخبأ؟ قال: من رب العالمين، فقال الجبل: سبحان الله، وكيف أستطيع ذلك ولا فيَّ صخرة صَغيرة ولا كبيرة إلا وعليها ملك موكل بها مع علم الله بى وبها؟، فرفع طَرْفه إلى السماء وقال: إلهى فرَّ منِّى كلُّ شىءٍ، وأسْلَمنى، وتباعد عنِّى، إلهى أسألك إياك، وأعوذ بك منك. فأرسل الله إليه ملكاً فى صورة ملك من بنى آدم فقال له: الحق يقرئك السلام، ويقول لك: أنا الله مَن عصانى أمهلته، فإن تمادى نهيته، فإن تاب قبلته، فإن سَوَّف دعوته، فإن أبى وأصرَّ أخَّرته إلى الأجل الذى أجلته، فآخذه بعدلى، وأغفر له بفضلى، قد قبلت توبتك برجوعك إلىَّ، وأنا التواب الرحيم.

شعر:

فـــلا تحسبوا أنِّـــى نسيـتُ ودَادَكم

فإنى وإن طالَ المـــدى لستُ أنسـاكم

حـــفظنا وضيعـــنا ووداداً وحـــرمة

فلا كـان من فى هجرنا اليوم أغراكم

الفصل الثالث والعشرون

[يا مشغولاً بأمله عن أجله]

اسمع، يا مشغولا بأمله عن أجله، راضيا فى صلاح خلاله بخلله، هل أتى الساكنين لسكنه إلا من قِبَله؟

شعر:

سَلِ الأيَّامَ ما فَعَلَتْ بِكِسْرى	وقيصر والقُصورِ وسَاكِنيها
أما استدعتهمُ للموت طرا	فلم تدع الحليم ولا السفيها
دَنَت نحو الدَّنيِّ بسهم خَطْبِ	وأصمته وواجهتْ الوجيها
أما لو بيعتْ الدنيا بفلس	أنفت لعاقل أن يشتريها

يروى عن عبد الله بن المعلا أنه قال: خرجنا حجاجا من المدينة فلما نزلنا منزلة وقف علينا رجل عليه أثواب رَثَّة فقال: من يبتغى ساقيا يملأ له قربة أو إداوة[1]؟، فقلنا له: دونك[2] هذه القربة، فأخذها وانطلق، فلم يكن إلا قليلا حتى أتى بها، فلما وضعها رأيتُ الحبلَ قد أثَّر فى كتفيه، فأدركتنى عليه رقة، فقمت إلى رَحْلى فأخرجت منه قرصا وناولته إياه، فاعتزل وأكَلَ أكْلَ جائع، فَرُحْتُ ثانية وأتيته بطعام طيب كان معى، وقلت له: كُلْ رحمك الله فإن القرص لم يقع منك بموقع، فنظر إلىَّ طويلا ثم قال وهو مبتسم: إنما هى فورة هذه النار وقد أطفأتها بما أمكن، ثم ضرب بيده على بطنه وقال: لا حاجة لى فيه، فرجعت متعجبا، فقال لى رجل: أتعرف هذا؟، قلت: لا، قال: هذا رجل من ولد العباس بن عبد المطلب من نسل سليمان بن أبى جعفر المنصورى كان يسكن البصرة وقد فقده منها ولم يعلم له خبرا، فاتبعته حتى لحقته وقلت له: يرحمك الله، قد علمت مكانك، ودار إقامتك، فإن شئت رجعت معى أدفع لك ما تركبه وما تحتاج إليه من زاد وغيره، حتى أبلغت دار إقامتك، فقال: يا هذا لو أردت ما ذكرت كان لى مُعَدّاً، ثم أنشأ يحدث قال: كنت أسكن البصرة، وكنت ذا كِبْرِ

(١) إداوة: إناء من جلد يُحمل فيه الماء.

(٢) أى خُذها

وتجبرٍ وتكاثرٍ وتفاخرٍ، فأمَرْتُ جارية من خدمى ذات ليلة أن تفرش لى فراشا، ففعلت، ونثرت فوقه نثير الورد بعد أن نزعت أقماعه، وحشت منه وسائد ومخاد، ثم اضطجعت، فبينا أنا نائم إذ تقلبت لجنبى فحسست بقمع وردة أغفلته الجارية، فبت أتقلب كأنى على شوك القتاد[1]، فأصبحتُ وقد امتلأتُ عليها غيظا، فقمت إليها وأوجعتها ضرباً، واخرجت ذلك القمع، وعُدْت إلى مضجعى، فأتانى آتٍ فى منامى فوكزنى برجله وقال: أفِق من غشيتك، وانتبه من رَقْدَتك:

شعر:

بأخدانٍ ووثير فراشٍ ناعم ... وُسِدْتَ بعدَ الموتِ صُمُّ الجندلِ

فامْهَدْ لنفسك صالحا تنجو به ... فلَتَنْدَمَنَّ غدا إن لم تفعلِ

قال: فعند ذلك انتبهت فزعا مرعوبا، ورأيت كل ما أنا فيه زائل،فخرجت دابيا فى تحصيل ما لابد لى منه، قال: فلما قضى حديثه انخش[2] منى فلم أعلم أين ذهب.

إخوانى: المستقر يزول، والمقيم منقول، والأحوال تحول، والعتاب على الفانى يطول، فكم تعذل وكم تقول:

شعر:

سيَقْطَعُ رَيْبُ الدهرِ بين الفريقين ... لكُلِ اجتماع فرقة من يد البين

وكلٌ يَنْقضى ساعةً بعدَ ساعةٍ ... تُخاتلُه[3] عن نفسِه ساعةَ الحين

وما الحشرُ إلا كالصباحِ إذا انجلى ... يقوم له الوسنانُ من رقدةِ البينِ

---

(١) شجر دو شوك

(٢) استَتَرَ

(٣) تخاتله: تخادعه..، وختَل الذئبُ الصيد: تَخفَّى له. والمخاتلة: مشىُ الصياد قليلاً قليلاً فى حفة لئلا يسمع الصيد حسه

[عَمَّ الجَدْبُ أرض القلوب]

أين قُطَّان الأوطان؟ أين الأطفال والشمطان؟[1]، أين الجائع والمبطان؟[2]، أين العبيد والسلطان؟، تَعَرَّف وتَصرَّف ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾[3].

يا معشر العصاة قد عم الجدب أرض القلوب، وأشرفت زروع التقوى على التوى[4]، فاخرجوا من حَضَر الذنوب إلى صحراء الندم، وحُلُّوا أردية الغدر عن مناكب العهود، ونكِّسوا رؤوس الكبر على أذقان الذل، لعل غيوم الهموم على ما سلف تأتلف، فقد قيل: إن العبد إذا أقبل على طاعة الله وأعرض عن معصيته نادته ملائكة الرحمة: وُفِّقت وهُديت، هذا طريق الأبرار ومسلك الأخيار، وإذا أقبل على معصيته وأعرض عن طاعته نادته ملائكة العذاب: خابَ قصدُك، وضَلَّ سعيك، هذا طريق الأشرار وسبيل الفجار.

وقيل: أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام: يا داود لو يعلم المدبرون عنِّي كيف انتظارى لهم؛ ورفقى بهم؛ وشوقى إليهم؛ ومحبتى لِتَرْك معاصيهم؛ لماتوا شوقا إليَّ، يا داود هذه إرادتى للمدبرين عنِّي فكيف إرادتى للمقبلين عليَّ؟، يا داود أحوج ما يكون العبد إليَّ إذا استغنى عنى، وأرجى ما يكون لعفوى إذا أدبر عنى، وأجَلّ ما يكون إذا رجع إليَّ خوفا منِّي.

[حداد لا تحرقه النار!]

قال بعض الصالحين: دخلتُ إلى مصرَ فوجدتُ حداداً يُخْرِج الحديد بيده من النار، ويقلبه على السندال، ولا يجد لذلك ألماً!، فقلت فى نفسى: هذا عبد صالح لا تعدو عليه النار، فدنوت منه، وسَلَّمْتُ عليه، فردَّ عليَّ السلام، فقلت له: يا سيدى بالذى منَّ عليك بهذه الكرامة إلا ما دعوت لى، فبكى وقال: والله يا أخى ما أنا كما ظننت، فقلت له: يا أخى إن هذا الذى تفعله لا يقدر عليه إلا الصالحون، فقال: إن لهذا الأمر حديثا عجيبا، فقلت له: إن رأيت أن تعرفنى به فافعل، قال: نعم، قال. كنتُ يوماً من الأيام جالسا فى هذه الدكان، وكنت كثير

(١) الأشمط: أبيض الشعر (العجوز).
(٢) المملوء البطن.
(٣) القصص: ١٥.
(٤) التَّوَى: الهلاك.

التخليط، إذ وقفت عليَّ امرأة لم أرَقطُّ أحسن منها وجها، فقال: يا أخى هل عندك شيء لله؟، فلما نظرت إليها فُتنت بها، وقلت لها: هل لك أن تمضى معى لى البيت وادفع لك ما يكفيك؟، فنظرت إلىَّ زمانا طويلا، فذهبت وغابت عنّى طويلا، ثم رجعت، وقالت: يا أخى قد أحوجتنى الضرورة إلى ما ذكرت، قال: فقفلت الدكان ومضيت بها إلى البيت.

شعر:

لَعَلَّ عتبُكَ محمودٌ عواقِبُهُ ورُبما صَحَّتْ الأجساد بالْعِلَلِ

فقالت لى: يا هذا إن لى أطفالا، وقد تركتهم على فاقة[1] شديدة، فإن رأيت أن تعطينى شيئا أذهب به إليهم وأرجع إليك فافعل، قال: فأخذتُ عليها العهود والمواثيق، ودفعت لها بعضاً من الدراهم، فمضت وغابت ساعة ثم رجعت، فدخلتُ بها إلى البيت، وأغلقتُ الباب، فقالت: لم فعلت هذا؟، فقلت لها: خوفا من الناس، فقالت: ولم لا تخاف من رب الناس؟ فقلت لها: إنه غفور رحيم، ثم تَقَدَّمْتُ إليها فوجدتها تضطرب كما تضطرب السعفة فى يوم ريح عاصف، ودموعها تتحدر على خديها، فقلت لها: مم اضطرابك وبكاؤك؟، فقالت: خوفا من الله عز وجل، ثم قالت لى: يا هذا إن تركتنى لله ضمنت لك أن لا يُعَذِّبك بالنار، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، قال: فقمت وأعطيتها جميع ما كان عندى، وقلت لها: يا هذه قد تركتك خوفاً من الله عز وجل، قال: فلما فارقتنى غلبتنى عينى فنمت، فرأيت امرأة لم أرَقط أحسن منها وجها، وعلى رأسها تاج من الياقوت الأحمر، فقالت لى: جزاك الله عنا خيرا، قلت لها: ومن أنت؟، قالت: أنا أم الصبية التى أتتك وتركتها خوفا من الله عز وجل، لا أحرقك الله بالنار لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، فقلت لها: عَرِّفينى بها ومن أى نسل هى يرحمك الله؟؟، فقالت: هى من نسل رسول الله ﷺ، فتذكرت قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2] ثم أفقت من منامى، ومن ذلك الوقت لم تعدو علىَّ النار، وأرجو أن لا تعدو علىَّ فى الآخرة.

---

(١) الفاقة: الفقر والحاجة.

(٢) الأحزاب ٣٣

فَصَلِّ اللهم على من حبى بإسناد المفاخر، وعلى عترته الذين خصوا بهذه المآثر، الذى خلق من أرضى أرضاً، وخص بأصفى الأوصاف وصفًا، وصين آباؤه من الزنى فلم يكن منه خائن ولا خائنة، إلى أن صدفت تلك الدرة عن صدفة آمنة، فأُلبس إهاب الهيبة، وتُوِّج بتاج السيادة، وشارك الأنبياء فى معجزاتهم وخُصَّ عليهم بالزيادة، أين انشقاق البحر من انشقاق القمر؟!، أين انفجار الماء من الحجر الدامع من نبع الماء الجم من بين الأصابع؟!، أين التكليم عند الطور من ﴿قاب قوسين﴾[1] على بسط النور؟!، أين خطاب الجمعة الناطقة بالبيان من تسبيح الحصى فى الكف بلا لسان؟!، أين علو سليمان بالريح العجاج من ركوب البراق ليلة المعراج؟!، أين إحياء عيسى الأموات والألسن الناطقة من تكليم الذراع لمحمد ذى المعجزات الخارقة؟!، آدم فَمَن دونه تحت لوائه يوم القيامة فهو أول الناس خروجا إذا بُعثوا، وخطيبهم إذا وفدوا، ومبشرهم إذا جزعوا، وشفيعهم إذا يئسوا، الأنبياء قد سكتوا لنطقه، والأملاك قد اعترفوا بحقه، والجنةُ والنار تحت أمره، والخزان داخلة فى دائرة حكمه، كلام غيره قبل قوله لا يُسمع، وجواب الحديث: قل يُسمع، فسبحان من فضله من الفضل الصرف ما فضله، وكساه من حلل الفخر الجم ما جَمَّله، جمع الله بيننا وبينه فى جنته، وأحيانا على كتابه وسنته.

الفصل الرابع والعشرون

[حبَال الآمال بالية]

اسمع يا بعيد الأمل والموت منه قريب، يا من هو عن قريب يصير فى القبر غريب، يا راكبا عجز الهوى وفى يده جنيب[2]، يا ماراً على وجهه قل لى مَتى تنيب؟، ألا تأخذ قبل الفوت بعض النصيب؟، ألا تتزود ليوم شره عصيب؟، ألا تخرج عن وادى الجدب إلى الربع الخصيب؟، أحاضر أنت ـ قل لى ـ ما أكثر ما تغيب.

---

(١) النجم: ٩.

(٢) كل طائع منقاد فهو جنيب. . ، والمعنى أنه منقاد لهواه.

شعر:

بكيتُ وما يُبكى حديثُ مُناكَا   كفاكَ نذيُر الشيبِ فيك كفاكَ

ألم تر أن الشيب قد قام ناعياً   مقامُ الشبابِ الغضُّ ثم نعاكَ

ولم تر يومًا مر إلا كأنه   بإهلاكه الهالكين عناكاً

ألا ليت شعرى كيف أنت إلى القوى   وهت وإذا الكربُ الشديدُ علاكَا

كأن خطوبَ الدهرِ لم تجر ساعةً   عليك إذا الخطبُ الجليل عراكاً

قال رسول الله ﷺ: «احضروا موتاكم ولقنوهم قول لا إله إلا الله، وبشروهم بالجنة، فإن الحليم يتحير عند ذلك المصرع، فو الذى نفس محمد بيده إن ذلك اليوم أشد من ألف ضربة بالسيف»[1].

إخوانى ألا ناظر لنفسه قبل الفوت؟، ألا مستدرك زاد رمسه قبل الموت؟، ألا مزدجر بوعظ أمسه فقد أسمعه الصوت؟.

شعر:

هل ناظرٌ لنفسهِ   قبل حلولِ رمسه

هل يومه أو غده   إلا نظير لأمسه

وعله يلقى الردى   قبل غروب شمسه

كم مدلج مهجر   يسعى لبعل عرسه

وأكيس الناس امرؤ   جَدَّ ليوم رَمْسِه

[ساحر الهوى]

يا إخوانى، ويحكم حبال الآمال رثاث[2]، وساحر الهوى نفاث، والأمانى على الحقيقة أضغاث[3]، والمال المدخر رزق الوراث، عجباً لأجسام ذكور وعقول إناث، إلام الرواح فى الهوى والتغليس؟، وحتَّامَ السعى فى صحبة إبليس؟، فكم

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٥/ ١٨٦) وقال: هذا حديث غريب.

(٢) بالية.   (٣) أضغاث الأحلام: المختلطة التى لا يُستطاع تأويلها.

بهرجة فى العمل وكم تدليس!، شجرة الإخلاص أصلها ثابت لا يضرها زرع ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾[1] وأما شجرة الرياء فاجتثت عند نسمة ﴿وَقِفُوهُمْ﴾[2]، كم متشبه بالمخلصين فى خشوع قلبه ولباس جسمه وأفواه القلوب تنفر عند مذاق طعمه.

شعر:

أما الخيامُ فإنها كخيامهم ... وأرى نساءَ الحىِّ غير نسائها

كم حول معروف من دفين ذهب اسمه كما بلى رسمه، ومعروف معروف.

شعر:

فماكلُّ مخضوب البنان بثينة ... ولا كل بيضاء الترائبِ زينبُ

لريح المخلصين عطرية القبول وللمُرائى سموم النسيم.

[المسكى]

قيل لأبى بكر المسكى: إنا نشم منك رائحة المسك مع الدوام، فما سببه؟، فقال: والله لى سنين عديدة لم أستعمل المسك، ولكن سبب ذلك أن امرأة احتالت علىَّ حتى أدخلتنى دارها، وأغلقت دونى الأبواب، وراودتنى عن نفسى، فتَحيَّرتُ فى أمرى، فضاقت بى الحيلُ، فقلت لها: إن لى حاجة إلى الطهارة، فأمرت جارية لها أن تمضى بى إلى بيت الراحة، ففعلت، فلما دخلت بيت الراحة أخذت العذرة وألقيتها على جميع جسمى، ثم رجعت إليها وأنا على تلك الحالة، فلما رأتنى دهشت، ثم أمرت بإخراجى فمضيتُ واغتَسَلْت، فلما كانت الليلة رأيت فى المنام قائلا يقول لى: فعلت ما لم يفعله أحد غيرك؛ لأطيبن ريحك فى الدنيا والآخرة، فأصبحت والمسك يفوح منى، واستمر ذلك إلى الآن.

[الإخلاص فى العمل]

إخلاص المخلصين رفع قدر الوسخ «رب أشعث أغبر»[3]، ونفاق المنافقين

(١) النحل: ٢٧.

(٢) الصافات: ٢٤.

(٣) عن أنس عن النبى ﷺ: «كم من أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء ابن مالك» [الترمذى (٣٨٥٤)]. .) وبنحوه من حديث أبى هريرة عند مسلم (٢٦٢٢، ٢٨٥٤).

صيَّر المسجد[1] مزبلة، ﴿لا تقمْ فيه أبدًا﴾[2].

أيها المرائى قلب مَن ترائيه بيد مَن تعصيه، لا تنقش على الدرهم الزائف اسم الملك فما يتبهرج الشحم بالورم.

قيل: كان يجلس إلى حاتم الأصم[3] بعض أولاد ملوك خراسان، وكان أبوه يطلبه فلا يجده، فيسأل عنه، فيقال له: هو يجلس إلى شيخ صوفى يقال له حاتم الأصم، وقد أفسده عليك، فليس يفلح إلى أمر الدنيا، فبعث الملك إلى حاتم، وكان قد أضمر له شراً، فلما حضر بين يديه قال له: يا حاتم ما حرفتك؟، فقال الشيخ: حرفتى خدمة مُقَلِّب القلوب، قال الملك: صدقت؛ قد كنت أضمر لك شراً بصحبتك ولدى، وقد قلب الله قلبى حين رأيتك، دَعْهُ عندك لعل الله يُصلحه إذا كنت أنا لا أصلح لشىء.

شعر:

هذه معالمهم وما	لى منذ بان القوم عهد
واها لعيشى فى الحمى	لو كان لى يوما يرد
ويلى احَظْى كله	من حبكم هجر وبُعْدُ

خلت والله الديار، وباد القوم، وتبدل أكلُ الشهوات بأهل الصوم.

شعر:

كفى حزنًا بالواله الصَّبِّ أن يرى	منازل مَن يهوى مُعَطَّلة قفْرًا

سُلَّم التقوى قريب المراقى، وبئر الخذلان بلا قعر، ربما أدرك الوقفة أهل مصر وفاتت سكان نخلة، لابد والله من نفوذ القضاء فاجنح للسلم.

---

(1) يعنى مسجد الضرار، انظر أقول أهل العلم فى تفسير الآيات ١٠٧ ـ ١١٠ من سورة التوبة.

(2) التوبة: ١٠٨.

(3) حاتم بن عنوان أبو عبد الرحمن، المعروف بالأصم (توفى ٢٣٧هـ = ٨٥١م)، الزاهد، المشهور بالورع والتقشف، كان يقال: حاتم الأصم لقمان هذه الأمة. . ، له كلام مدون فى الزهد والحكم. انظر ترجمته فى: صفة الصفوة (٧٠٤)، الحلية (٨/ ٧٣)، تاريخ بغداد (٨/ ٢٤١)، الأعلام (٢/ ١٥٢).

شعر:

لا تغضبن على قوم تحبهـــــم ... فليس ينجيك من أحبابك الغَضَبُ

ولا تخاصمهم يومًا إذا حكموا ... إن القضاة إذا ما خوصموا غلبـوا

كان إبليس كالبلدة العامرة، فوقعت فيها صاعقة الطرد؛ فهلك أهلها ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾[1].

شعر:

من لم يكن للوصال أهلاً ... فكـــل إحسانه ذنوب

لقى إبليس عمر بن الخطاب رضى الله عنه فصارعه فصرعه عمر[2]، فقال بلسان الحال: أنا مقتول بسيف الخذلان قبل لقائك يا عمر، أنت الذى كنت فى زمان الخطاب لا تعرف الباب، وأنا الذى كنت على سدة السيادة وأتباعى الملائكة، فوصل منشور ﴿ لا يُسْأَلُ﴾[3] فَعَزَلَنى وَوَلاَّك، فكن على حذر من تَغَيُّر الحال.

شعر:

فإن الحســـامَ الصقيل الذى ... قُتِلْتُ بـــه فى يد القاتل

[حُسْنُ الخاتمة]

يا أخى كم شارف بسفينته شاطىء النجاة فعصفت عليها ريح الخذلان وما بقى للسلامة إلا باع أو ذراع، كيف تتقى نبال القدر و«القلب بين أصبعين»[4]؟.

شعر:

وإذا رامِى المقاديرِ رَامَنى ... فدروع المرء أعوان النِّصَالِ

---

(١) النمل: ٥٢.

(٢) صرع عمر للشيطان، أخرجه ابن أبى الدنيا فى مكائد الشيطان (٦٣)، والبيهقى فى الدلائل (٧/ ١٢٣)، وأبو نعيم فى الدلائل (ح٢٦٨)، بسند حسن..، انظر مجمع الزوائد (٩/ ٧١)، آكام المرجان بتحقيقى (ص٢١١ ـ ٢١٢).

(٣) الأنبياء: ٢٣.

(٤) فى حديث ابن عمرو عن النبى ﷺ قال: «إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء»، [رواه مسلم (٢٦٥٤)، وأحمد (٢/ ١٦٨، ١٧٣)].

إخوانى، خوف السابقة وحذر الخاتمة أقْلَقَ قلوبَ العارفين وزادهم انزعاجاً ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾[1].

قال أبو عثمان النيسابورى[2]: كنت مع أستاذى أبى حفص النيسابورى[3] بظاهر نيسابور، فتكلم الشيخ فطبنا لكلامه وطاب لقلوبنا، فبينما نحن كذلك إذ نحن بوحش[4] قد نزل من الجبل وجاء إلى بين يدى الشيخ!، فانزعج الشيخ لذلك، وبكى بكاء شديداً، فلما سكن عن بكائه سألناه عن ذلك، فقال: لما رأيت اجتماع القلوب وطيبها، وقع لى أن لو كان لى شاة فذبحتها لكم وجمعتكم عليها، فما استمر هذا الخاطر إلا وهذا الوحش جاء وفعل ما رأيتم، فتخيل لى أنى كفرعون لما سأل الله عز وجل أن يجرى له النيل فأجراه له، فقلت فى نفسى: وما يؤمننى أن يكون الله سبحانه يوفينى حظوظى كلها فى الدنيا وأبقى فى الآخرة مفلساً فقيراً. فهذا الذى أبكانى[5].

إخوانى، اعلموا أن المتيقظين على شواطىء أنهار الحذر نزول، فلو سرتم عن غفلتكم خطوات لاحت لكم الخيم، كلما دخلوا سكة من سكك السكون شرع بهم الجزع فى شارع شوارع القلق.

شعر:

أسأل عينى كيف طعم الكرى[6] مغالطاً وهو سؤال محال

وكيف بالنوم على الهجر لى والنوم من شرط ليالى الوصال

[اختاروا الفضائل قبل الندامة]

يا معشر العلماء، أتقنعون من الصفات بالأسماء؟، أتؤثرون الأرض على

---

(1) الأنفال: ٢٤.

(2) سعيد بن إسماعيل الحيرى المتوفى سنة ٢٩٨هـ، الزاهد العابد، انظر ترجمته وجملة من أخباره فى الحلية (١٠/ ٢٤٤ ـ ٢٤٦)، صفة الصفوة (٦٧٧).

(3) عمرو بن سلمة النيسابورى، المتوفى سنة ٢٧٠هـ، كان من أهل العلم، له كلام طيب وأخبار فى الزهد والعبادة، انظر: صفة الصفوة (ت٦٨٤)، الحلية (١٠/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠).

(4) فى صفة الصفوة (٤/ ١٠٨) «أيل»... وهو حيوان من ذوات الظلف متشعب القرون.

(5) الخبر فى صفة الصفوة (٤/ ١٠٨ ـ ١٠٩).

(6) الكرى: النوم.

السماء؟، أفى السُّكْرِ أنتم أم فى الإغماء؟، أترضون بالثريا الثرى؟[1]، أتغمضون العيون من غير كرى؟، أتنامون فمن يحمد السرى[2]؟، أتحيدون وفى الأنف البُرَى؟[3]، أتحلون عقد ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى ﴾[4].

شعر:

يا قومنا هذى الفضائل جَمَّةٌ	فتَخَيَّروا قبل الندَامَةِ وانتَقُـــــوا
إن مَسَّكُم ظمأ يقول دليلكم	لا ذَنْبَ لى قد قلتُ للقومِ استَقُوا

إخوانى، ما لقلب العزم غفل، ولنجم الحزم قد أفل، مهلاً فشمس العمر فى الطفل[5]، أما أرخى لك فى الطول، وأمهلت بعد الأجل؟، فاخلُ بنفسك يا أخى وعاتبها، وخذ على يدها وحاسبها، لعلها أن تأخذ عدتها، قبل أن تستوفى مدتها، فإن مواهب الأعمار مسترجعة بالأنفاس حتى تستوفى، أما عاينت الأعيان كيف سلكوا؟، أما شاهدت الأقران كيف هلكوا؟، أما اجتمع الأضداد فى الألحاد واشتركوا؟، وخانهم حبل الأمل بعد ما أُمْسِكوا، ونوقشوا على ما خَلَّفوا وتَرَكُوا، وصار غاية الأمانى عندهم أن لو تُركوا، تالله لقد سعد مَن تَدَبَّر، وسلم من الأذى مَن تَصَبَّر، وهلك مؤثر الهوى وأدبر، وكأنكم بالفراق وقد أعذر من أنذر.

شعر:

إن فى نَأْيِ زمانى عظة	تشغل العاقل عن ناى رنَام[6]
ومُدَام[7] الفِكِر فيمن قد مضى	مسكر يغنيك عن شرب مُدَام[8]
عرس[9] القوم وغربان الدجى	إنما صاحت بتقويض الخيام

---

(١) الثريا: مجموعة من نجوم السماء. . ، الثرى: التراب.

(٢) السرى: السير ليلاً.

(٣) البُرَةُ: حَلَقة من النحاس تُجعل فى لحم أنف البعير ليسهل اقتياده.

(٤) التوبة: ١١١.

(٥) الطَّفَل: الشمس عند غروبها.

(٦) الناى: قصبة يُنفخ فيها (من آلات الموسيقى). الرنَّم: المُغَنِّيات المُجيدات. . . ، والتَرَنُّم: التطريب والتغنى.

(٧) أى دوام.

(٨) مُدَام: خمر. . . ، والبيت من المدهش (ص٤٤٩).

(٩) التعريس: النزول ليلاً للراحة.

قال عبد بن زيد: سُئل أبو بكر الشبلى عن قوله ﷺ: «إذا رأيتم أهل البلاء فاحمدوا الله على العافية»[1].

قيل: من هم أهل البلاء؟، قال: أهل الغفلة عن الله عز وجل.

وحمامات الرجا صادحة نوحها ينذركم صرف الحِمَام[2]

ومطايا السير قد زُمَّت لكم ودِّعوا يا قوم وامضوا بسلام

أقسم الساقى بكاسات الردَّى لَيَدُورَنَّ على كل الأنام

[دواء الزلل: قطع الأمل ومبادرة العمل]

وقال ذو النون المصرى[3]: وُصف لى رجل من العُبَّاد باليمن، فسرت إليه، ومعى جماعة من الناس يقصدون زيارته، فيهم شاب به نحول من غير سقم، واصفرار من غير ألم، فعلمت أنها آثار العبادة، فلما وصلنا إلى الرجل وسلمنا عليه، قال له ذلك الشاب: يا شيخ ما دواء الزلل؟ قال: قَطْعُ الأمل، ومبادرة الأجل بالكد والعمل، قال: فما علامة الخوف من الله؟، قال: يؤمنك حتى يستوى عندك الهرة والأسد، قال: فسقط الفتى مغشيا عليه، والرجل قائم ينظر إليه، فلما أفاق قال: يا شيخ ومتى يخاف العبد من الله؟، قال: إذا عرفه...، ثم غاب عنا فلم نره.

شعر:

يا صاحبىَّ أطيلا فى مؤانستى وناشدانى بخِلاَّنى وعُشَّاقى

وحَدِّثانى حديث الخيف إن له روحاً لقلبى وتسهيلاً لأخلاقى

دَاء تقادم عندى مَن يعالجه ونفثة بلغت منى من الراقى

ما ضرَّ ريح الصبا لو ناسمت حرقى واستنقذت مهجتى من أسر أشواقى

يمضى الزمان وآمالى مصرمة ممن أحب على مُطْلٍ وإملاق

يا ضيعة العمر لا الماضى انتفعتُ به ولا حصلت على شىء من الباقى

(١) الحِمَام: مرض الموت.

(٢) عن أبى هرير بلفظ: «من رأى مبتلى فقال: «الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به وفَضَّلنى على كثير ممن خلق تفضيلاً لم يُصبه ذلك البلاء» [الترمذى (٣٤٣٢)، وصحيح الجامع (٦٢٤٨)، والسلسلة الصحيحة (٦٠٢)].

(٣) تقدمت ترجمته.

الفصل الخامس والعشرون

[عجائب الدهر تغنى عن الوعظ]

اسمع يا نائماً فى لهوه، وما نام الحافظ، لاحظ نور الهدى فلاحظٌ إلا لمُلاحظ، فلا تغتر ببرد العيش فزمان الحساب قائظ[1]، لو صَحَّ فهمك أغنتك عجائبُ الدهر عن وَعْظ كل واعظ، أما شهد المغرور فعل الموت بِصَحْبِه؟، أما ذكره فعل التلف بِحِبِّه؟، أما استبدل ضيق المكان برحبه؟، مَن لم ينتبه بوكزه[2] فسينتبه بسحبه

شعر:

ما لبنى الدنيا غدوا	أهل ضلالٍ وغمه
بصيرهم من جهله	كأنه خلف كمه
أنت مقيم سائر	فلا تقل لم أو لمه
هل يرتجى البقاء مَنْ	أوقاته منصرمة
أم هل تدوم لامرىء	شئونه المنتظمة
وعمره يضيق عن	حاجاته المزدحمة

[مَن عرف الدنيا لم يطمئن إليها]

قال أحمد بن عبد الله البكرى[3]: حدثنى عبد الله بن الحارث قال: استقبلنى رجل فى بعض طرق الشام عليه بُرْدة قد عقدها بين كتفيه، مستنفر كأنه وحشى، فقلت له: يرحمك الله من أين جئتَ؟ قال: من عنده، قلت: وأين تريد؟ قال: إليه، قلت: ففيم النجاة؟ قال: فى التقوى والعمل الصالح، قال: فقلت له:

---

(١) قائظ: شديد الحرارة.

(٢) الوكزُ: النخس، والضرب بجُمع اليد.

(٣) أحمد بن عبد الله بن محمد (ت نحو ٢٥٠هـ = ٨٦٥م) أبو الحسن البكرى، قصصى..، قال الذهبى: واضع القصص التى لم تكن قط، ونعته بالكذاب الدجال، أنظر: الأعلام (١/ ١٥٥ ـ ١٥٦)، الميزان (١/ ٥٣)، اللسان (١/ ٢٠٢)

أوصنى بوصية، قال: أخاف أن لا تقبل، قلت: أرجو أن أقبل، قال: فرّ من هؤلاء - وأشار بيده إلى الخلف - واستَوْحِش من الدنيا، ثم قال: مَن عرف الدنيا لم يطمئن إليها، ومَن عرف الآخرة سارع فى طلبها، ومَن توهمها اشتاق إليها، ثم قال لى: فهمت؟، قلت: نعم، قال: إن القلوب الحية بدون هذا لا تنتفع.

إخوانى، من عَامَلَ الدنيا خسر، ومن حمل فى صف طلبها كُسر، وإن خلاص محبتها منها عَسِر، وكل عاشقيها قد قُبِر وأُسِر، ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾[1].

شعر:

أرى الشهد يرجع مثل الصبر	فمالابن آدم لا يعتبر
وخبره صادقٌ فى الحديث	فإن شك فى ذاك فليختبر
ودنياك فالق بطول الهوان	فهلْ هى إلا كجسر عبر

يا طالباً ما لا يُدْرَك، تتمنى البقاء وما تُتْرَك، كأنك بالحادى[2] وقد أَبْرَكَ، وهل غير الحصاد لزرع قد أفرك؟[3].

شعر:

فلا تنتصب خيامك فى محلٍ	ومنه القاطنون على ارتحال

يا هذا، لو خرج قلبك بالتوبة مِن حَبْسِ الهوى إلى بيداء الإنابة جرت خيول الدمع كالمرسَلاَت عرفاً، اسمع يا من يصبر على الهوى صبر يوسف، تعين لك حزن يعقوب، فإن لم تطق فذل إخوته يوم ﴿تَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾[4] ليس تسمع خطاب العزيز على العرش يوم العفو ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾[5].

[حكاية عبد اعترف بذنبه]

حكى عن بعض الصالحين أنه قال: كان إلى جانبى عجوز، وكان لها ولد مسرف على نفسه، فلما حضرته الوفاة، قال: يا أماه ضَعى خَدِّى على الأرض،

(١) الأحزاب: ٢٣.
(٢) الحادى: الذى يتقدم القافلة والبعير.
(٣) أفرك الزرع: حان حصاده.
(٤) يوسف: ٨٨.
(٥) يوسف: ٩٢

ففعلت، فجعل يبكى ويتضرع، فلما أشرف على الموت قال: يا أماه بالله عليك لا تُعْلمي أحداً بموتى، واجعلى قبرى فى زاوية بيتى، فإنى آذيتُ جيرانى من الأحياء فى الدنيا، وما أحب أن أؤذى جيرانى من الأموات فى الآخرة، قال: ففعلتْ أمه ما أمرها به، ودفنته فى بيته، فلما كان فى بعض الليالى رأته فى المنام وهو على رياضٍ حسنة، وقصور مزينة، وبين عينيه مكتوب بالنور: هذا عبدٌ اعترف بذنبه فَعُتِق، قالت أمه: فقلت له: يا ولدى وكيف وصلت إلى هذه المنزلة؟، فقال لها: يا أماه لما قُبضت أوقفنى الحق بين يديه، وقال لى: يا عبدى هجرك الناس حنقا عليك، وأغلقوا أبواب الرحمة بين يديك، كأن عفوى ضاق عن سيئاتك، أو كأن خزائن ملكى مفتقرة إلى حسناتك، فقد رحمت افتقارك وتذللك وتضرعك، اذهب فقد غفرتُ لك.

شعر:

أبـداً نفوس الطالبـين	إلى طولكم تحـن
وكذا القلوب بذكركم	عند المخافة تطمئن

[حكاية تائب إلى مولاه]

قال بعض الصالحين: كان إلى جانبى شاب من المسرفين على نفسه، فلما حضرته الوفاة جلس أهله يبكون حوله، وجعلت أمه توبخه وتلومه على ما كان يصنع، وجعل أبوه يقول له: يا بنى هذا المصرع الذى حَذَّرتك، هذا المضجع الذى أنذرتك إياه، ثم وضع وجهه على وجهه وجعل يقول:

قد كنت أُنذرك الحِمَامَ وخَطْبَـهُ	فالموت عن ميعاده حتى أتى
واحسرتى لو كان يرجِعُ ما مضى	أو كان قولى نافعُ واحَسْرَتـا

قال: فلما سمعه الشاب فتح عينيه، وأشار إلى أبيه وإلى أمه أن اقْرُبَا منى، فلما قربا منه قال لهما: إن الله عز وجل رَدَّ أمرى إليكما هل كنتما تعذبانى؟، فقالا: لا والله لو أمكننا فديناك بأنفسنا، فقال: إن الله أرحم بى منكما وأبر، ولقد وصل إلىَّ بره وحنانه ورفقه وإحسانه قبل أن يكون منكما شىء من ذلك، ثم مات من ساعته، فرُئى بعد موته فى المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟، فقال:

أوقفني بين يديه، وقال لي: يا عبدى من أين علمت أنى رحيم بك من أمك وأبيك، وأن رأفتى وصلت إليك قبل رأفتهما؟، قال: بك يارب، حين كنتُ فى الأحشاء صورتنى وحفظتنى ووقيتنى وغذيتنى، ولم تزل تلطف بى إلى أن أخرجتنى فى أحسن تقويم، فمن أبَرّ بى منك؟، قال: صدقت يا عبدى، اذهب فقد غفرتُ لك.

واعجبا للغافلين عن هذا المحسن كيف غفلوا، وللمشتغلين عن هذا المنعم بماذا اشتغلوا، يا هذا والله لو بِعْتَ لحظةً من وَصْلنا بعمر نوح فى ملك قارون لغُبنت[1]، لا بل بما فى الجنان ما ربحت، ومن ذاق عرف.

[عليك باثنتين]

قال محمد بن معاذ: أخبرتنى أمى قالت: أخبرتنى امرأة من الصالحات كانت تختلف إلىَّ وكانت كثيرة العبادة قالت: رأيت فى المنام كأنى أُدخلتُ الجنة، وإذا أهلها قيام على أبوابها، فقلت: ما شأنهم؟!، فقيل لى: خرجوا ينتظرون قدوم امرأة من المتعبدات قد زُخرفت لها الجنان، فقلت: ومن هى؟، قالوا: أمة سوداء يقال لها شعوانة، فقلت: هى أختى ورب الكعبة، قالت: فبينما أنا كذلك وإذا بها قد أقبلت على نجيب[2] يطير بها فى الهواء، فلما رأيتها ناديتها: يا أختاه أما ترى مكانى من مكانك؟!، فلو دعوت الله أن يلحقنى بك، فنظرت إلىَّ وهى مبتسمة، ثم قالت: لم يأنِ قدومك الآن، ولكن احفظى اثنتين وعليكِ بملازمتهما، قلت: وما هما؟، قالت: ألزِمى قلبك الحزن، وقَدِّمى محبة الله علىَ هواك، ولا تبالى متى مت.

شعر:

لما وردنا الثعلبية	حيث مجتمع الرفاق
وشممت من أرض الحجاز	نسيم أرواح العراق
أيقنت لى ولمن أحب	بجمع شمل واتفاق

(١) المغبون: المخدوع.

(٢) النجيب من الإبل: القوى السريع.

وضحكت من طيب الوصال　　　كمـــا بكيـت مـــن الفراق
مــــا بينـــنا الا تصـــــرم　　　هـــــذه السبـــع الطباق
حتى يطـــــول حـــــديثنا　　　بصنوف مـــا كنـــا نلاقِ

اسمع، يا من أعمى الهوى بصره وأَصَمَّ سمعهُ، يا من أعماله رياء وسُمْعَة، يا من إذا قام إلى الصلاه لم يخلص لله ركعة، يا نائماً فى انتباهه إلى متى هذه الهجعة، انتبه ترى خيام القوم قد ضربت فى وادى الدجى على شواطىء أنهار الدموع، خلوا والله بالحبيب وطال الحديث، عين تبكى من المحبوب، وأخرى تبكى عليه، لفظة تشكو منه، وأخرى تشكو إليه، يُرى نائم بمحبته وعطش محروق إلى رؤيته.

شعر:

إنا ليجمعنا الزمـــــــان وكلنَا　　　نبكى على شجنٍ من الأشجان

يا أخى، من لم يكن له مثل تقواهم لم يَدْرِ ما الذى أبكاهم، من لم يشاهد جمال يوسف لم يَدْرِ ما الذى آلم قلبَ يعقوب.

شعر:

من لم يبت والحــب حشو فؤاده　　　لم يدر كيف تُفتتُ الأكبـــــاد

قال ابن أبى الحوارى[1]: دخلت على أبى سليمان[2] فوجدته يبكى، فقلت له: يا أستاذ ما الذى أبكاك؟، فقال لى: يا أحمد إذا جَنَّ الليل على المحبين صَفُّوا أقدامهم، وأجْرُوا دموعَهُم على خدودهم، فإذا كانوا كذلك أشْرَفَ الحقُّ عليهم ونادى: يا جبريل بعينى من تلذذ بكلامى، واستراح إلى مناجاتى، وأنا المطلع عليهم، اسمع حنينهم، فناد فيهم: ما هذا الجزع الذى أراه بكم؟، هل أخبركم مخبر أن حبيبا يعذب حبيبه فى النار؟، فبعزتى حلفت لأجعلنَّ هديتى لهم إذا وردوا علىَّ يوم القيامة أن أكشف لهم عن وجهى الكريم، ثم أنظر إليهم، وينظرون إلىّ. . . افتلومنى يا أحمد إن بكيت عن تخلفى عن هؤلاء القوم[3].

---

(١) تقدمت ترجمته.　　　(٢) أبو سليمان الدارانى، تقدمت ترجمته.
(٣) الخبر فى الحلية (١٠/١٦ ـ ١٧).

شعر:

أما وغرامى حلفة أستلذهـــــا ... لقد كدت من ذكراك بالروح أشرق

وأهدى ما ألقى من الحب أننى ... على النأى أطفو فى الدموع وأغرق

واأسفاً لمنقطع دون الركب، متأخر عن لحاق الصحب، يعد الساعات فى متى ولعل، ويخلو بفكره فى بيت عسى، ذكر الوصال فى زمن الهجر تلفٌ، خصوصاً إذا لم يكن من الحبيب خلف.

قال ابن مسروق[١]: كنت أمشى مع الجنيد فى بعض دروب بغداد فسمع منشدا يقول:

منازلاً كنـــت تهواهَا وتألفهـا ... أيـــام كنت علـى الأيام منصور

قال: فبكى الجنيد [٢]بكاءً شديد وقال: ما أطيبَ منازل الألفة والأُنُس، وما أوحشَ مقامات المخالفة والهجر.

شعر:

ياليلتى بذات الشيح والضال[٣] ... ومنبتُ البانِ من نعمان عودا لى

يا مرابعَ أطلالٍ بذى سلمٍ ... لهفى على ما مضى من عصرك الخالِ

ويا مآرب نفسى والذين هم ... بالوصل والهجر أعلالى[٤] وأبلالى[٥]

قد كان قلبى بكم مأوى السرور فمذ ... نأيتم صار مأوى كل بلبالى[٦]

فلو شريت بعمرى ساعة سلفت ... من عيشتى معكم ما كان بالغالِ

ما لى أعلل نفسى بالوقوف على ... منازلٍ أقفرت منكم وأطلال

من لى بكتمانِ ما ألقاه من ألمٍ ... وظاهر معربٌ عن باطنِ الحالِ

قالوا: تشاغل عنا واصطفى بدلاً ... منا وذلك فعل الخائنِ السالى

---

(١) أبو العباس الطوسى، أحمد بن محمد بن مسروق، أصله من طوس، لكنه سكن بغداد ومات بها سنة ٢٩٨هـ ويلغ أربعاً وثمانين سنة عند وفاته، انظر: صفة الصفوة (ت٦٩١).

(٢) تقدمت ترجمته.

(٣) الشيح والضال: من نباتات البادية.

(٤) اعلالى: أمراضى.

(٥) أبَلَّ فلان من مرضه: برأ وشفى منه.

(٦) البَلْبَال: شدة الهم والوسواس فى الصدور وحديث النفس.

وكيف أشغل قلبى عن محبتكم ... بغير ذكركم ياكل أشغالى[1]

[مصيبتنا واحدة]

واشوقاه إلى أرباب الإخلاص، واتوقاه إلى رؤية تلك الأشخاص، قيدتنا والله قيود الشواغل عن سبيل المكارم، وكيف يطمع فى لحاق الطير مقصوص القوادم؟[2]، فتعالوا بنا نصيح بالسائرين لعل عطفا ينعطف علينا بعطفة رحمة فقد تَرِقُّ الساقة لأهل الفاقة.

شعر:

ردوا لنا يوماً ولو ساعة ... على الغضا من عيشنا الزائل

لى ذِلةُ السائِل ما بينكم ... فلا تفتكم عزة البـــاذل[3]

إخوانى: مصيبتنا فى التفريط واحدة، وأهل المصائب أهل واحدة، ومجالس الذكر مأتم الأحزان؛ هذا يبكى لذنوبه، وهذا يندب لعيوبه، وهذا على فوات مطلوبه، وهذا لإعراض محبّوبه.

شعر:

يتشاكى الواجدون جوى ... واحداً والوجدُ ألوانُ

يا نائح الفكر نَضِّد، يا نادب الحزن عَدِّد، يا لائم النفس شَدِّد، يا رامى القلب سَدِّد، يا جامع الدمع بَدِّد، يا مطرب السر رَدِّد، يا مقلق الوجد هدد.

شعر:

نشدتك يا بانة «الأجرى» ... متى رحَــل الحــىُّ من «العلع»

وهل مَرَّ قلبى فى التابعين ... أم حـــار ضعفا فلـــم يَتْبَع

رأيت له بين تلك القلوب ... إذا اشتبهــت أَنَّةَ المـــوجع

أَدِرْ يَا نديمى كأس الحـــديث ... فكأسى بعـــدهم مـدمعـــى[4]

---

(1) فى المدهش (ص٤١٧) نسب الأبيات للمهيار. (2) القوادم: أربع ريشات فى مُقدم جناح الطائر.

(3) فى المدهش (ص٤١٢) نسب الأبيات للمهيار، قال محققه: وهى فى ديوانه (٣/ ٢١٨).

(4) فى المدهش(ص٤١٢) نسبها للمهيار، قال محققه: وهى ضمن قصيدة طويلة فى ديوانه(٢/ ٢٤٢ـ ٢٥٠).

الفصل السادس والعشرون

[المهد عنوان اللحد]

اسمع يا مقيماً فى دائرة دار الغيَر، كم حضرت فيها عبدا محتضر؟، كم عاينت قبراً يُحتفر؟، لقد آلانت مواعظها كل صلد حجر، أما مصير التلف نذير الخلف؟، أما اضطجاع الطفل فى المهد عنوان اللحد؟، تذكر يا من جنى ركوب الجنائز، تصور يا من ما وفى طول المفاوز.

شعر:

بينا ترى الإنسان يرتع لاهيا والعيش أخضـر والزمان نضير

وافاه خَطْبٌ لا يقوم لحسرة رَضْوى[١] ولا يقوى عليه ثبير[٢]

[أعدَّ الزاد]

قال أبو الطفيل[٣]: جاء رجل إلى داود الطائى[٤] فقال له: قد عرفت الرحم التى بينى وبينك فعظنى بموعظة أنتفع بها، فدمعت عيناه ثم قال: يا أخى إن الليل والنهار مراحل، ترتعها مرحلة مرحلة، إلى أن تبلغ دار الإقامة، فإن استطعت أن تقدم كل مرحلة زاداً فافعل، وإن الأمر أعجل[٥].

قال أبو الحسن النورى[٦]: قالت النملة لسليمان بن داود عليهما السلام: أتدرى لم سُخِّرت لك الريح من بين الأنبياء؟، قال: لا أعلم، قالت: ليعلمك أن ما آتاك من الملك زواله عنك كسرعة الريح؛ فلا تغتر به.

---

(١) رضوى: جبل بالمدينة. (٢) ثبير: جبل مكة.

(٣) محمد بن إشكاب الصفار.

(٤) داود بن نصير الطائى، أبو سليمان (ت١٦٥هـ = ٧٨١م)، من أئمة الصوفية، أصله من خراسان، ومولده بالكوفة، ثم رحل إلى بغداد، فأخذ عن أبى حنيفة وغيره، وعاد إلى الكوفة فاعتزل الناس ولزم العبادة إلى أن مات.

انظر: الأعلام (٢/ ٣٣٥)، صفة الصفوة (٤٤٢)، الحلية (٧/ ٣٣٥)، وفيات الأعيان (١/ ١٧٧)، تاريخ بغداد (٨/ ٣٤٧).

(٥) الخبر فى الحلية (٧/ ٣٤٥ـ ٣٤٦)، صفة الصفوة (٣/ ٩١).

(٦) أحمد بن محمد المعروف بالنورى، أبو الحسن، أحد أئمة العباد، يُعرف بابن البغوى، صحب سريا السقطى، توفى سنة ٢٩٥هـ. ، انظر ترجمته فى: الحلية (١٠/ ٢٤٩)، صفة الصفوة (٣٠٤).

اسمع، يا من تحدثه الآمال فيستمع، وتُخَوِّفه الآجال فلا يرتدع، وصل الصالحون إلى المنى يا منقطع، صبروا قليلاً فتنعموا طويلاً فكأنه ما جاع قط مَن شبع.

قال الكسائي: كنت بمصر، وكان الخبز كذا وكذا بدرهم، ورأيت الكلاب يعافون الخبز، ومَرَّ عليَّ أيام لم يفتح عليَّ فيها بشيء، فلما اشتد بى الجوع قلت: إلهى تشبع الكلاب وأنا جائع؟، فنوديت فى سرى: أتريد أن أهب لك مصر وتُسلب ما فى قلبك؟، فقلت: لا والله.

الإقالة الإقالة، إسراف الأوصاف أوصاف الإسراف، سادات العادات عاداتَ السادات، أحرار الشيم شيم الأحرار، أقْدَمُوا على الفضائل وتأخرت، وكتموا سر محبوبهم وأظهرت.

[أولياء الله يكتمون أحوالهم]

كان ابن أبى ليلى[(١)] إذا دخل داخل وهو يصلى اضطجع على فراشه[(٢)].

وكان إبراهيم النخعى[(٣)]: إذا قرأ فى المصحف ودخل عليه داخل غطاه[(٤)].

قيل: كان لسهل بن عبد الله خادم يقال له إبراهيم، فاستأذنه فى السفر إلى مكة المشرفة، فأذن له وأوصاه بأمور وقال له: إذا دخلت بيت المقدس فاطلب موضع كذا وكذا، فإن فيه شابا عليه أطمار رثة، نحيل الجسم، مُصْفَرّ اللون، أكثر أوقاته رأسه بين ركبتيه، فَسَلِّم عليه عنِّى، واسأله الدعاء، ثم ودِّعه وسار..، قال: فلما حَجَّ ورجع دخل على سهل[(٥)]، ونحن جلوس عنده، فَقَبَّل يده وجلس، فجعل يسأله عما جرى له فى سفره، فأخبره، ثم سأله عن ذلك الشاب

(١) عبد الرحمن بن أبى ليلى الأنصارى المدنى، ثقة، كان قاضيا عابداً، حديثه فى الكتب الستة، مات فى موقعة الجماجم سنة ٨٦هـ، انظر: التهذيب (٦/ ٢٦٠)، التقريب (١/ ٤٩٦)، الحلية(٤/ ٣٥٠).

(٢) الخبر فى الحلية (٤/ ٣٥١).

(٣) إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعى، الإمام الحافظ، فقيه العراق، الثقة الزاهد العابد، حديث فى الكتب الستة، مات سنة ٩٦هـ، انظر: الحلية (٤/ ٢١٩)، صفة الصفوة (ت٤١٢)، التقريب (١/ ٤٦)، طبقات ابن سعد (٦/ ٢٧٠)، التاريخ الكبير (١/ ٣٣٣)، التهذيب (١/ ١٧٧)، شذرات الذهب (١/ ١١١)، تذكرة الحفاظ (١/ ٦٩)، الأعلام (١/ ٨٠).

(٤) الحلية (٤/ ٢٢٠).

(٥) سهل بن عبد الله التسترى، تقدمت ترجمته.

الذى ببيت المقدس، فقال: لقيته وبَلَّغته السلام، ثم أمسك عن الكلام هيبة للشيخ، فلما قام الشيخ انفردنا به وسألناه، فقال: دخلتُ بيت المقدس وجئت إلى الموضع الذى وصفه الشيخ، فوجدت الشاب بصفته ونعته، فلما أبصرنى قال: دَلَّكَ علىَّ سهل؟، وعزة ربى لأفْضَحَنَّه كما فضحنى، امْضِ فإن سهلا خلف تلك الاسطوانة[1]، قال: فمضيت فوجدت سهلا عند الاسطوانة قائما يُصَلِّى، فغشيتنى منه هيبة حتى أُغْمِى علىَّ، ثم أفقت فلم أجد الشيخ، وأتيت موضع الشاب فلم أجده.

واعجبا كيف يورى المحب غير محبوبه ويدامع، وما يخفى مقصوده على السامع.

شعر:

أخفى كمدى به ودمعى	فى الخد على هواه شاهد
فالجفن بلوعتى مقــر	للعــاذل واللســان جاحـد

اشتهر إبراهيم بن أدهم[2] ببلد فطلبه الناس، فقيل: هو بالبستان الفلانى، فدخل الناس البستان وجعلوا يطوفون ويقولون: أين إبراهيم بن أدهم؟، فجعل يطوف معهم ويقول: أين إبراهيم بن أدهم؟.

اسمع يا أخى هذا أدب المحبين ويتبهرجون على الخلق بستر الحال.

شعر:

قد جرر الناسُ أذيال الظنون بنا	وفَرَّق النــاس فينــا قولَهم فِرَقًا
فكاذبٌ قد رمى بالظــن غيركم	وصادقٌ ليس يدرى أنه صَدقا[3]

لما مرض إبراهيم بن أدهم جعل عند رأسه ما يأكله الأصحاء لئلا يتشبه بالشاكين.. وهذه والله بهرجة أصح من نقدك.

وقيل: قُرئ على أحمد بن حنبل أن طاووساً كان يكره الأنين فما أنَّ حتى مات.

---

(١) الاسطوانة: سارية بالمسجد. (٢) تقدمت ترجمته.

(٣) فى المدهش (ص٤٠٠) نسب البيتين للعباس بن الأحنف، قال محققه: وهى فى ديوانه (١٩٩- ٢٠٠).

شعر:

تفيض نفوس بأوصابهـا [١] وتكتـم عـوَّادَها ما بهـا

وما انقصفت مهجة تشتكـى هواها إلى غير أحبابها[٢]

لما هم الطبع بالتأوه من البلاء كشفت الحقائق سُجُف[٣] المحبوب فلم يبق لتقطيع الأيدى أثر.

[الرضا بقضاء الله]

قال الحسن بن أبى الحسن البصرى[٤]: دخلتُ بعض الديرة فإذا أنا بمجنون مُقيَّد مغلول مشدود إلى سارية، فَسَلَّمْتُ عليه، فَرَدَّ علىَّ السلام، وسمَّانى باسمى، فقلت له: ومن أين عرفتنى؟، قال: جالت روحى وروحك فى الأسرار، فعرفتك بمعرفة الجبار، فقلت له: أراك حبيبا فكيف رضيت لنفسك هذه الحالة؟! فقال: يا حسن، وكيف لا أرضى ما رضى لى به محبوبى؟!.

شعر:

إن كان جيران الغضى رضوا بقتلى فَرِضَا

صرت لهم عبداً وما للعبد أن يعترضا

والله لا كنت لما يهوى الحبيب مبغضا

من لمريض لا يرى إلا الحبيب ممرضا

ضنى سويد بن شعبة[٥] على فراشه فكان يقول: والله ما أحب أن الله نقصنى منه قلامة ظفر[٦].

قال بعضهم: مررتُ على مجذوم وقد مَزَّقه الجذام، فقلت له: لو تداويت!، فقال: لو أذن ما توانيت، قلت: فما تجد لما أنت فيه كربا؟، قال: ولو قطعنى

(١) الوصب: التعب.

(٢) فى المدهش (ص١٠٤) نسب البيتين لصردر . . .، قال محققه: وهى فى ديوانه (ص١٣٨).

(٣) السِّجاف: السِّتر، والجمع سُجُف.

(٤) تقدمت رجمته.

(٥) سويد بن شعبة اليربوعى التميمى، ترجم له ابن الجوزى فى صفة الصفوة (٣٩٦).

(٦) الخبر فى صفة الصفوة (٣/٢٦).

أربا أربا مازدت له إلا حباً.

إخوانى: بلغت بالقوم المحبة إلى استحلاء البلاء، فوجدوا فى التعذيب عذوبة، لعلمهم أنه مراد الحبيب.

شعر:

أرضى رضاه ولو أفضى إلى تلفى		وكل ما يفعل المحبوب محبوب

[صلب ماهان العابد]

قيل: لما أمر الحجاج بصلب ماهان[1] العابد رفع على الخشبة وهو يسبح ويهلل حتى بلغ سبعا وعشرين، فبقى شهر بعد موته ويده على ذلك العقد[2].

شعر:

لتحشرنَّ عظامى بعـــدما بليـت		يوم الحساب وفيها حبكم باقى

اسمع يا مقيداً بقيود التعويق، أين أنت والطريق؟!، سبيل نصب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورمى فى النار الخليل، وأُضجع للنحر إسحاق[3]،وبيع يوسف بدراهم، ونُشر بالمنشار زكريا، وذُبح الحصور يحيى، وضنى بالبلاء أيوب، وزاد على المقدار بكاء داود، وتنغص فى العيش مُلك سليمان، وتحير بِرَدِّ ﴿لن﴾[4] موسى، وهام مع الوحش عيسى، وعالج الفقر محمد ﷺ.

شعر:

فيا دارهم بالحزن إن مزارها		قريبٌ ولكن دون ذلك أهوالُ

---

(١) عبد الرحمن بن قيس، أبو صالح الحنفى، أو أبو سالم، ترجم له أبو نعيم فى الحلية (٤/ ٣٦٤)، وابن الجوزى فى صفة الصفوة (٤٠٩).

(٢) الخبر فى صفة الصفوة (٣/ ٤٧)، والحلية (٤/ ٣٦٤).

(٣) اختلف بعض أهل العلم فى تعيين الذبيح: هل هو إسحاق أم إسماعيل؟، والصحيح المقطوع به هو أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق، وليس بسط ذلك ههنا، انظر: إغاثة اللهفان (٢/ ٦٧٢ـ ٦٧٥)، تفسير ابن كثير (٣/ ١٩ـ ٢٥)، البداية والنهاية (١/ ١٦٢ـ ١٦٥)، زاد المعاد (١/ ١٦)، رسالة: «القول الفصيح فى تعيين الذبيح»، للسيوطى وهى ضمن كتابه الحاوى (١/ ٤٩٢ـ ٤٩٨).

(٤) يعنى قوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

[ليس كل الخيل تصلح للسِّباق]

هذه الجادة فأين السالك؟، هذا قميص يوسف فأين يعقوب؟، هذا طور سيناء فأين موسى؟، يا جنيد احضر، يا شبلى اسمع، ليس كل الخيل للسباق، ولا كل الطير تحمل الكتب، مِن الناس مَن يشغله فى الدنيا سواد، ومنهم من لا يلهيه فى الجنة قصر، ولا يشغله عن حبيبه نهر.

شعر:

تقول أناس فلو تناسى وصالها ... وواصل أخرى غيرها لسلاها

فلا نظرت عين تلـذ بغيرهـا ... ولا بقيت نفس تحب سواهـا

يا هذا، طر بجناح الجد من وكر الكسل، تابع آثار الأحباب تصل، يا شباب الجهل، يا كهول التفريط، يا شيوخ الغفلة، هَلُمّوا إلى مأتم الأسف على فوات المطلوب، يا سحائب الأجفان أمطرى على خراب رباع القلوب.

شعر:

يا من تجنب صبرى فى تجنبه ... هب لى مع الدمع ما أبكى عليك به

حتى متى زفراتى فى تصاعدها ... إلى الممات ودمعى فى تَصَوُّبه؟

ولى فؤادٌ إن طال الغرام به ... هام اشتياقى إلى رؤيا معذبه

[اغسل العَثَرات بالعَبَرات]

إخوانى: سكران الهوى بعيد الإفاقة، فلو تَذَكَّر إقامة الحد زال السُّكْر، ويحك اغسل العثرة بعَبَرة[1]، وادفع الحوبة[2] بتوبة، مادام فى الوقت مهلة، وفى زمن السلامة فسحة، قبل أن ترى السمع والبصر قد كلاّ[3]، وتقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾[4] فيقال: ﴿كَلاَّ﴾[5]، قبل أن يكون دمع الأسى مِن جفن مَن أسى مُنْهَلاًّ، ويقال: هَلاّ كان هذا قبل هذا هلا.

(١) العبرة: الدمعة. (٢) الحوب: الإثم.
(٣) أى تَعِبًا. (٤) المؤمنون: ٩٩. (٥) المؤمنون: ١٠٠.

شعر:

قف بالديار فهذه آثارهُم تبكى الأحبة حسرةً وتَشَوُّقاً

كم قد وقفتُ بها أسائل مخبراً عن أهلها هل صادقا أو مشفقا؟

فأجابنى داعى الهوى فى رسمها فارقتَ من تهوى فعزَّ الملتقى

اسمع يا من كلما استقام تَغَيَّر، يا من كلما سار تعثر، يا من كلما قام قعد، يا من كلما تقرب أبعد، دُمْ على ملازمة الحزن، واستَرْوِح إلى دوام البكاء، وصِحْ بصوت القلق على باب دار الأسف.

شعر:

ليس لى فيك حيلة غير صبرى على القضا

وبكائى على الزمانِ الذى فات وانقضى

يا هذا لا تجزع من ذنب جرى، فرب زلة أورثت تقويما، تذكر قوله «لو لم تذنبوا»[1] ،ما لم يقع سهم فى مقتل فالعلاج سهل.

[التوحيد طريق الجنة]

قال مالك بن دينار[2]: رأيت بالبصرة قوماً يحملون جنازة، وليس معهم أحد، فسألتهم عنه، فقالوا: هذا رجل من كبار المذنبين، وعظماء المسرفين، وقد امتنع الناس من تشييع جنازته، وليس له صديق ولا حبيب، فتبعته حتى صليت عليه، وأنزلته فى حفرته، ثم انصرفت إلى ظل هناك فنمت، فرأيت ملكين قد نزلا من السماء فشقا قبره، ونزل أحدهما فقال له الآخر: لا تعجل عليه يا أخى واختبر عينيه، قال: فرجع وقال: لقد اختبرتهما فوجدتهما مملوءتين بالنظر إلى ما لا يحل، قال: فاختبر لسانه، قال: اختبرته فوجدته مملوءا بالخوض فى الباطل، قال: فاختبر أذنيه، قال: قد اختبرتهما فوجدتهما مملوءتين بسماع ما لا يحل، قال: فاختبر يديه قال: قد اختبرتهما فوجدتهما مملوءتين بتناول الحرام، قال: فاختبر رجليه، قال: لقد اختبرتهما فوجدتهما مملوءتين بالسعى إلى المحرمات، فقال له: يا أخى لا تعجل ودعنى أنزل إليه، فنزل إليه، وأقام ساعة، ورجع ثم

---

(١) تقدم تخريجه. (٢) تقدمت ترجمته.

قال لصاحبه: يا أخى اختبرت قلبه فوجدت فيه ذرة من التوحيد؛ اكتبه مرحوما.

شعر:

لا تيأسن وإن أسأت فربما   صفح الجليل عن الجليل الهائل

[العافون عن الناس]

روى فى بعض الأخبار أنه يؤتى يوم القيامة برجل فيحاسبه الله فلا تبقى له حسنة، فيقول الله عز وجل: يا عبدى هل تجد شيئا من الأعمال الصالحة تقيك من عذابى؟، فيقول: لا يا رب، لم تترك لى الشهوات ولا أبقت لى اللذات شيئاً من الأعمال الصالحات، غير أنى كنت فى الدنيا أعفو عمن ظلمنى، فيقول الله عز وجل: صدقت يا عبدى، هكذا كنت تفعل، وأنا اليوم أحق بالعفو عنك، وأحق بالجود على فقرك وفاقتك[1]، اذهب فقد غفرت لك.

شعر:

اطلبوا لأنفُسِكُم مثل   ما وجدتُ أنا

قد وجدتُ سكَنًا   فى هواه غِنًا

إن دنوتُ قربنى   أو بعدتُ عنهُ دَنا

الفصل السابع والعشرون

[عقدة العهد مع الله]

اسمع يا من عهدنا معه يوم: ﴿أَلَسْتُ﴾[2] لا تحلن عقدة العهد بأنامل الزلل فما يليق بشرف قدرك خيانة.

شعر:

بِحُرْمَةِ الودِّ الذى بَيْنَنا   لا تُفْسِدُوا الأوَّلَ بالآخِرِ

يا هذا، اذكر مطالبتك بالوفاء وأنت فى أضيق خناق، يا منكر يا نكير انزلا إلى الخارج من بساتين الأرياح فانظروا هل استصحب وردة من اليقين أو شوكة

(1) الفاقة: الفقر والحاجة.

(2) الأعراف: ١٧٢.

من الشك؟.

شعر:

ألا حبذا نجد وطيبَ ترابِهِ   وأرواحه إن كان نجدٌ على العهدِ[1]

شجرات ﴿أَلَسْتُ﴾[2] تسقى من مياه: «هل من سائل»[3].

شعر:

إذا مرضنا أتيناكم نزوركم   وتُذنبون فنأتيكم فَنَعتَذِرُ

قال أبو القاسم القشيرى[4]: إن من كرم الله سبحانه وتعالى أن أضاف التوبة على العبد إلى نفسه فالعبدُ يذنب وهو يتوب عليه، وهذا غاية الكرم.

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً. يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ أمة مذنبة ورب غفور.

[الشيطان ويوم عرفة]

يروى فى بعض الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه دعى لأمته عشية عرفة واستغفر الله لهم، فأوحى الله إليه: «أنى قد غفرت لهم ما بينى وبينهم، ولم أغفر لهم ظلمهم بعضهم لبعض»، فزاد فى الاستغفار وقال: «إنك قادر على أن ترضى خصومهم»، فلم يجبه تلك الليلة، فلما كان غداة المزدلفة أوحى الله تعالى إليه بالإجابة، فتبسم ﷺ وقال: «عجبت من عدو الله إبليس لما أجاب الله دعائى صاح بالويل والثبور، ووضع التراب على رأسه».

---

(١) فى المدهش (ص٣٤٥) نسب البيت لقيس المجنون.

(٢) الأعراف: ١٧٢.

(٣) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال:
«إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائل يُعْطَى؟، هل من داع يستجاب له؟، هل من مستغفر يُغفر له؟.. حتى ينفجر الصبح». [رواه مسلم (٧٥٨)].

(٤) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابورى القسيرى (٣٧٦ـ ٤٦٥هـ= ٩٨٦ـ ١٠٧٢م) أبو القاسم، شيخ خراسان فى عصره، زاهد، عالم بالدين، صاحب الرسالة القشيرية، لطائف الإشارات، انظر: وفيات الأعيان (١/ ٢٩٩)، تاريخ بغداد (١١/ ٨٣)، الأعلام (٤/ ٥٧). (٦) النساء: ٢٧ـ ٢٨.

وفى بعض الروايات، أن رسول الله ﷺ كان فى بعض أسفاره فَمَرَّ بامرأة ومعها صبى لها، فقيل لها: إن رسول الله ﷺ يمرُّ بك، فلما مرَّ قالت: يا رسول الله بلغنى أنك قلت: إن الله أرحم بعباده منِّى بولدى، أفهو كما قيل إلىَّ؟، قال: «نعم»، قالت: فإن الأم لا تلقى ولدها هذا فى التنور[1]، قال: فبكى رسول الله ﷺ وقال: «إن الله لا يعذب إلا مَن أنف أن يقول لا إله إلا الله»[2].

وقد ورد فى بعض الأخبار أنه يؤتى يوم القيامة بشيخ فيوقف بين يدى الله عز وجل فيقول له: يا شيخ ما أنصفت، غَذَّيتك بالنعم صغيرا، فلما كبرت عصيتنى، أما إنى لا أكون لك كما كنت لنفسك، اذهب فقد غفرت لك.

فسبحان مَن على الكل فَضَّلك، ولتوحيده أَهَّلك، وبوصف اصطفائه جَمَّلك.

وأيضاً ورد فى بعض الأخبار أن الله تعالى خلق لجبريل عليه السلام ستمائة جناح، كلها مرصعة بالدر والياقوت وجلاجل الذهب، محشوة بالمسك، ولكل جلجل منها صوت لا يشبه صوت الآخر، وأن إسرافيل عليه السلام إذا أخذ فى التسبيح عطَّل على الملائكة تسبيحهم بحُسن صوته وطيب نغمته، وأن نور العرش لو بدا لصار نور الشمس بالإضافة إليه كنور السراج بالإضافة إلى نور الشمس، إلى غير هذا من أنوار المخلوقات.

ثم أنه جل جلاله وتقدست أسماؤه لم يقل لشىء منها خلقته ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[3] إلا لهذا الشخص المخلوق ﴿مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾[4].

[أنت والملائكة]

عرضت سلعة العبودية فى سوق البيع فبذلت الملائكة نقد ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾[5] فقيل: ما تؤثر سكة دراهمكم، فإن عجب الضارب بسرعة الضرب أوجب طمسا فى النقش، فقال آدم: ما عندى إلا فلوس إفلاس نَقْشُها: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾[6]

---

(1) التنور: الفُرن.
(2) ابن ماجه (٤٢٩٧) بنحوه، وإسناده ضعيف.
(3) التين: ٤.
(4) المؤمنون: ١٢.
(5) البقرة: ٣٠.
(6) الأعراف: ٢٣.

فقيل: هذا الذى ينفق علينا من خزانه الخاص، أين المذنبين أحب إلينا من زجل[1] المسبحين، انظر إلى سبق محبته لهم قبل إيجادهم بقول: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[2]، هل قال هذا لملك مُقَرَّب؟، أو مخلوق على جمال الصورة مُرَكَّب؟، كلا إن هذا لأولاد آدم خصوصية، ولهم بها على أمثالهم مزية، فضلا من الله عز وجل ونعمة، وإحسانا بدأهم به ومنة عليهم ورحمة، ما يحتاج أن نناظر الملائكة بالأنبياء، بل نقول: هاتوا مثل عُمَر، كل الصحابة هاجروا سراً وعُمَر هاجر جهراً، وقال للمشركين قبل خروجه: ها أنا على عزم الهجرة، فمن أراد أن يلقانى فليلقنى فى بطن هذا الوادى.

للعزائم رجال ليسوا من أبنائنا، وطنوا أنفسهم على الموت، فحصلت لهم الحياة، الحيوان المميز على ثلاثة أقسام: فالملائكة خلقت من صفاء لا كدر فيه، والشياطين من كدر لا صفاء فيه، والبشر مركب من الضدين، فالعجب أن تقوى هذه على التقوى، تقديس الملائكة يدور على ألسنة لاتشتاق إلى الفضول بالطبع، سبح تسبيحهم عقود ما نظمتها أكف التكليف، ثمرات زروعهم نشأت لا عن تعب، سقاها سيح[3] العصمة فكثر فى زكوات تعبدهم قدر الواجب: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾[4]، فلما جرى بحر الأمانة يوم ﴿إِنَّا عَرَضْنَا﴾[5] وقفت الملائكة على الساحل، ونهضت عزيمة الآدمي لسلوك سبيل الخطر بلا لا، لإقدام المحبين أقدام.

شعر:

يا ساكنى رامة ما صبونى نكر	بالظاعنين ولا وجدى بِهِمْ عجبُ
لا تُنْكِروا قَلَقَ المشتاقِ بَعْدَهُمُ	فما الهوى عبثٌ منَّا ولا تعبُ
هو الغرامُ فأولى صبرنا جزع	إذا توالى وأدنى فعله عجبُ

كم فى السموات من ملك يسبح مالهم مرتبة ﴿تتجافى﴾[6]، ولا يعرف طعم

---

(١) الزجل: الجلبة واللعب ورفع الصوت، وخُصَّ به التطريب والغناء.
(٢) المائدة: ٥٤.
(٣) السَّيح: الماءُ الظاهر على وجه الأرض.
(٤) الشورى: ٥.
(٥) الأحزاب: ٧٢.
(٦) السجدة: ١٦.

طعام: «هل من سائل»[1]، ولا حظى بمقام: «ولخلوف»[2]، فسبحان من اختارك على الكل، وجادَل عنك قبل وجودك بقول: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾[3]، يا جوهرة مضيعة، يا لقطة تداس، كل الأشياء مخضة وأنت الزبد، مكتوب اختيارنا لك واضح الخط، غير أن استخراج عقلك ضعيف، متى رمت طلبى فاطلبنى عندك.

يروى أن موسى عليه السلام قال فى مناجاته: يا رب إذا سألك العارف وقال يا رب ماذا تقول له؟، قال: لبيك، قال: فإذا سألك العابد ماذا تقول له؟، قال: لبيك. قال: فإذا سألك العاصى ماذا تقول له؟ قال: لبيك مرتين، فال موسى: يا رب كيف ذلك؟، قال: لأن كلاً من هؤلاء مدل[4] بعمله، والعاصى لم يُقبل علىَّ إلا بعد افتقاره إلىَّ، فهو ينادى بِذُلِ وافتقار وخضوعِ وانكسارِ، «وأنا عند المنكسرة قلوبهم»[5].

[باب الذُّل]

يا معاشر المذنبين لا تبرحوا من باب الذل فأقرب الخطائين إلى العفو المعترف بالذلل، ما انتفع آدم فى بلية ﴿وَعَصَىٰ﴾[6] بكمال ﴿وَعَلَّمَ﴾[7] ولا رد عنه هز ﴿اسْجُدُوا﴾[8] وإنما خلصه ذل ﴿ظَلَمْنَا﴾[9].

قال السرى[10] رضى الله عنه: بت ببعض قرى الشام فسمعت طائرا على شجرة يقول: أخطأت لا أعود، فقلت لأهل القرية: ما اسم هذا الطائر؟ قالوا: فاقد إلفه.

شعر:

تَأَوَّهَـــتْ تأوُّه الأسيـــــر ورقاءُ فوق ورقِ نضيرِ

(١) تقدم تخريجه.

(٢) من حديث الصيام: «ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك». [رواه البخارى (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١)، والترمذى (٧٦٤)، والنسائى (٤/ ١٦٢)، وابن ماجه (١٦٣٨)، والدارمى (١٧٦٩)، ومالك (ص٣١٠)، وأحمد (٢/ ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٥٧، ٢٦٦، ٢٧٣، ٢٨١) عن أبي هريرة.

(٣) البقرة: ٣٠.

(٤) الدلّة المنّة، والأدلّ: المنّان بعمله.

(٥) لا أصل له مرفوعا، انظر: كشف الخفاء (ح٦١٤).

(٦) طه: ١٢١.

(٧) البقرة: ٣١.

(٨) البقرة: ٣٤، الأعراف: ١١، الإسراء: ٦١، الكهف: ٥٠، طه: ١١٦.

(٩) الأعراف: ٢٣.

(١٠) سرى السقطى، تقدمت ترجمته.

تَنْطِقُ عَنْ قَلْبٍ لها مكسور كأنَّها تخبر عن ضمير[1]

ما أحسنَ خضوع التواب، ما ألذَّ وقوفهم على الباب، فاعتبروا يا أولى الألباب.

شعر:

يا سَائلى عَنْ حُكْمِ سُلْطان الهوى	هلا نظرتَ لِعِزِّهِ وهوانى
أو ما ترانى كيف ذُبْتُ صَبَابَةً	خوفَ النوى وحبيب قلبى دانى
يَا ويحَ صبٍ فى هواكَ متيمٌ	لَمْ يَشْتَغِلْ مَنْ هامَ فيكَ بثانى
أفنيتنى عَمَّن سِوَاكَ تَعَزُّزًا	فبقيتُ مُرْتَهنا بِحبِّكَ عَانى
فامْنُنْ علىَّ بنظرةٍ أحيا بها	فالصبر بَعْدَكَ خَانَنى وجفانى

[إلى متى تجرى فى الهوى؟]

نزل آدم عن مقام المراقبة فكان يبكى على ديار الوفاء، بَرْدُ النفس بالهوى لحظة أثمر حرارة القلق ألف سنة، وأنت تلهو برند الصبا وبانه، ويروقك برق الهوى بلمعانه، وتغتر بعيش فى عنفوانه، فتمد يد الغفلة لجنى أغصانه، وتنسى أنك حريم حظره وامتحانه، أما أنذركَ بياضُ الشمط؟، أما يبكيك قبح ما منك فَرَطَ؟، إلى متى تجرى فى الهوى على نمط؟، إلى متى تضيع وقتاً ما مثله يلتقط؟، يا من يهفو وينسى والملك قد ضبط؟ يا منفقا نعم المولى على العصيان هذا هو الشطط.

قيل: وقف جماعة على راهب فقالوا له: إنا سائلوك عن مسائل أومجيبنا أنت؟ قال: سلوا ولا تكثروا؛ فإن النهار لن يرجع، والقمر لن يعود، والطالب حثيث فى طلبه ذو اجتهاد، قالوا: أوْصِنَا يا راهب، قال: تَزَوَّدوا على قدر سفركم فإن خير الزاد ما بلغ المحل.

شعر:

حَياتُك أنفاسٌ تُعَدُّ فكلما	مضى نَفَسٌ منها انقَصت به جزءا
فتصبحُ فى نقصٍ وتأتى بمثله	أما لكَ معقول تحسُ به رزءا

(1) فى المدهش (ص٤٠٧) نسب الأبيات للمهيار، قال محققه: وهى فى ديوانه: (١/ ٣٤٥).

يُميتُكَ ما يُحييكَ فى كلِ ساعةٍ ويحدوك حادٍ ما يريد بكَ الهزءا

يروى عن بعضهم أنه قال: دخلت على فقير فلم أجد فى بيته شيئا من المتاع، فقلت له: أما عندك شيء من المتاع؟، قال: بلى، ولكن لنا داران، دار خوف ودار أمان، فنقلنا ما كان فى دار الخوف إلى دار الأمان؛ ليكون محفوظا إلى وقت الحاجة، يعنى بذلك إنفاقه فى سبيل الله.

أين وصفك من أوصاف القوم؟، أين اليقظة من النوم؟، صعد القوم ونزلت، وجدُّوا فى الجدِّ وهزلت، كانوا فى طلب العلا يجتهدون، ولا يرضون من الدنيا بدون، لا جرم إنهم كانوا يعانون فيما يعانون، لم يزل القوم مع الحق حاضرون، وعن الخلق غائبون، فقولوا لعاذليهم: لمن يعذلون.

قيل: بقى بشر[1] خمسين يشتهى شهوة وما صفا له ثمنها، وقد أنفقتم بضائع أعمالكم كلها فى الشهوات من الشبهات، أبشروا بطول المرض يا مخلصين.

قال بنان الحمال[2]: أقمت مطروحا على باب بنى شيبة سبعة أيام لم أذق شيئا، فنُوديت فى سرى: مَن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أعمى الله عين قلبه.

يا هذا: أكبر الإنعام عليك كَفُّ كَفِّ فضول الدنيا عنك، إذا رأيت سربال الدنيا قد تقلص عنك، فاعلم أنه لطف بك، لأن المنعِم لم يقلصه بخلا أن يتمزق ولكن رفقا بالماشى أن يتعثر.

[يا كاسب الخطايا بئس ما اكتسبت]

اسمع يا تائها فى فلاة الغفلات اعْلُ بأقدام الهمة نُشُزَ[3] الفكر تَلُح لك البلد، يا هذا كم أسرعت فيما يؤذى دينك ودأبت، كم كسرت إناء قلبك وما شبعت؟، كم فاتك من خير وما اكتأبت؟، يا كاسب الخطايا بئس ما كسبت، تؤثر ما يفنى على ما يبقى، ما أصبت، تصبح تائبًا فإذا أمسيت كذبت، تمشى مع اليقين فإذا قاربت انقلبت، تعمر ما لا يبقى وما يبقى خربت.

---

(١) بشر الحافى، تقدمت ترجمته.

(٢) تقدمت ترجمته.

(٣) النَّشَزُ: المُرْتفع من الأرض.

شعر:

دار تسافرُ عنها فى غدٍ سفراً فلا تؤوبُ إذا سافرتَ من سَفَرِك

تَفْنَحَى غدا سَمَرَ للذاكرينَ كما كان الذين مَضَوْا بالأسرِ من سَمَرِك

يحكى عن بشر الحافى[1] رضى الله عنه أنه قال: رأيت على بن أبى طالب[2] كرم الله وجهه فى المنام فقلت له: عظنى يا أمير المؤمنين، فقال لى: ما أحسن عطف الأغنياء على الفقراء طلبا للثواب، وأحسن من ذلك تيه[3] الفقراء على الأغنياء ثقة بالله، فقلت : زدنى يا أمير المؤمنين فقال:

قَدْ كنت مَيْتًا فصرت حيًا وعن قريبٍ تصير ميتًا

عزَّ بدار الفناء بيتٌ فابْنِ بدارِ البقاءِ بيتًا

الفصل الثامن والعشرون

[فَكِّر فى حال أبيك آدم]

يا ابن آدم: اشبهت أباك فى المخالفة فَتَشَبَّه به فى الندم، فالويل لمن أحكم عقدة الإصرار، أيها العاصى تفكر فى حالة أبيك، وتذكر بما جرى له ويكفيك، أُبعِدَ بعد القرب من ربه، وأُخْرِج من الجنة يوم ذنبه، وأسَرَهُ العدو بجدًّ بعثه فى حربه، وها هو يسعى فى هلاكك فاعتبر به.

يروى أن آدم عليه السلام قال فى مناجاته: إلهى لمَ عاتبتنى وقد علمت أنى إنما أكلت من الشجرة طمعا فى الخلود للبقاء معك؟، فأوحى الله تعالى إليه: لأنك رأيت الخلود من الشجرة، فأشركت فى سِرِّك ولم تشعر، ومع ذلك فقد أَقَلْتُ عثرتك، ورحمت عَبْرَتَكَ، وقَبِلْتُ توبتك.

وهذا هو الكرم أن يتوب على مَن أذنب ويعتذر عمن أخطأ.

شعر :

إذا مَرِضنَا أتيناكُم نَزُورُكم وتُذنبونَ فنَأتيكم فنعتذرُ

---

(١) تقدمت ترجمته. (٢) تقدمت ترجمته. (٣) التِّيه: الكِبْر.

قيل: إن أول ما خلق الله تعالى القلمَ كتب عذر آدم قبل خلقه، وإنما جعل آدم آخر الخلق لأنه مهد الدار قبل الساكن، وأقام عذره قبل الزلل بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]، والمحب يعتذر عن الحبيب، ألم تسمع إلى قوله: ﴿فَنَسِيَ﴾[2]، ونَبَّهَ الملائكة على تعظيمه بقوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[3]، فظنت الملائكة أن تفضيله بنفسه، فضنت بالفضل عليه، ونطقت ألسنة تسبيحهم بحجة تقديسهم فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾[4]، فأخرس ألسنة الاعتراض برد ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾[5]، واعجبا لهم قطعوا على الغير بلفظ ﴿مَن يُفْسِدُ﴾[6] وأمنوا الغير على النفوس فى دعوى ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾[7]، فلما صَوَّره ألقاه على باب الجنة أربعين سنة، ومن شأن المحب الوقوف على باب الحبيب.

شعر:

طرَقَتْك عزة والركائب حُسَّرٌ والصبح فى ليل الدُّجى يتغيرُ

طرقت لقاء عن التهاجرِ ميتا لكنَّــهُ عنــدَ التــزاورِ يُنشَرُ

رمى به فى طريق ذلك ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا﴾[8]، لئلا يعجب بنفسه يوم ﴿اسْجُدُوا﴾[9]، وإن كان إبليس يمر مع الملائكة على آدم وهو لا يدرى أن هلاكه على يده، فلما تم كمال آدم نودى فى نادى الملائكة: ﴿اسْجُدُوا﴾[10]، فتطهروا من وسخ دعوى ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾[11] بماء العذر من غدير ﴿لا عِلْمَ لَنَا﴾[12]، وسجدوا على طهارة التسليم، وقام إبليس خائبا لجناية الاعتراض، فلما تم حاله حام العدو حول حماه، ولولا سابقة القدر ما قدر عليه. قيل يا آدم ضحكت فى الجنة فانزل إلى دار التكليف وابكِ لنا.

---

(١) البقرة: ٣٠.. (٢) طه: ١١٥. (٣) الحجر، ٢٩، ص: ٧٢.

(٤) البقرة: ٣٠ (٥) البقرة: ٣٠. (٦) البقرة: ٣٠.

(٧) البقرة: ٣٠. (٨) الإنسان: ١.

(٩)، (١٠) البقرة: ٣٤، الأعراف: ١١، الإسراء: ٦١، الكهف: ٥٠، طه: ١١٦.

(١١) البقرة: ٣٠. (١٢) البقرة: ٣٢.

شعر:

سَلْ كَيفَ عاد لَهُ الجنون كما بدا ... يُخبِرْكَ هل عَزَلَ الغرامُ كما اعتدى

إن كان قرب الجمال وازمعوا ... بيتا فما أدنى اللقاء وأبعدا

هى فرقةٌ أهدت إلىَّ من الأسى ... حُرَقًا تزيدُ على العبادِ تَوَقُّدًا

لو قابلت حجراً لذابَ ومَنْ لهُ ... صبرٌ على نارِ تعذيبِ الجُلْمُدَا

لا تَعْذلوه فلو طاق تَجَلُّدًا ... يومَ النوى حذر العدا لتَجَلَّدَا

وَرَدَ الهوى قومٌ ورما ذاقوا القلَى ... يوما ولو ذاقوه عَافوا الموْرِدَا

يا مَنْ رأى البلوى وأثبت فِعْلَهَا ... نظرا كَمَنْ سَمِعَ البلية مَوْعِدَا

يا هذا، ما صيد طائر إلا بترك التسبيح، ما وقعت آفة ماجد إلا بسبب منه ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(١) آه كم غرس الأكل من شجرة من شجرات، كم أظهرت تلك المحبة للحبة من جنات، بكى آدم حتى سال من دموعه الوادى، ومنها نبت جميع أشجاره، يا آدم ما ضر من كسره غيرى إذا أجبرته أنا؟، «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى».

شعر:

إنْ جَرَى بينَنَا وبينَكَ عتبٌ ... أو تنـاءتْ منــا ومنـكَ الديارُ

فالودادُ الذى عهدتم مقيمٌ ... والدموعُ الذى غربت(٢) غزار(٣)

[من صفات العابدين]

قيل: إن العبد إذا التجأ إلى ربه بقلبه، دون أن يستعين بتدبيره، ولُبِّه، أو يستعين بأقرانه وصحبه، تعجلت له الكفاية فى عاجله، وتحققت له الولاية من الله فى آجله، فسبحان من وفق للتوبة أقواما، وثَبَّت لهم على صراطها أقداما، فكفوا الأكُفَّ عن المحارم احتراما، فكفر عنهم ذنوبا عظاما، ونشر لهم بالثناء على ما عملوا أعلاما، فهم فى رياض المدائح بترك القبائح يتقلبون.

(١) الرعد: ١١. (٢) أى سالت وجرت.

(٣) فى المدهش (ص٧٧) نسب الأبيات للبحترى.

التائبون العابدون الحامدون، كشف لهم عن الدنيا فرأوا عيوبها، وألاح لهم الأخرى فتلمحوا غيوبها، وبادروا شمس الحياة يخافون غروبها، واشتغلوا بالطاعة فحصلوا مرغوبها، وحثهم الإيمان على الخوف ، فما يأمنون؟.

التائبون العابدون الحامدون، ندموا على الذنوب فندبوا، وسافروا إلى المطلوب فاقتربوا، وسقوا غرس الحزن دمع الأسف وشربوا، فإذا أقلقهم الحذر طاشوا وهربوا، وإذا هب عليهم نسيم الرجاء عاشوا وطربوا، فاغتنم أرياحهم واعلم أن نيل النصيب بالنصيب يكون.

التائبون العابدون الحامدون، نظروا إلى الدنيا بعين الاعتبار، فعلموا أنها لا تصلح للقرار، وتأملوا أساسها فإذا به ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾[1]، فرفضوا بالصيام لذة الطعام بالنهار، وزهدوا المنام بالقيام و ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[2].

التائبون العابدون الحامدون، هجروا والله المنازل الأنيقة، وقصموا عُرَى الهوى الوثيقة، وباعوا الفانى بالباقى وكتبوا وثيقة، وحَمَّلوا نجائب الصبر فوق ما هى له مُطيقة، وطلبوا والله الأخرى على الحقيقة، كيف ولا و ﴿هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾[3].

التائبون العابدون الحامدون، أبدانهم قلقى من الجوع والضرر، وأجفانهم قد حالفت فى الليل السهر، ودموعهم تجرى كالمطر، فالقوم تأهبوا إلا أنهم على سفر، عبروا لديكم وما عندكم منهم خبر، وترنمت حداتهم لو أنكم تسمعون.

التائبون العابدون الحامدون، اللهم سر بنا فى سرب هذه العصابة[4]، ووفقنا للتوبة والإنابة، يا من يقول للشيء ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[5].

شعر:

سَلْ غَيْرَ جفنى إنْ سألتَ عن الكَرَى	واردُدْ فؤادى علَّهُ أنْ يَصْبِرا
وأعِدْ حديثَهم علىَّ فإننى	أَجِدُ ارتياحى فيه مَهْما كُرِّرا
لله ما يلقاهُ فيكَ مُتَيَّمٌ	أبدت شواهدُ وَجْدِه ما أضْمَرا

(١) التوبة: ١٠٩. (٢) الذاريات: ١٨. (٣) المؤمنون: ٥٧

(٤) العصابة. الجماعة من الناس (٥) يس: ٨٢.

لا غرو أنْ لامَ العذول فإنَّه ما إنْ يرى عند الأبيرق ما أرى
شتَّانَ ما بينَ الخَلِى وبينَ مَنْ يُمسى ويُصبحُ هائمًا متفكرا
يَستعذبُ التعذيبَ فى أحبابه يرى السلوَ عن الأحبة منكرًا

[إنتبه من رُقَادك]

اسمع يا مضيع الزمان فيما ينقص الإيمان، يا معرضا عن الأرباح متعرضا للخسران، متى تنتبه من رقادك أيها الوسنان؟، إلى متى ترفض قول الناصح، وقد أتاك بأمر واضح؟، إلى كم ترضى بالشين والقبائح؟، لقد أبانت الدنيا عيوبها، وكشفت غيوبها، وما مَرَّت حتى أَمَرَّت[1] مشروبها.

قال صالح المُرِّى[2]: كان عطاء السليمى[3] اجتهد حتى انقطع، فصنعتُ له شربة من سويق[4] وأتيته بها، فلم يشربها، فَلُمْتُه على ذلك، فقال: والله إنى كلما هممتُ بشُربها ذَكَرْتُ قوله تعالى: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾[5] فقلت له: أنا فى وادٍ وأنت فى وادٍ[6].

شعر:

أطلت وعذَّبْتنى يَا عذُول بليت فدعنى حديثيى يطـــول
أبيتُ أراقب نجمَ الدُّجى إلى الصُّبح وحدى ودمعى يسيل

سيما المحبة لا تخفى، وصحائف الوجوه يقرؤها من لم يكتب.

يُحكى عن ذى النون المصرى[7] رضى الله عنه أنه قال: رأيتُ رجلا شهد له

---

(١) أى جعلته مُرًّا.

(٢) صالح بن بشير المُرِّى الزاهد التقى العابد، مات سنة ١٧٢هـ، أخرج له أبو داود والترمذى، انظر ترجمته فى صفة الصفوة (٥٤٨)، الحلية (٦/ ١٦٥)، الميزان (٢/ ٢٨٩)، الضعفاء للعقيلى (٢٧٣)، التاريخ الكبير (٢/ ٢٧٣)، والتقريب (١/ ٣٥٨).

(٣) عطاء السليمى، من كبار الزهاد العباد الخائفين بالبصرة، سمع من الحسن وجعفر بن زيد، له أخبار كثيرة فى الزهد والعبادة، انظر: صفة الصفوة (٥٣٨)، الحلية (٦/ ٢١٥)، اللسان (٤/ ١٧٣)، الميزان (٧٨).

(٤) السويق: شراب من الحنطة والشعير (حساء).

(٥) المزمل: ١٣.

(٦) الخبر بنحوه فى صفة الصفوة (٣/ ٢١٩ ـ ٢٢٠)، والحلية (٦/ ٢١٨ ـ ٢١٩)

(٧) تقدمت ترجمته.

قلبى بالولاية، إلا أن نفسى نفرت من ظاهره، فبقيت مترددا بين قلبى ونفسى، فنظر إلىّ وقال: يا ذا النون الرد داخل الصرف.

شعر:

ألف الضنَّى فسقَامُهُ موجودُ وجَفَـا الكرى فمنامُـه مفقودُ

حيرانُ مِنْ بعدِ الفراقِ مولَّه سكران من خمرِ الهوى عربيدُ

يحكى عن بعضهم أنه قال: رأيت بعض المولهين، فقلت له: ما اسمك؟ فقال: هو، فقلت له: من عند مَن جئت؟، فقال: هو، فقلت: مَن تعنى؟، فقال: هو. فما سألته عن شىء إلا قال: هو، فقلت له: لعلك تريد الله؟؛ فصاح صيحة خرجت فيها روحه.

شعر:

أسكان رَبْع العامرية ما جرى يقل لكم من دمع عينى وما يجرى

يُساعدنى إلاَّ عليكم تجَلُّدى وأملك إلاَّ عند ذكراكم أمرى

وأسأل عَنْكم ولأجلكم سؤالى وهل إلا لكم آجال فى فكرى

وأهوى استماع اللوم فيكم لأننى أرى كل ناهٍ عنكم بكُم يُغْرى

يروى فى بعض الأخبار عن الحسن البصرى[1] يرويه عن رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يقول: إذا علمت أن الغالب على قلب عبدى الاشتغال بى جعلت شهوته فى مسألتى ومناجاتى، فإذا كان كذلك كنت أنا المتمثل بين عينيه، فإن أراد أن يسهو عنى حُلْتُ بينه وبين السهو، أولئك أوليائى حقا أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة زويتها عنهم من أجلهم، أحببتهم وأحبونى، أجيبهم إذا دعونى، وأعطيهم إذا سألونى، أولئك أوليائى».

يحكى أن رجلا جاء إلى أبى يزيد البسطامى[2] فقال له: أيها الشيخ إن الناس قد احتاجوا إلى المطر فادعو الله تعالى أن يرزقهم ذلك، فقال أبو يزيد: يا غلام أصْلِح الميزاب، فلم يفرغ الغلام من إصلاح الميزاب حتى جاء المطر، ولم يتكلم الشيخ بشىء.

---

(١) تقدمت تخريجه.

(٢) تقدمت تخريجه.

[صفة أمة محمد فى الكتب القديمة]

وذكر عن وهب بن منبه اليمانى[1]: أن الله عز وجل يقول: أمة محمد اخترتهم من الأمم، ثم اخترتُ من اختيارى الذاكرين فى ليلهم ونهارهم، الدائبين شحومهم، المنحلين أجسامهم، المشفقين من هيبتى وجلالى، فحق علىَّ أن أذكر مَن ذكرنى، وأجيبه إذا دعانى، ولا أحجب عنهم وجهى إذا رُفع بصرهم إلىَّ، وأنا أُبَاهى بهم سكان عرشى وحملة كرسىّ، وأنا كنت الذاكر لهم إذ لم تكن سماء ولا أرض فقلت مع نفسى: إن لى أولياء وأصفياء لا يسأمون من ذكرى ولا يُسمع لهم حنين دونى، ولا لهم إرادة سواى.

شعر:

قلوبُ العارقين بها عيونٌ ... تَرى ما لا يراهُ الناظرونا

والسنة بأسرارٍ تُنَاجى ... تغيب عن الكرامِ الكاتبينا

واجنحة تطيرُ بغير ريش ... إلى ملكوت ربِ العالمينا

الفصل التاسع والعشرون

[ألا عين تدمع؟.. ألا قلب يفزع؟!]

يا هذا ما أعظم المصيبة على مَن فَقَدَ قلبا واعيا، وما أسرع العقوبة إلى من عُدِم طرفًا باكيًا، وما أكثر حسرة من كان أمره ساهيًا، وما أدوَمَ ندامة من أمسى وأصبح لاهيًا، لقد غلب على قلوبنا الهوى فتملكها، واستحوذ على نفوسنا الطمع فأهلكها، ونحن عما يراد بنا غافلون، وبخلاف ما قد علمناه عاملون، فلا الواعظ يشفى منا عليلاً، ولا الإنذار يجد إلى قلوبنا سبيلا، وقد علمنا أن وراءَنا يومًا ثقيلا، فيا عجبا من غفلة مطلوب لابد من إدراكه، وتمادى مغتر بالسلامة لا رَيْبَ فى هلاكه، ألا أذن تسمع؟، ألا عين تدمع؟، ألا ذاهب إلى الله يفزع.

شعر:

دَنَوْتُ مَنَ الدُّنيا ودنت بِحبُّهَا ... واصبَحْتُ عنْ دارِ السلامةِ فى بُعْد

دُجى الذنبِ غطَّى عنْ ساطع الهدى ... وكيفَ تلوحُ الشمسُ للأعينِ الرُّمْدِ

دهاكَ الذى تعنى الأساه دواؤه ... وذلك قد أربى وزادَ على الحد

---

(1) تقدمت تخريجه.

[دعاكم إلى النجاة مولاكم]

إخوانى، قد دعاكم إلى النجاة مولاكم، وفتح باب الإجابة وناداكم، ودلّكم على منافعكم وهدَاكم، وحثّكم على البدار رفقا بكم، بقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[1]، لله درُّ أقوام بادروا الأوقات واستدركوا الهفوات، شغلوا العيون بالدموع عن النظر إلى المحرمات، وسجنوا الألسن فى سجن الصمت عن موارد الهفوات، وكفوا الأكف عن تناول الشهوات، وقيدوا الأقدام عن السعى إلا إلى الطاعات، إن غشيهم الليل ضجوا بالأصوات فى الخلوات، وإن أقبل النهار قطعوه بمقاطعة اللذات، أفيطمع فى لحاقهم من عرِى عن هذه الصفات، أو يرجو الخلاص مع الإخلاص ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[2].

شعر:

عجبًا لأمْنِكَ والحياةُ قصيرةٌ	وبفقدِ إلفكَ لا تزالُ تروعُ
أفقد رضيتَ بأن تُعللَ بالمُنى	وإلى المنيةِ كلَّ يومٍ تُدْفعُ
أحلامُ نومٍ أو كَظِلٍ زائلٍ	إنَّ الكريمَ بمثلها لا يُخْدَعُ

إخوانى، قَدِّموا صالح الأعمال فى فترة الإمهال، واحذروا خوادع الآمال، فللمطالباتِ آجال.

يحكى عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه لما أُرِىَ ملكوت السموات والأرض رأىَ عاصيا يعمل معصية فقال: إلهى أَهْلِكْه، فأَهْلَكَهُ الله، ثم رأى آخر يعصى فقال: اللهم أهلكه، فأهلكه الله، ثم رأىَ ثالثا ورابعا، فأوحى الله تعالى إليه: كُفَّ يا إبراهيم، فلو أهلكتُ كُلَّ عاص رأيته لم يبق منهم أحد، ولكنى بحلمى لا أعذبهم، فإما أن يتوبوا فأتوب عليهم، وإما أن يَصِرُّوا فلا يفوتنى شىء[3].

وحكى أن رجلا قال لبعض الأنبياء: كم أخالفه وأعصيه فلا يعاقبنى، فأوحى الله تعالىٰ إلى ذلك النبى قل له: لتعلم أنى أنا وأنت أنت.

---

(١) آل عمران: ١٣٣. (٢) الجاثية: ٢١.

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا فى حسن الظن بالله (رقم ٨٨) بسند ضعيف.

فسبحان الحليم العظيم الذى لا يستفزه عصيان العاصين أنه يقدر ويستر؛ حتى يتوهم المغرور أنه ليس يبصر، وقد يؤخر العبد لعلمه سبحانه بنقل حاله، وأنه سيكون من أوليائه ورجاله.

شعر:

إذا فَسَدَ الإنسانُ بَعدَ صلاحِه فارجو لهُ عودِ الصلاحِ لعلَّه

[تَائب إلى الله]

يحكى عن مالك بن دينار[1] أنه قال: كان لى جار وكان يتعاطى الفواحش، فتبرأ منه الجيران، وأتونى شاكين متظلمين منه، فأحضرناه وقلنا له: إن هؤلاء الجيران يشكون منك، فسبيلك أن تخرج من هذه المحلة، فقال: أنا فى منزلى لا أخرج منه، فقلنا له: نشكوك إلى السلطان، فقال: إن السلطان يعرفنى، وأنا من أعوانه. فقلت له: ندعوا عليك، فقال: إن الله أرحم بى منك، قال: فغاظنى ذلك منه، قال: فلما أمسيت قمت وصليت، فلما فرغت من الصلاة دعوت عليه ونمت، فهتف بى هاتف: لا تَدْعُ عليه فإنه من أولياء الله!، قال: فلما انتبهت أتيت إلى باب داراه، ودققت عليه الباب، فلما خرج ورآنى ظن أنى جئت نحوه لإخراجه من المحلة، فقال لى كلاما كالمعتذر، فقلت: ما جئت لذلك المعنى، ولكن جئت لأنى رأيت كذا وكذا، فعند ذلك وقع عليه البكاء وقال: إنى تبت بعدما كان هذا الأمر، وخرج من البلد ولم أره بعد ذلك، فاتفق أنى حججت فى بعض السنين، فرأيت فى المسجد الحرام حلقة، فتقدمت إلى الحلقة، فرأيت ذلك الشاب عليلاً مطروحا، قال: فلم ألبث إلا قليلا حتى قالوا: قَضى الشاب نحبه، رحمه الله تعالى.

شعر

دعى الحبُّ سرا قلبه فأجابَهُ وكان إذا نادى به لا يجيبه

فأضحى سليمَ الشوقِ لم يبقَ حوله من الناس طرف لا يسع عزوبه

يرجم فيه العائدونَ ظنونَهم فتخطئْه أحيانا وحينا تصيبُه

ولكنه كئيبٌ بعدَ حين إفاقةٍ وهذا الهوى الهوى ما يستفيقُ كئيبه

---

(١) تقدمت تخريجه.

[حُسن الظن بالله]

وفى بعض الحكايات: أن بعضهم رُئى فى النوم، فقيل له: ما فعل الله بك؟، قال: أقامنى وأعطانى كتابى، فمررت بسيئة فخجلت أن أقرأها، فقال لى: لابد من قراءتها، فقلت: إلهى لا تفضحنى، فقال: يا عبدى الوقت الذى لم تستحى فيه ما فضحتك، أفأفضحك الآن وأنت تستحى؟، فعفا عنِّى وغفر لى.

وفى بعض الحكايات أن رجلا رُئى فى المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟، فقال: أقامنى وقال لى: لم خفتنى كل ذلك الخوف، أما علمت أنى حليم كريم؟!.

ويحكى أن رجلا كان يتعاطى الفواحش فلم يدع شيئا إلا فعله فمرض فلم يَعُدْهُ جيرانه، فدعا بعضهم وقال: إن جيرانى قد تأذوا منى فى حال حياتى، وما أحب أن أوذى الموتى بعد وفاتى، فإذا أنا متُ فادفنونى فى زاوية بيتى، فلما مات رُئى فى المنام على هيئة حسنة، فقيل له: ما فعل الله بك؟ ، فقال: قال لى: يا عبدى هم خلقى ضيعوك وأعرضوا عنك، أما أنا لا أضيعك ولا أعرض عنك بوجهى، ثم عفا عنى وغفر لى.

شعر:

صَدَدْتُ فكُنت مليحَ الصدودِ	وأعرضت أفــديكَ من معرض
ففى حالة السخطِ لا فى الرضا	يبين المحــــبُ من المبغضِ
فمَنْ كانَ فى سخطِهِ منعمًا	فكيف يكــــون إذا ما رضى

[الأيام زوائل وأنت غافل]

يا هذا: لا تغتر بالسلامة فمع الخواطئ سهم صائب، فبادر الأرباح قبل خروج الموسم، قبل هجوم مالا يُدفع، وحين لا يغنى الندم ولا يُسمع، قبل شخوص الأبصار فى المحاجر، وبلوغ القلوب الحناجر، هنالك ترتج الأرض بأقطارها، وتُعرض الخلائق على جبَّارها، فيحاسبها بإعلانها وإسرارها، وينبهها بما عملته فى سالف أعمارها، هذا مَعَادك فما إعدادك؟، هذا مصيرُك فمن

نصيرُك؟. كيف يصلح للفكر قلب غافل؟ كيف تقع اليقظة لعقل ذاهل؟، كيف يحصل الفهم لِلُبٍّ عاطل؟، واعجبا لمفرط والأيام زوائل، والمائل في الحياة إلى ركن مائل، لقد خابَ الغافلون وفاز المتيقظون، ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[1]، كم من عمل يرد على عامله، وكم من أمل بالغ فى إتعاب مفاصله، فهبت ريح الشقاء بتبديد حاصله، لقد نودى المطرودون بالبعد ولكن لا تسمعون، ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[2]، مَن كتب عليه الشقاء كيف يسلمُ؟، ومن عميت عينا قلبه كيف يفهم؟، ومن أمرضه طبيبه كيف لا يسقم؟، ومن اعْوَجَّ من أصل وضعه كيف يتقوم؟، هيهات مَن خُلق للشقاء فللشقاء يكون، ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[3]، جعلنا الله وإياكم ممن أفاق للتيقظ لنفسه، وفاق بالتحفظ مع أبناء جنسه، وأعد عدةً ليوم رمسه[4]، واستدرك فى يومه فارط أمسه، قبل ظهور العجائب، وشيب الذوائب[5]، قبل قدوم الغائب.

والصلاة والسلام على النبى الكريم.

الفصل الثلاثون

[آن لك أن تتوب]

قال الشيخ رحمه الله تعالى: يا من أنفاسه عليه معدودة، وأبواب التقى فى وجهه مسدودة، وأعماله بالنفاق والرياء عليه مردودة، ومحبة التفريط معه مولودة، كم أسرعت فيما يؤذى دينك وَرَاءَيْت[6]؟، كم خرقت ثوب إيمانك وما رأيت؟، كم قد فاتك من خير وما اكتسبت؟، يا كاسب الخطايا بئس ما كسبت؟، تؤثر ما يفنى على ما يبقى ما أصبت، تصبح تائبا فإذا أمسيت كذبت، تمشى مع اليقين، فإذا قاربت انقلبت، تعمر ما لا يبقى وما يبقى خربت، تأنس بالدنيا وغرورها وقد جربت، إلى كم تنمى الذنوب، لقد آن لك أن تتوب.

يا من ضيع الحزم فى حياته وأهمل، أتحسب أن تحصيل المعالى سهلاً، يا من يتكلف الأعمال بغير نية، الاعتبار عندنا بالأعمال القلبية، بلغت حرارات الخوف

---

(١) ، (٢)، (٣) يونس: ١٠١.

(٤) الرمس: القبر (٥) الذؤابة: الضفيرة (٦) من الرياء

قلب داود، فصار كفه كيرا ﴿وألنا له الحديد﴾[1]، وقويت روحانية محمد ﷺ فنبع الماء من بين أصابعه

شعر:

لولا مـدامعُ عشاقٍ ولـوعتهـم	لبانَ فى الناسِ عزُّ الماءِ والنـارِ
فكل نارٍ فمن أنفاسهم قَدَحَـتْ	وكل ماءٍ فَمِنْ دمعٍ لهـم جارِ

انظم شتات فكرك المنثور واعرف لمن تناجى، أيها المصلى طَهِّر سرك قبل الطهور إن قمت فى الدياجى، وطَهِّر سرَّك من السكنات إلى الأمانى ففى الخلوات تُزفُّ أبكار المعالى، يا جامد الطبع الحديد تعشق المغناطيس فكيف ما التَفَت المقيم عليه؟!.

شعر:

وإنّى إذا اصْطَفَّتْ رقابُ مطيكم	وثور حادٍ بالرفاقِ عجـولُ
أخالف بين الراحلين على الحشى	وأنظـر أينَ ملتُـم فأميلُ[2]

[بين المولى وعبده]

يحكى عن ابى حفص الصفار وكان كبير الشأن أنه قال: تُهْتُ فى البادية فَجُعْتُ وعطشت وضعفت، فبينما أنا أسير إذا رأيتُ رجلا فاتحًا فاهُ شاخصًا ببصره إلى السماء، فقلت له: ما هذه الوقفة؟، فقال: مالك وللدخول بين المولى وعبده؟!، ثم أشار بيده إلى جهة، فَنَحَوْتُ نحو إشارته، فما مشيت إلا قليلا حتى وجدتُ رغيفين، على أحدهما قطعة لحم حارة، وكوزًا من الماء البارد، قال: فأكلتُ حتى شبعت، وشربت حتى رويت، ثم رأيت الطريق فقصدته.

[الرضا عن الله]

وقال ذو النون المصرى[3] نزل علىَّ شاب من أهل خُراسان، فأقام أسبوعا لا يأكل شيئا، فلما كان فى بعض الأيام وقف سائل بنا، فقال له الشاب يا هذا لو

(١) سبأ: ١٠

(٢) فى المدهش (ص٤٥٥) نسب البيتين للشريف الرضى، قال محققه وهى فى ديوانه (٢/ ٢٢)

(٣) تقدمت ترجمته

قصدتَ الله لأغناك، ثم قال له: ما تريد؟، قال: أريد ثوبًا يوارى عورتى، وشيئا من الطعام أسد به جوعتى، قال: فوثب الشاب إلى المحراب وصلى ركعتين، ثم أتاه بطبق جديد فيه طعام وثوب جديد، فلبس الغلام الثوب وأكل من الطعام، فقلت: يا غلام لك عند الله هذه المنزلة، ولك اليوم عندى أسبوع لم تأكل فيه شيئا؟!، فقال: يا ذا النون كيف نبسط الألسن إلى المسألة والقلوب مملوءة بالرضا؟.

شعر:

لهـــا بوَجْهِكَ نـــورٌ يستضاءُ بِهِ ومن نُوالكَ فى أعقابها حَادى

لها أحاديث من ذكراك تَشْغَلُها عن الشـراب تُلْهيها عن الـزادِ

قيل لعامر بن عبد قيس[1]: أتسهو فى صلاتك؟، فقال: أو حديث أحبُّ إلىَّ من القرآن حتى أشتغل به؟، هيهات مناجاة الحبيب تستغرق الإحساس.

شعر:

إذا اشتَغَلَ اللاهونَ عنكَ بشغلهم جَعَلْتُ اشتغالى فيكَ يا منتهى شُغْلى

[حمى الله محارمه]

المحرمات حرم، ونظر المملوك إلى حرم المالك من أقبح الخيانة، يا بنى آدم تلمحوا تأثير ﴿وعصى﴾[2] لقمة أثرت إن عثرت، فعرى المكتسى، ونزل العالى، وبكى الضاحك، وقام المترفُّه يخدم نفسه، فاشتد بكاؤه، فنزل جبريل يسأله فزاد برؤيته وجدُه، كان إذا نزلت الملائكة استنشق ريح الواصلين، وتعرَّف أخبار الديار من نسمات القاصدين.

---

(١) عامر بن عبد الله، المعروف بابن عبد قيس العنبرى (ت ٥٥هـ = ٦٧٥م)، التابعى، هو أول من عُرف بالنسك من عُبَّاد التابعين بالبصرة، تلقن القرآن من أبى موسى الأشعرى، كان عابدًا يقال له راهب هذه الأمة. انظر ترجمته فى: صفة الصفوة (٤٨٤)، الحلية (٢/٨٧)، والأعلام (٣/٢٥٢ ـ ٢٥٣).

(٢) طه: ١٢١.

شعر:

أمُذكرى تِلكَ العهودَ تَرَفّقا | أعددت ذكرا أو أردت شمولا
ما للهوى العُذْرِى اضحك شامتا | منًّا وأبكى لائمًا وعذولا
اضْحَتْ جفونى بالبكاء قصيرةً | قرحا وليلى بالسُّهَادِ طويلا
لم يدرِ ذو القلب الخلىُّ بأنَّنى | امسيتُ ذا كَلَفٍ به مَشْغُولا
ظن السلو ولا سلو لذاهلٍ | جَمُدَتْ مدامعُهُ وذابَ نُحُولا
ومن العجائب أن خصبَ دموعه | فى الخدِّ احْدَثَ فى الضلوع مُحُولا
فسل الصبى عن عصر أيام الصبا | إن كُنْتَ رُمْتَ بعده تبديلا

[الباكية]

كانت عابدة من أحسن النساء عينا فأخذت فى البكاء، فقيل لها: تذهب عيناك، فقالت: إن يكن لى عند الله خير فسيبدلنى خيرا منها، وإن تكن الأخرى فو الله ما أحزن عليها.

يا هذا، مَن سعى إلى جنات العزم بأقدام المسكنة؛ ووقف بباب الكرم على أخمص المسألة؛ ووصف ندمه على الذنب بعبارة الذل؛ لم يعد بالخيبة. لما امتلأت أسماع المتيقظين بصوت: «كذب من ادّعى محبتى فإذا جنَّهُ الليلي نام عينى»، قاموا على أقدام الجد، تحت ستر الدجى، يبكون على زمان ضاع من غير الوصال.

شعر:

قلبٌ بذكر الحِمى بعد النوىَ يجب | ومقلةٌ فى الهوى فاضت بما يجبُ
لا تعجب الناسُ من ذُلِّى وعزِّهم | حكم الهوى فى بنيه كله عجبُ
أجب أننا ما نشدنا الصبر بعدكم | ولاتسألونا وأثوابُ الصبا تشبُ
بنتم فما فى هدوء عنكم طمعٌ | كلاً ولا فى حياة بعدكم أرب

[قلوب العارفين فى رياض الطاعة]

قال ذو النون المصرى: بينا أنا أسير فى بعض الجبال إذ سمعت صوتا أهاج حزنى وهو يقول: سبحان من نَزَّه قلوبَ العارفين فى رياض الطاعة بين يديه، سبحان من منح الفهم ألباب ذوى البصائر فتوجهوا إليه، قال ذو النون: فدنوتُ منه، وقلت له: السلامُ عليك، فقال: وعليك السلام، مَن أوصلك إلى هذا المكان؟، فقلت: الرغبة فى لقائك ووعظك، فقال: لعلك ذو النون؟، فقلت: نعم، فقال: يا ذا النون أما علمت أن لله عبادًا أفرع فى قلوبهم رياض المودة، وغرس فى نفوسهم شجر المحبة، فليس لهم دون الله راحة حتى القدوم عليه؟، فقلت له: أوصنى، فقال: إن لله يوما يتجلى فيه لأوليائه؛ فاعمل لذلك اليوم.

قل للمقيمين على معاصيهم وجهلهم، المصرين على قبيح فعلهم، كم لعب الدهر قبلهم بمثلهم، أما يكفى فى توبيخهم وعذلهم ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ﴾[1] .

يا من راح فى المعاصى وغدا، ويقول سأتوب اليوم أو غدا، كيف يلين قلبا أمسى بالجهل جُلْمدًا، ليت شعرى بأى وجه تلقى الردى، ويحك قد نفد السليط[2] فاستدرك ذبالة المصباح، ويحك إن المنقطعين فى البادية أكْلُ السباع.

شعر:

لاحَ المشيبُ بعارضَيْك وأعلنا ... ألا محيصُ لك الغداة من الفنا

فدَعْ التشاغَل بالتى تَشْقَى بها ... وانهضْ إلى جدٍّ عنك الوَنَى[3]

[تَشَبَّه بهم إن لم تكن منهم]

إخوانى، عبارات النسيم لا يفهمها إلا المشتاق، وحديث البروق لا يروق إلا للعشاق، تأسَّف ياجيفة النوم، وابك يا أبعد القوم، خلوا والله بالحبيب فى دار

(١) يونس. ١٠٢. (٢) زيت السِّراج. (٣) الونى: الضَّعف والفتور.

المناجاة فكساهم ثياب المواصلة، وضمخهم[1] بطيب المعاملة، وغالية[2] السَّحَر غالية، فيا من أبعدته عنهم الذنوب، وأخرجته من بينهم العيوب، إن لم يكن وصل فمواصلة، وإن لم يكن جميل فمجاملة، تَشَبَّه بهم إن لم تكن منهم، فإنه لما أحيا عزيرا أحيا حماره، ولما بعث أهل الكهف بعث كلبهم، يا أعجمى الفهم متى تفهم؟، يا فرحانا بلذة عقابها جهنم، ستدرى متى تبكى ومتى تندم، إذا جثا الخليل وتزلزل ابن مريم، يا عاشق الدنيا كم مات بحبها متيم؟، ما للفلاح علامة، والله أعلم، غاب الهدهد عن سليمان ساعة فتواعده، فيا غائبًا عنا طول عمره أما تحذر غضبنا؟، خالف موسى الخضر ثلاث مراحل فحل عقد الوصل **﴿هذا فراق بينى وبينك﴾**[3].

أعظم عذاب أهل النار جهلهم بالمعذِّب، لو صحت معرفتهم بالمالك لما استغاثوا **﴿يا مالك﴾**[4]، وقع بينهم شخص ليس من الجنس كان فى بطنه ذرة من المعرفة، فكان كلما حملت عليه النار اتقاها بدرع: **«يا حنان يا منان»**[5] رأى الأسباب بيد المسبب، فتعلق بالأصل.

شعر:

قُلْ للعذولِ لَقَدْ أكثرتَ مِنْ عذلى	فانْصَحْ لِنَفْسِكَ أُذْنِىَ عنك صَمَّاءُ
فـأنـى تريـدُ إذا مـا لُمتَنى لما	قد حار فى وصف ما أشكو الأطباء

---

(١) الضَّمْخُ: لطخ الجسد بالطِّيب.

(٢) الغالية: نوع من أنواع الطِّيب.

(٣) الكهف: ٧٨.

(٤) الزخرف: ٧٧

(٥) جزء من حديث: «إن عبداً فى جهنم ينادى ألف سنة: يا حنَّانُ يا منَّان» .. الخ، رواه أحمد (٣/ ٢٣٠)، والبغوى فى شرح السنة (١٥/ ١٩٤)، وابن أبى الدنيا فى حسن الظن بالله (١١٠) وإسناده ضعيف، أنظر: مجمع الزوائد (١٠/ ٣٨٤).

[إسلام طبيب نصرانى]

قيل: لما مرض بشر الحافى رضى الله عنه مرضه الذى مات فيه فاجتمع إليه إخوانه، وقالوا له: غرضنا أن نحمل ماءك إلى الطبيب، فقال. أنا بعين الطبيب يفعل بى ما يريد، قالوا: إن فلانا النصرانى طبيب جيد، ولابد أن يُحمل إليه ماؤك، فقال لهم: دعونى فالطبيب أمرضنى، قالوا لابد من ذلك، فقال لأخته: إذا كان فى الغد ادفعى إليهم الماء، فلما أصبحوا أتوها، فدفعت إليهم الماء، فمضوا به إلى الطبيب، فنظر إليهم وقال لهم: ضعوه فوضعوه، ثم قال: حَرِّكُوه، فَحَرَّكُوه، حتى فعل ذلك ثانيا وثالثا، فقال له أحد القوم: ما هكذا أُخبرنا عنك، قال: وما الذى أُخبرتم به عنى؟، قال: أُخبرنا عنك بحُسن النظر، وسرعة الإدراك، وجودة المعافاة، ونراك ترددالنظر، وذلك يدل على قلة المعرفة، فقال لهم: والله لقد علمتُ حاله من نظرة، ولكننى رَدَّدْتُ النظر تعجبا، وبعد فإن يكن هذا ماء نصرانى فهو ماء راهب قد فتت الخوف كبده، وإن يكن ماء مسلم فهو ماء بشر الحافى، وليس له عندى دواء، فعللوه فإنه ميت، فقالوا له: هو والله ماء بشر الحافى، قال: فلما سمع الطبيب ذلك أخذ مقراضا وقطع زناره[1] وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، قال: فأسرعنا نحو بشر لنبشره، فلما أبصرنا قال: أسلم الطبيب؟، قلنا: نعم، فَمَن أخبرك؟، قال: لما خرجتم من عندى أخذتنى سِنَة، وإذا قائل يقول: يا بشر ببركة مائك أسلم الطبيب. . . ثم لم يلبث بعد ذلك إلا ساعة ومات، رضى الله عنه.

شعر:

حتمٌ على كلِ صبٍ صَبَّ عَبْرَتهُ	حتى يعودَ إلى لُقيا أَحِبَّتهُ
إتلاف من يَخْشَى فراقكم	الله الله فى إتلافِ مُهْجَتهُ
ومدةُ العمرِ ما واصلتم فإذا	فارقتموا فهو عندَ غيرِ مُدَّته
مُحِبُّكم حَبَّ أن يلقى منيتهُ	لأنَّ كلَّ مُنَاكم فى منيتِه

اسمع يا من سبقه القوم وتخلف، بِلّ ثرى آثارهم من دمع الأسف.

---

(١) الزُّنّار حزام يشده المجوسى والنصرانى على وسطه

شعر:

دَعْ شأنُ عينكَ يا حزين وشأنها ... وضع اليدين على الحشا وتململِ

هــذا أوانُ فراقِهِــمْ ولقلَّ مــا ... يغنــى وقوفـك ساعـةَ فى المنزلِ

يا هذا جُز بنادى الأحبة، ونادى أهل الأشجان، تراهم كالفراش تحت النيران، يا حسرة مَن مضوا وخلفوه، لقد استبدل بالعسل الخل آه على عيش مضى ولا عودة له، ولا حاد سرَى بغيرِ رفقة.

شعر:

أما والحمى النجدىُّ يا ساكن الحمى ... لقد أوضح الدمعُ الذى كان مُبْهَمَا

همى فارى يومَ النوى الكاشح الهوى ... فليتَ النوى لم يقض أوماهما

وهيَّجَ أشجانًا وأضْرَمَ لوعةً ... وحَرَّكَ حُسَّادا ونَبَّهَ نَوَّمَا

وعَصْفَرَ مُصْفَرَّ الخدود انسكابه ... فهل كانَ ماءَ دَمْعِ عينَك أم دما

وروضٌ مغبُّر العقيقِ فما دَرَى ... سقته الأماقى أم سقت أرضه السما

خليلىَّ لم أعشق اللومَ فى الهوى ... حَجَرْتكما أو قلتُ عنِّى إليكما

إنما لُمتُمَا واللومُ فيه راحةٌ ... فكيف وما ألهمتهما حينَ لُتُمَا

فَكَمْ من لوعةٍ وصبابةٍ ... على الصبِّ هيَّجتُما لو علمتما

[سلاح العزم]

إخوانى: كا مقاتل ليس معه سلاح عزمه مغلوبٌ، إذا برز شجاع اليقظةِ بسلاح الجد هشم وجه الأمل وهرم جيش الأجل، الخلوة شركٌ لصيد المؤانسة، فاخفى الصيادين شحصًا وأقلهم حركة أكثرهم التقاطًا للصيد؛ رحم الله أعظما طالما نصبت وانتصبت، حى عليها الليل فلما تمكن و ثبت وثَبت[1]، إن ذكرت عذله رهبت وهربت، وإن تصورت فضله فرحت وطربت، عرفت إذ نست[2] عن

(١) الأولى من الثبات والثانية من الوثوب

(٢) نست: نعدت

فضله أنها أذنبت، هبت على قلوبهم عقيم[1] الحذر فاقشعرت وندبت، فبكت عليها سحاب الرجاء فاهتزت وربت، سلام على تلك القبور، رحمة الله على تلك الأرواح، أماكن تعبدهم باكية، مواطن تهجدهم لفقدهم شاكية، زال التعب وبقى الأجر، ذهب ليل النَّصَب[2] وطلع الفجر، لم يزل الحق يلطف بأوليائه، ويريهم آثار الاختصاص حتى فى بلائه، خلص الخليل من النار وجعلها بردا وسلاما، وآنس يوسف فى ظلمات الجب فلم يبق عليه ظلاما، وصيَّره مملوكًا لينشر له فى الملك أعلاما، وحفظ الكليم فى التابوت إشعارا باللطف وإعلامًا، لما أدبر فرعون وعصى، ووجد فى كتبه مولودًا يهلكه بالقصا[3]، فتح باب ذبح الأطال ليظفر بصاحب الآيات، ولسان الإعجاز يهتف به: هيهاتَ، ياقوت الاختصاص لاتعمل فيه نار البلاء، وسمندل[4] المحبة لا يحرقه لهب الاختبار بالأعداء، يا صياد العدو إن صقور العناية لا تقع فى حَبْلِك، يا رامى البغى من أُلبس درع العصمة كيف يصاب بنبلك؟، يا معجبًا بالملك ستعلم غدا من يملك ممن يُملك، ليس العجب أن تطلبه فلا تجده وهو فى مصرك، إنما العجب أن تسوقه فى التابوت إلى قصرك، لتعلم أنى معه ولا شىء معى، وأن الحق للمبرهن لا للمدعى، أنا المحتج عن من اصطفيت واخترت، أنا مذهب الخوف عن أوليائي كما أخبرت.

يا هذا أين كنت حيث كان لك ولذويك؟، أين كانت رحمة أمك وشفقة أبيك؟، أما قسم لك الإسلام إذ حرمه الكافرون؟، أما خصك بالإيمان وسُلبه آخرون؟، أما سماك بالصلاح فى كتابه المكنون فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[5] جاء فى التفسير أنها أمةُ محمد ﷺ.

---

(١) الريح العقيم: التى لا تأتى بمطر إنما تأتى بالإهلاك..، وفى القرآن ﴿وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾ [الذاريات: ٤١].

(٢) النَّصَب: التَّعب.

(٣) القَصَا: فنَاءُ الدار.

(٤) السَّمَنْدَل: زعموا أنه طائر من الطيور إذا انقطع نسله وهرم ألقى نفسه فى الجمر فيعود إلى شبابه.. وقيل هو دابة يدخل النار فلا تحرقه.

(٥) الأنبياء: ١٠٥.

اعلم يا أخى أن الله سبحانه وتعالى آثرك فى سابق القِدَم، وحكم لك عنده بصدق القَدَم، وربَّاك بفنون النعم، وعصمك من السجود للصنم، واختارك على جميع الأمم، ورداك رداء الإيمان، وتلقاك بجميل الغفران، ورقاك إلى درجة الرضوان، فأين الشكر على هذا الإحسان؟، أما هذه أعماركم والأمر واضح، ﴿فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[1]، أرباب القلوب القاسية يخرجون من المجلس كما دخلوه أول مرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[2]. رانت[3] الذنوب على القلوب، فالمواعظ تحرم على المنافذ فلا تجد طريقا ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ﴾[4].

لقد ربح قوم عملوا فى الدنيا بالإخلاص فى الطاعة، وفازوا يوم القيامة بالربح فى البضاعة، وتجنبوا التقصير والغفلة والإضاعة، وافترشوا الرضا وتوسدوا القناعة، طال والله ما تعبت أبدانهم من الجوع والسهر، وكَفُّوا جوارحهم عن القول والنظر، وانتهوا عما نهاهم مولاهم وامتثلوا ما أمر، وأعَدُّوا للزاد ما يصلح للسفر، فيا حسنهم فى الليل ودموعهم كالمطر، والسر صاف والحال مستقيم ﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾[5].

شعر:

لَكَ الله يا حابسَ اليعملات[6] ... على طللٍ منهم اقْفَرا
ولولا الهوى ما أنختَ المطيَّ ... ولا قمتَ فى الليلِ مُستعبِرا
اتركها فإن شفَّها أو برَى ... قوائمها السير فَارْخِ البرى[7]
ودَعْ خَطْمهَا والدُّجى والفلا ... لتحمد عند الصباحِ السرى

---

(١) النساء ٧٨
(٢) البقرة: ٦.
(٣) الرَّيْنُ سواد على القلب
(٤) البقرة: ٧.
(٥) الانفطار ١٣
(٦) الْيَعْمَلَة الناقة السريعة.
(٧) البرى حلقة من نحاس أو حديد توضع فى لحم انف البعير يُقاد بها

الفصل الحادى والثلاثون

[استدرك وقتك قبل فوات الأوقات]

يا هذا، إلى كم أنت بالملاهى لاهى!، تطع حين أسرفت فى المناهى ناهى، أفق أيها السابح فى بحار الغمرات، واستدرك وقتك قبل انصرام الأوقات، فما من حسن الأخلاق أن تكون ثياب أعمالك أخلاق[1]، إلى كم أزجرك وأنت لا تنزجر؟، أرى دانىّ فما أردانى[2]؟ ،ولا أغمض عن المحارم أجفانى فما أجفانى.

شعر:

وقبل شخوص[3] المرء يجمع زاده ... وتملأ من قبل اللقاء الكنائنُ

حصادك يوما ما زرعت وإنما ... يدانُ المرءُ يومًا بما هو دائنُ

يا عليل الآثام لم لا تلزم جناب طبيبك؟، يا صريع الغرام لم لا تقرع باب حبيبك؟، أما رفع لك الحجاب؟، أما ضمن لك المتاب؟، أما سمعت قوله فى الكتاب ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾[4] ما تقول يا مُنقطعاً إذا قيل لك: أى قاطع قطعك عنا؟، أى مانع منعك منّا؟.

شعر:

يا مَنْ تَلَوَّنَ عَهْدُهُ وتَغَيَّـرا ... مـا كـانَ حقُّ محبكم أنْ يُهجَرا

ولئِنْ غدرتَ فسُنةٌ مأثـورة ... ما حلت عن شِيمِ الليالى والقرا

[يا معروفًا بترك المعروف]

اسمع يا معروفًا بترك المعروف، يا من هو بكسب القبائح موصوف، إلى كم تعتق المماليك وأنت لا تُعتق؟، وتطلق الأسارى وأنت فى أمر شهواتك موثق، إذا لم تدرك فضيلة السبق فالحق مَن سبق، من عرف الله عاش، ومن جهل حقائق

(١) ثوب خلق: بالى قديم.

(٢) من الرَّدى.

(٣) أى قبل انتقاله وارتحاله من مكان آخر.

(٤) طه: ٨٢

المعرفة طاش، تالله ما يقع فى حقيقة الطاعة من له نفس مُطاعة.

قال الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾[1].

[كيف يحسن بك أن تُضَيِّعه؟]

قيل: كانت بداية أبى حفص النيسابورى[2]: أنه اشتغل قلبه بحب جارية، فاستشار بعض أصحابه، فأشار عليه أن يمضى إلى يهودى كان هناك ليحتال له فى أمرها، قال: فمضى إلى اليهودى وأطلعه على حاله، فأمره اليهودى أن لا يصلى ولا يعمل عملا يرضاه الله مدة أربعين يوما، ففعل ذلك، ثم سار إلى اليهودى وأعلمه بذلك، فشرع اليهودى فى أمره فلم يتهيأ له أمرا، ولم يصح له عملا، فقال له اليهودى: أخاف أن تكون عملت فى هذه المدة عملا صالحا، فَتَفكَّر وقال: واللهِ ما عملت شيئا غير أنى أزلت حجرا من طريق المسلمين برجلى.. فقال اليهودى: فهذا ربٌ لا يضيع لك هذا المقدار فكيف يحسن بك أن تضيعه؟!.

شعر:

تباركَ الله من قـــد كانَ يحـملُهُ ... على الهوى رقّ حتى صاَر يعدلَه

قال: فخرج: من نيسابور حافيًا هائما إلى بعض المتعبدات، فقيل له يوما: أين عمامتك؟، فوضع يده على رأسه، ظنًا منه بأنها على رأسه مما خامر قلبه من الوله، فلم يزل على ذلك حتى كان منه ما كان.

شعر:

احَسَنْتُم فـاستَرقَّ القلـبَ حبُّكُمُ ... والحــبُّ سَابقَةُ الحسنى تولدهُ

قال الشيخ أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه: ورد فى بعض القصص أن العبد إذا هم بالمعصية يقول الله عز وجل: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾[3]، فإذا عمل المعصية يقول الله عز وجل: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[4]، فإذا أصر على فعلها يقول الله عز وجل: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾[1].

---

(١) النازعات: ٤ ـ ٤١

(٢) تقدمت ترجمته.

(٣) سورة الزمر: ٥٤.

(٤) النور: ٣١.

(٥) الكهف: ٥

[يا نقى الثوب والقلب أسود]

يا هذا، إلى كم تعصى وتتمرد؟ وأقبح من قبيحك أنك تتعمد، يا ردىء العزم يا سىء المقصد، يا نقى الثوب والقلب الأسود، ، ما هذا الأمل ولست بمخلَّد، أما تخاف ممن هدَّد وأوْعد، يا مسئولا عن القبيح أتقر أم تجحد؟، أما علمت أن السفر بعيد فهل تتزود؟، ولو رأيت التائب لرأيت جفنا مقروحا، تراه فى الأسحار على باب الاعتذار مطروحا، مطعمه يسير، وحزنه كثير، ومزعجه مثير.

قال الجنيد عفا الله عنه: دخلتُ على السرى السقطى، فقلت له: كيف أصبحت؟ فأنشد وجعل يقول:

لا بِالنَّهارِ ولا بِاللَّيْلِ لى فرجٌ فلا أبالِى أطالَ الليلُ أم قَصُرَا

وقال ابن عطاء الله: كنت أنا وأبو جعفر الفرغانى وجماعة من أصحاب الجنيد فى مسجد الشونيزية إذ أقبل الشبلى وهو كالهائج، فدخل المسجد، وخرج ولم يكلم منَّا أحدا، فهجم على الجنيد وقال:

عَوَّدُونى الوصالَ والوصلُ عذبٌ ورَمُونى بالصدِّ والصدُّ صعبٌ
زعموا حين أعتبوا أن جُرْمى فرط حُبِّى لهمْ وما ذَاكَ ذنبُ
لا وحقُ الخضوعِ عندَ التلاقى ما جزاءُ من يحبُ إلا يُحَبُّ

قال: فطرب الجنيد وضرب برجليه فى الأرض، وقال: هو ذاك هو ذاك، ثم ولى الشبلى رضى الله عنه.

[رجعوا بالغنائم وأنت نائم]

يا أخى، لقد ربح القوم وأنت نائم، وكسبوا ورجعوا بالغنائم، يا هذا ما الذى يغنى عنك وقوفك بالمحراب وقلبك من التقوى غارم؟، يا من هتك ستر المحارم وتعاظيم الجرائم، أمستيقظ أنت أم نائم؟.

يا هذا كيف جفت منك المقل والأجفان، مع فراق الأحباب والخلان؟، ما أكثر شغلك بآفاتك، عن ذكر وفاتك، ويحك متى تستوحش من معاشرة الخلق؟،

متى تستأنس بمناجاة الحق؟، لا يطمعن البطال فى منازل الأبطال، من زرع حصد ومن جَدَّ وجد، أى مطلوب يُنال من غير مشقة؟، وأى مرغوب لم تبعد على طالبه الشُّقَّة[1]؟، الملك لا يحصل إلا بالتعب، والعلم لا يُدْرك إلا بالطلب، واسم الجواد لا يناله بخيل، ولقب شجاع بعد تعب طويل، يا أرباب القلوب القاسية ﴿لا تَيْأَسُوا من رَّوْحِ اللَّه﴾[2] يا أهل الخوف من عواقب الذنوب طيبوا قلوبكم ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

يحكى عن ابن المنكدر[4] أنه قال: قلت ليلة فى الطواف: اللهم اعصمنى، وأقسمتُ على الله طويلا، فرأيتُ فى المنام كأن قائلا يقول لى: أنت الذى قلت اللهم اعصمنى؟ فقلت: نعم، فقال: إنه لا يفعل، قلت: فَلِمَ؟، قال: يريد أن يُعْصَى حتى يَغْفِر!.

وحكى أن بعض أنبياء بنى إسرائيل سُرق له حمار فقال: إلهى نبيك سُرِق منه حماره، إلهى أسألك أن تطلعنى عليه، فأوحى الله عز وجل إليه أن ذلك الرجل الذى سرق حمارك سألنى أن أستره، وأنا أعطيك حمارا آخر، ولا أفضحه بعد أن سألنى ستره.

[رحمة الله بعباده]

ويحكى عن بعضهم أنه قال: كان فى جيرانى رجل شرير، فلما مات رفعت جنازته، فتنحيت عن الطريق حتى لا أحتاج أن أُصَلِّى عليه، فرُئى هذا الرجل فى المنام على هيئة حسنة، فقال له الرائى: ما فعل الله تعالى بك؟، قال: غفر لى وقال لى: قل لأيوب - يعنى ذلك الرجل الذى لم يصل عليه - ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ﴾[5].

وعن بعض الصالحين أنه قال: رأيت بعضهم فى المنام، فقلت له: ما فعل

(١) الشُّقَّة: بُعد مسير إلى الأرض البعيدة.

(٢) يوسف: ٨٧.

(٣) الأنعام: ٥٤.

(٤) تقدمت ترجمته.

(٥) الإسراء: ١٠٠.

الله بك؟، فقال: وُزنت حسناتى وسيئاتى، فرجحت سيئاتى على حسناتى، فجاءت صرة من السماء فسقطت فى كفة الحسنات فرجحت، فحللت الصرة فإذا فيها كف تراب ألقيته فى قبر ميت.

وروى عن ابن أبى أوفى[1] أنه قال: خرجت أريد رسول الله ﷺ، فإذا أبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما قاعدَيْن وعندهم صبى صغير يبكى، فقال النبى ﷺ: «ضُم إليك الصبى يا عمر» فضم عمر رضى الله عنه الصبى إلى صدره، وإذا بامرأة كاشفة عن رأسها تولول وتقول: يا بنياه، فقال النبى ﷺ: «يا عمر ألحق المرأة، فإنها أم الصبى» فدعاها عمر فأتت، فأخذت المرأة ولدها وضمته إلى صدرها، ووضعته فى حجرها، فلما التفتت رأت رسول الله ﷺ فقالت: واحزناه أترى رآنى رسول الله وأنا كاشفة رأسى؟، فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه رحيمة بولدها» قالوا: يا رسول الله كفى بها رحمة، فقال رسول الله ﷺ: «والذى بعثنى بيده لله أرحم بالمؤمنين من هذه بولدها»[2].

إخوانى كيف لاتفتت الأكباد شوقًا إلى مَن هذه نعمته؟، كيف لا تذوب الأجساد شوقًا إلى مَن هذه رحمته؟.

قال محمد بن سهل: إلهى إن عرفناك جزيتنا، وإن خالفناك عذبتنا، وإن تركناك أزعجتنا، فكيف الطريق إلى رضاك؟ وإذا بهاتف يهتف: يا ابن سهل اسقط عنك الاعتراض على الله عز وجل، فقد وصلت إلى حقيقة العبودية، فإنه يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

فكم من مُوَفَّق لا باستحقاق طلب، وكم من مخذول لا بعلةٍ وسبب، خصَّ قوما بحكم السعادة من غير استحقاق طلب، ولا جهدٍ ولا تعب، ولا وجود سبب، بل تعلق العلم القديم بإسعادهم، وسبق الحكم الأدلى بإيجادهم، وخص آخر بطرده وإبعاده، ووضع قدره بين عباده، من غير ذى جرم أسلف، ولا ذنب

---

(١) عبد الله بن علقمة بن خالد الخزاعى الأسلمى (ت٨٧هـ = ٧٠٦م) ابن أبى أوفى، آخر مَن توفى بالكوفة من الصحابة، وهو أحد مَن بايَع بيعة الرضوان، وشهد الحديبية وخيبر، وانتقل من المدينة إلى الكوفة بعد وفاة النبى ﷺ [الأعلام (٤/١٠٤)].

(٢) رواه الطبرانى وفيه فائد أبو الورقاء وهو متروك [مجمع الزوائد (١٠/٢١٣)].

اقترف، بل حقت الكلمة عليه بشقاوته، ونفذت المنية بجفاء قلبه وقساوته، قال الله عز وجل ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾[1]. وقال تعالى فى وصف بلعام[2] ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾[3] ثم قال فى قصته بعدما أباح من كرامته، وما ظهر لأهل زمانه من قربته، حتى جاء فى القصص أنه كان يرى من العلا إلى الثريا، وأنه كان يعرف اسم الله الأعظم، فقال سبحانه جلت صفته: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾، فلا عبرة بالخلقة، ولا اعتماد على الحال والصورة، وإنما الاعتبار بسابق الحكم والقسم، الذى كان عدوا أبرزه فى جماعة أوليائه ثم قال: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾، والذى كان من أهل ولايته خلقه فى صورة الكلب ثم ذكره مع أوليائه، فقال تعالى ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾[5].

يُحكى عن أبى على الدقاق أنه قال: إن أصحاب الكهف صرفوا ذلك الكلب، فلم ينصرف، فضربوه، فأنطقه الله عز وجل فقال لهم: لمَ تضربونى؟ إن كانت لكم إرادة فلى أيضا إرادة، فازدادوا بكلامه يقينا، وقالوا فيما بينهم: لا يمكننا صرف هذا الكلب، وسيدل بآثار قدميه علينا، فالحيلة أن نحمله على أكتافنا بالدور، فكانوا يحملونه بينهم بالدور.

ثم قال الشيخ رحمه الله تعالى: إن الأولياء كانوا يمشون رجالا[6]، والكلب حاملُه الأولياء، كانوا فى الابتداء بلاياه، فصاروا فى الانتهاء مطاياه، نباح الكلب يوجب لسامعه الوحشة، ولكن لما ساعدت العناية أوجب نباح ذلك الكلب لهم زيادة وبصيرة، قال تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[7]، جاء فى التفسير بكلام الكلب: ليعلم العالمون أن العزة بالحكم الأزلى، لا بالسكون والحركات والعلل والأسباب.

---

(١) المائدة: ٤١.

(٢) بلعام بن باعوراء، انظر قصته فى: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢٣ . ٣٢٧)، تفسير القرطبى (٧/ ٢٠٣ - ٢٠٥).

(٣) الأعراف: ١٧٦.

(٤) الكهف: ٢٢.

(٥) الكهف: ١٨.

(٦) اى على أرجلهم

(٧) الكهف: ١٤.

شعر:

شكى إليك ما وجد فيك الجلد　　من خانه حيران لو شئت اهتدى

ظمآن لو شئت ورد

الفصل الثانى والثلاثون

[إلى كم تقول سأتوب؟]

يا قلبُ أتراك تُصْلح مِن هذا الفساد؟، أترى بالبياض هذا السواد؟، قل عسى أصلح ولعل، وكلما استوى قدمى زَلّ، كم تتغير الأحوال وما أتغير، كم تتضح لى الطريق وأتحول!.

لله أمــــر من الأيام أطلبــــه　　هيهات أطلب شيئًا غير مطلوب

وحاجتى أتَقَضَّاها وتمطـــــلنى　　كأنها حـاجة فى نفس يعقــوب

إلى كم أقول سأتوب؟، متى يخجل اللسان الكذوب؟ .

شعر:

كلما أملت يومًا صالحًا　　عرض المقدور لى فى أملى

أقطع الدهر بظن حسن　　وأجلى غمرة ما تنجلى

وأرى الأيام لا تدنى الذى　　أرتجى منها وتدنى أجلى

[ديون الذنوب]

يا كثير ديون الذنوب ما تقضى؟، يا مقيما وهو فى الحقيقة يمضى، يا من كلما حُرِّك إلى الجد سَوَّف، يا من شُدِّد عليه بالوعيد وما تخوف، هذا ممكن النصيحة ثم أنت بنفسك أعرف، مَن عرف ما بين يديه، لم يؤثر الهوى ولم يلتفت إليه، ومن تفكر فى رحيل من كان لديه؛ صار النهوض للتزود متعينا عليه.

شعر:

رحل الأحبةُ عن ديارهم ... أحزن بما أخذوا وما تركوا

وعلمت أين مضى الخليط فما ... أنا بالمبالى أين سلكوا

كم فرح بشهر وإهلاله متهلل لرؤية هلاله، اختطفه الموت فى خلاله، كم مائل إلى جمع ماله، تركة تركة ومر بأثقاله، هل رحم الموت ضعيفًا لضعف أوصاله؟، هل ترك ذا بنين لأجل أطفاله؟ هل أمهل ذا عيال لأجل عياله؟، كم راع قصرا وما راعى عن أبطاله؟، كم أشرف على شريف فلم ينظر إلى خلاله؟

شعر:

دع الفكر فى حب البقاء وطوله ... فهمك لا العمر القصير يطول

أليس إلى الآجال نهوى وخلفنا ... من الموت حادٍ لا يغيب عجول

ومن نظر الدنيا بعين حقيقة ... تيقن أن العيش سوف يزول

وما هذه الأيام إلا فوارس ... تطاردنا والنائبات[1] خيول

[ما أعجب الدنيا!]

تالله ما أعجب بما لها من نظر فى مآلها، ولا بنى قصورها من عرف غرورها، أما أنذركم إعلام ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾[2]؟، وما قصم عرى عزائمكم ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾[3] ؟، أما سمعتم هاتف العبر ينادى ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾[4]؟، إن النظر فى هذه الأمور قلقل قلوب العارفين فكانوا يبكون لا يفترون، البكاء البكاء يا مَن سُلِبَ قلبه، الحزن الحزن يا مَن عَظُمَ ذنبُه.

شعر:

خذل المعينُ على الغريقِ المنجدِ ... فاستدعِ دمعكَ فهو عين المنجد

---

(١) المصائب.

(٢) هود: ١٠٢

(٣) الأنبياء: ١١

(٤) العنكبوت: ٤٠

ما عذره وهو الذى أعددته ... ذخرًا ليوم البين إذ لم تُسعد

لا تعجبوا إذ عان مشربة الثرى ... أجفانه سَحَّت[1] بأحمر مزبد

هى مهجة لا دمعة جمدت وقد ... ذابت أسفًا كأنها لم تجمد

عجبًا لبنيهم فكم من ضاحك ... باك وكم من جازع متجلد

بردت حرارات النفوس وعندهُ ... منكم حرارة لوعة لم تبرد

بنتم فلا طرفى لبهجة منظرى ... يصبوا ولا سمعى للوم مقتد

فإذا سمعتم فى الحديث بقاسى أرداه يوم فراقه

وأنا الذى لسوى النوى صبرى الذى ... أعددته، لغير حادثة الفراق تجلد

يا هذه ألا إن الصبر محمود كما ... زعموا ولكن فى التوى[2] لم يُحمد

[من صفات الصالحين]

اجتمعت أحزان القوم فأوقدت حولها نار الحذر، فأطلقت بقلوبهم الحرق، وأقلقهم الخوف والغرق، لباسهم مُلْفَعَات[3] الغرق، وطعامهم ما حضر واتفق، يا نور وجوههم إذا جن الغسق، ويا حسن دموعهم محدقا بالحدق، انقطع السلك فَسَالت على نسق، لو رأيتهم يتشبثون بذيل الظلام، ويأنسون بنوح الحمام، ويهرعون إلى الفلوات وغاية لذاتهم الخلوات، يدعونه رغبًا ورهبًا، مؤونتهم خفيفة، وعلى أنفسهم ثقيلة، يلبسون الخلقان، ويهجرون الأوطان، عليهم من الله شهود حاضرة، وأعين ناظرة، أجسادهم فى الأرض وقلوبهم فى السماء، ليس لهم همٌّ إلا أمامهم يبادرون بالعمل حِمَامهم[4].

قال معروف[5]: رأيت رجلاً فى مرج الديباج وليس معه شىء، فسلمت عليه وقلت له: أين تريد؟ فقال: لا أدرى، فقلت له: وهل رأيت أحدًا يريد مكانًا لا

---

(١) سال وانصبَّ منها الدمع والماء.

(٢) التوى: الهلاك.

(٣) الملفَعَة: ما يُتَلَفَّعُ به من كساء أو رداء.

(٤) الحِمَام: الموت.

(٥) تقدمت ترجمته.

يدريه؟، فقال: نعم، ثم بكى بكاءً شديدًا؛ حتى رحمته وبكيت لبكائه، ثم سمعت بكاءً من حوله، فقلت له. إنى سمعت بكاء غيرك، قال: نعم إنهم إخوان لى من الجن إذا بكيت ساعدونى، ثم ولّى عنى، فبقيت متعجبًا مما رأيت وسمعت، فتبعته وقلت له: يا أخى فَسِّر لى ما قلت، فعند ذلك صرخ صرخة وخرَّ معشيًا عليه، ثم أفاق وقال أتريد أن تدحل بينى وبين حبيبى؟، وعزته وجلاله لا أُفَسِّرنه إلا بين يديه

شعر.

كم ذا يُنال الضنى منى وأحمله	ويستبيح حِمَى صبرى وأحمده
أطاق قلبى افتراق الحى عنه فما	أدرى بأى فريق منه أنشده
ما لى وتسكاب دمعى فاضحى بهم	أخفى هواى عن الواشى وأجحده
ياللهوى هل عزا لى على سقمى	وجدى الذى كحر النار وأبرده
وأطول ليل المعنى شاء ناظره	من البكاء والرجاء ما شاب أسوده
أمسى ضنى فهو لا لاح يلاطفه	يداه سخصًا ولا طيف يهدهده

[صفات شجرة المحبة]

يا أخى: المحبة شجرةُ تغرس فى الفؤاد، وتُسقى بماء الوداد، أصلها ثابت فى بطن السر، وفروعها فى سماء الهمة، وثمرها لطائف الأنس، تؤتى أُكُلَهَا دائما، والمحب أبدًا عديم القرار، فقيد الاصطبار، لا يسكن أنينه، ولا يهدأ حنينه، نهاره ليل، وليله ويل، ويومه مفقود، وفى قلبه وقود، جوره أحلى من عدله، منعه أشهى من بذله، رده أهنأ من قبوله، لا يردى قتيله، ولا يسلك إلا بتعجب التجمل سبيله.

قال إبراهيم الخواص[1]. كنت أمشى فى البادية فتهت، وعدلت عن الطريق فمشيت ثلاثة أيام بلياليها، فإذا أنا بأشجار كثيرة، وفى وسطها بحيرة، وإذ أنا

(١) تقدمت ترجمته

بقومٍ عليهم مرقعات الصوف غير صور الآدميين، فسَلَّمت عليهم، فردُّوا عليَّ السلام، فسألتهم عن حالهم وعن الموضع الذى هم فيه، فقالوا: نحن الجن وهذا الموضع الذى نحن فيه وهبهُ الله لنا، ونحن أسلمنا على يد النبى ﷺ ونحن المسلمون، فقلت لهم: فكم من ها هنا إلى الموضع الذى فارقت الطريق منه؟، قالوا: مسيرة ثلاث سنين، فقلت لهم: هل وصل إلى هاهنا آدمى غيرى؟ قالوا: نعم شاب من نيسابور جاء فى تسعة أيام، وقد سألناه عن مسألة فأجاب عنها، ومات عندنا فدفناه بيننا، فقلت لهم: أرونى قبره، فمشوا معى إلى قبره، فإذا أنا بقبر كبير، وعند رأس القبر نرجس، وعند الرجل كذلك، وجلست على القبر، وقلت: كيف كانت المسألة؟، فقالوا: سألناه عن قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾[1] قال: الإنابة إلى الله أن تخرج به منه إليه، قلنا: فما معنى العذاب؟، قال: الفراق، وشهق شهقة ومات، قال: فترددت أنا فى الجواب فأخذوا يرقصون، وأنا معهم أرقص[2] ثلاثة أيام، ثم نمت فلم أنتبه إلا وأنا فى مسجد عائشة رضى الله عنها ومعى ذلك النرجس، فبقى معى سنة ثم فقدته.

شعر:

أيفقد من أســـد بابل	ويطمع مـــن بره العادلُ
وكيف مثوى ولا صبره	مقيم ولا ســقمه راحلِ
سقـــام لكنه دائـــم	وصـــبر ولكـــنهُ زائلٌ
وأين السلامةَ من عاشقٍ	له الهوى شُـغل شاغل
دعوه فقد قيل أن الغرام	جنونٌ وما كذب القائل
ولا تسألوا حاضراً غائبًا	كفى مخبراً دمعة السائل
وخوضوا بغير حديث الغرام	فكل حديث هوى قاتل

(١) الزمر: ٥٤.

(٢) قلت: وليس الرقص من الدين فى شىء، بل هو من بدع وآفات الصوفية فانتبه.

[حكاية ولى من أولياء الله]

قال أبو عبد الله السختيانى: خرجت من عسقلان فصحبنى أبو عبد الله البردعى، وكان فاضلاً عالمًا، فلما دخلنا يافا وجدنا قاربًا مقلعًا إلى صور، فركبنا فيه، فلما كان اليوم الثانى سكن الريح، وكان آخر النهار، فأرادوا أن يطرحوا المرْسَى وكان معنا فى المركب شاب حسن الوجه رث الثياب، فقال لنا: قولوا لصاحب المركب يقدم المركب إلى البر قليلا، فأعلمناه ففعل وطرح المرسى، فقام الشاب ونزع ثيابه، واتزر بمئزر، ونزل الماء حتى خرج إلى البر، وغاب ساعة، ورجع معه رزمة فيها حوائج، ثم جاء إلى المركب ولبس ثيابه، قال السختيانى: فقال لى الشاب: هذا الرجل الذى معك ما يكون منك؟ قلت: هو رفيقى، وهو رجل صالح، فقال: ادْعُهُ إلىَّ، فدعوته، فقال لى وله: اعلما أنّى ميت الآن[1]، فإذا مت فافتحا هذه الرزمة، وكفنانى بما فيها، وضعا ثيابى هذه فى المخلاة، وتكون معكما، فإذا دخلتما إلى صور فأول من يلقاكما ويقول لكما: هاتا الوديعة؛ فادفعاها إليه. قال: فما صلينا المغرب قال الركاب: إن رفيقكما نائم لم يُصَلِّ المغرب!، فقلنا: كيف يصلى ميت؟، فقالوا: الساعة كان يكلمنا، فَحَرَّكوه فإذا هو ميت، قال: فخرجنا إلى البر وبسطنا حصيراً وغسلناه عليها، وحفر له رجال قبرا، فلما فرغنا من غسله فتحنا الرزمة، فإذا فيها ثياب حسنة وصرة فيها شىء كالكافور ورائحة المسك؛ فأدرجناه وطيبناه، وصلينا عليه ودَفَنَّاه، ورجعنا إلى المركب وسافرنا، إلى أن وصلنا صور عند طلوع الشمس، فلما خرجنا من المركب وإذا بغلام قد استقبلنا، حسن الوجه، وعلى رأسه منديل ديبقى، وعليه غلالةَ شرث[2]، فَسَلَّم علينا وقال: هاتا الوديعة، فقلنا له: نعم وكرامة، ادخل بنا المسجد، فدخلنا فقلنا له: أخبرنا عن الميت ومن الذى دفع له الكفن؟ ومن أنت؟، فقالت: أما الميت فكان من الأبدال[3] الأربعين، وأما الذى دفع له الكفن فالخضر

---

(١) سبحان الله علام الغيوب. فمثل هذا لا يعلمه إلا الله.

(٢) الدّيبقى: نوع من الثياب الرقيقة تُنسب إلى ديبق.
الشَّرْثُ: الخَلَق (البالى) من كل شىء

(٣) الأبدال: قوم من الصالحين يقيم الله بهم الأرض، أربعون فى الشام، وثلاثون فى سائر البلاد، لا يموت منهم أحد إلا أقام مكانه آخر..، قلت: ولم يرد فى الأبدال حديث صحيح، انظر فى ذلك: السلسلة الضعيفة للألبانى (٢/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠)، كشف الخفاء (١/ ٢٤ ـ ٢٧)، دفاع عن السنة (٧ ـ ١٠) للشيخ على حشيش.

عليه السلام[1]، وهو الذى عرَّفه بموته[2] وأما أنا فبدله، ثم أخذ المخلاة، وأخذ منها الثياب الخلقان، ونزع ما كان عليه من الثياب، ولبس الخلقان، وقال لنا: بيعوا ثيابى وتصدقوا بثمنها، قال: فدخلنا البلد فلما كان فى اليوم الثانى بعد العصر أخرجنا السراويل وفيه تكة[3] أرمنية فدفعناها للمنادى، فأخرج التكة وطرح السراويل وقال: حتى أبيع التكة فإنها مثمنة، فلم يكن إلا ساعة حتى جاء المنادى ومعه خلق كثير فتعلقوا بنا وقالوا لنا: من أين لكم هذه التكة؟ وحملونا إلى دار عظيمة والصياح فيها، فإذا شيخ حسن الوجه جالس يبكى، والناس يعزونه، فقالوا للشيخ: لقد جئنا بالقوم، فقال الشيخ: من أين لكم هذه التكة؟، قال: فذكرنا له القصة من أولها إلى آخرها، فَخَرَّ الشيخ ساجداً لله تعالى، وقال: الحمد لله الذى أخرج من صلبى مثل هذا، ثم أقبل علينا، ودفع لنا ذهبا كثيرا، وقال: تصدقا به عنه، قال أبو عبد الله: فبينما أنا بعد سنين واقف بعرفات وإذا شاب حسن الوجه عليه رداء شرث فسلم علىَّ فرددت عليه السلام، فقال: أما تعرفنى؟، قلت: لا، قال: أنا إبراهيم الصورى صاحب الأمانة، فعرفته وسررت برؤيته، ثم مضى وتركنا، وكان إلى جانبى رجل فقال لى: من أين تعرف هذا الفتى؟، فقلت: إنه من الأبدال الأربعين، فقال: يا أخى هذا اليوم من العشرة، ثم غاب عنى فلم أره.

شعر:

إذا استُنْجِدُوا لم يسألوا من دعاهُم لأيةِ حــــــربٍ أو لأى مكـــــانِ

الفصل الثالث والثلاثون

[العمر النفيس ... والهوى الخسيس]

اسمع: يا من أنفاسه محفوظة، وأعماله ملحوظة، أتنفق العمر النفيس فى نَيْل الهوى الخسيس؟.

شعر:

جَدَّ الزمانُ وأنت تلعبُ والعمرُ فى لا شىء يذهبُ

كم كم تقول غداً أتوب غـداً غـداً والمـوت أقـربُ

(١) الراجح أن الخضر غير حى حتى الآن، انظر فى ذلك ما كتبه الشيخ على حشيش فى كتابه «دفاع عن السنة» (١٢٤ ـ ١٢٨)، انظر للمزيد: فتح البارى (٦/ ٤٩٩ ـ ٥٠٢)، الإصابة (١/ ٤٢٩ ـ ٤٥٢)، الحاوى للسيوطى (٢/ ٢٥٠)

(٢) قلت. سبحان عَلاَّم الغيوب.

(٣) التكة: رباط السراويل.

[تبخل بالمال وتجود بالعُمر!]

يا هذا، أما عمرك فى كل يوم يُنتَهب؟، أما المعظم منه قد ذهب؟، فى أى شىء؟ فى جمع الذهب؟، تبخل بالمال وبالعمر تَهَب، يا من إذا خلى تفكر وحسب، أما نزول الموت فما حسب، لك نوبة لا تشبه النُّوَب، وبين يديك كربة لا كالكرب، تطلب النجاة ولكن لا من باب الطلب، تقف فى الصلاة إن صلاتك عجب، الجسم حاضر والقلب فى شَغَب، أنا أعلم بك منك حب الدنيا قد غلب، ومتى استولى الهوى على قلب لم يفلح وكتب.

شعر:

يا آدمى أتدرى ما مننت به	أم دون ذهنك ستر فليس ينجاب
يوم ويوم ويفنى العمر فى لعب	عام جديب وعام فيه إخصاب
فلا تغرنك الدنيا بزخرفها	وإرثها وإن بلاها عاقل صاب

إخوانى، كأنكم بالدنيا التى قد تولت، وبالنفوس الكريمة قد هانت وذلت، وكأنكم بكؤوس الأسى قد أنهلت وعلت[1]، وبحمول الظاعنين على الأسف قد استقلت، متى يقال لهذه الغمرة التى جلت قد تجلت؟، واعجبًا لنفس ما تنتبه وقد زلت، كلما عقدنا عقدة بنفعها حلت.

كم مستيقظ وقد فات الوقت، ينظر إلى نفسه بعين المقت، وتصبح بنصيحة لقد صدقت، وينادى منادى الكسل أنت الذى عوقت، فتجيبه أنت من سُكرك ما أفقت. كم قدم إلى القبور قادم، كلهم على فراش النوم نادم.

أطاعوا ذا الخداع وصَدَّقوه	وكمْ نصحَ النصيحُ فكَذبوهُ
ولم يرضَوا بما سكنوا مشيدا	إلى أن فضضوه وذَهَّبوهُ
ألظوا[2] بالقبيح وتابعوه	ولو أمروا به لتجنبوه
نهاهم عن طلابِ المالِ زهد	ونادى الحرصُ ويلكم اطلبوهُ

---

(١) النَّهَلُ: أوَّل الشُّرب، تقول: أنْهَلْتُ الإبل، وهو أوَّلُ سَقْيِهَا، والعَلَلُ: الشَّرْبَة الثانية، وقيل: الشُّرب بعد الشرب تباعًا. والمعنى: أنهم يشربون حتى يرتوون تمامًا من كؤوس الأسى.

(٢) رضوا.

اسمع يا من بالهوى يغرى ويلهج[1]، انسيت عن محبوبك تزعج؟ تفكر فى حُلة من البلى تُنسج، يا من بضاعته كلها تبهرج، ضيَّقت على نفسك المخرج، انتبه فهذه خيول الريح تُسرج.

شعر:

يوم يبقَ من أيامِ جمعٍ إلى منى　　　إلى موقف التجميرِ غير أمان

[يا عدو نفسه .. يا عبد فلسه]

اسمع يا عبيد فلسه، يا عدو نفسه، تعانق الدنيا بعين الحرص عناق اللام للألف، متى تزل الدرهم من القلب؟، أين منزل الثرى من الثريا؟. ويحك أتبحث عن حتفك بظلفك؟[2]، وتجدع بسيفك مارن[3] أنفك؟ ما أكرم نفسه قط من لم يهنها، فاحذرها فكل ما يجرى عليك منها، يا موثق الأقدام بقيد العوائق، فاتك السَّبق فاجهد أن لا تكون لاحق، مَن طَلب المعالى سهر الليالى، لولا صبر المضمر[4] على قلة العلف ما قطع سباق، ما مُدَّ سجاف[5] ﴿نعم العبد﴾[6] على فتنة ﴿ووَهَبْنَا لَهَ﴾[7] حتى جرت فى أمانة ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً﴾[8]، من لم تبك الدنيا عليه لم تضحك الآخرة له.

[حقيقة التوحيد والمحبة والزهد، ومعانيها]

قال بعض السادة: بينا أطوف بالكعبة إذ نظرت إلى جارية عليها جبة من صوف، وخمار من صوف، وسراويل من صوف، فجاءت حتى وقفت خارج الحجر، وكان بالحجر أربعة يتذاكرون فسَلَّمت عليهم، وقالت: أيكم الجنيد؟، فقال لها أحد الأربعة: هو هذا مُكَلِّمك، فقالت: أنت الذى تزعم طائفة التصوف أنك أعلمها بعلم التوحيد؟ فقال: أسأل الله بركة ما يقولون، فقالت: يا جنيد!

---

(١) لهج بالأمر: أولعَ به واعتَادَه.

(٢) الظِّلف والظِّلف: ظُفر كل ما اجتر من الحيوان (ظفر البقرة والشاة والظبى وأشباهها)

(٣) المَارِنُ من الأنف: ما دون القصبة، والمارنان: المنخران.

(٤) تضمير الفرس أن تعلفه حتى يسمن، ثم ترده إلى القوت المعتاد، وذلك فى أربعين يوما وهذا يزيده قوة فى جسمه.

(٥) السجاف: الستر.

(٦) ص. ٤٤.

(٧) ص: ٤٣.

(٨) ص: ٤٤

وما التوحيد؟، فقال: قطع الكيفيات واستحالة المثليات، فقالت: هذا بعض طرق التوحيد، فما حقيقة التمجيد والتحميد؟، فقال: عدم القياس، وافتقار الإحساس والتنزيه عن الأجناس، قالت: اسمع يا جنيد؛ التوحيد: **ألف ولامٌ وتاءٌ وواوٌ وحاءٌ وياءٌ ودال، فالألف:** إعلام الواحدانية، بعدم القبلية، واستحالة البعدية، للخروج عن حصول النفسانية، فى معرفة رب البرية، **واللام:** للملك والملكوت، والعزة والجبروت، للعقول مجال فى حقيقة الإدراك، إلا الأفراد والاضطرار والأعوان والعدم والهلاك، **والتاء:** تباين المشارب، وتفاوت المناهج والمكاسب، إعلامًا بالتقديس عن القادسات، والتنزيه عن كيفية الكائنات، **والواو:** واو الهوى، وشرب الجوى، وواو القسم ومزن المعارف والحكم، **والحاء:** حالة المحب الذاكر، والموحد الشاكر، وحيرة العقول والأذهان، واضطراب لمشاهدة شهود حقيقة التوحيد كل جنان، **والياء:** ما يحدث بأجسام العارفين من البلايا، وبجيوشهم من المصائب والرزايا، لكى يدخر لهم فى الآخرة الدرجات العلى، **والدال:** دنو الأرواح، على بساط الروح والارتياح، وعدم الإجرام وفناء الأجسام، وإعداد الحركات ومراعاة الخطوات، وكل ذلك إعلامٌ للعبيد، ودلائل على حقائق التوحيد. ثم قالت: يا جنيد أتدرى فوق هذا؟ قال: لا علم لى، ثم غشيه من كلامها حال فَخَرَّ مغشيا عليه.

شعر:

لقد أملى لهم أحاديث الهوى	برق أضاء لنا على ذات الإضا
لطفت إشارته فأشكل فهمها	قد ذاك شوقى أن يعاد إذا أضا
أبغضتُ حسن الصبر من أخفيتُه	فاعجب لمن أضحى محبا مبغضا
سقمى وبرئى فى يديه وإنما	يشفيك من داء الهوى من أمرضا

ثم قالت: أيكم الشبلى؟ فقال: هو مكلمك، فقالت: أنت الذى تزعم طائفة التصوف أنك أعلم بحقائق المحبة؟، فقال: أسأل الله بركة ما يقولون، فقالت: يا شبلى وما المحبة؟، فقال الشبلى يا أمة الله المحبة عدم المطلوب، وبذل المرغوب فى رضاء المحبوب، فقالت: هل لك ذوق فوق هذا؟ فقال: المحبة بذل للنعم،

واستعذاب للنقم، والتسليم للرضا، والدخول تحت أحكام القضا، ومسرة للقلوب بما يفعل المحبوب، فقالت: يا شبلى أنت تصف طرائقها فأين منك حقائقها؟ فقال: أليس حقائق المحبة قلوب مع الحق وأجسام مع الخلق؟، ثم أنها قالت: يا شبلى اسمع، اعلم أن المحبة تذوق ربانى، يساعده فى الحياة وجود جسمانى، مادة تمد من الغيب، وتتصل بنور العقل، يقذفها القادر الجبار فى ريح الأسرار، لها كمون فى خزائن الأضمار، ككمون النار فى الأحجار، إن قدحته أورَى[1]، أو تركته توارى، وأيضا المحبة ريح يدور مع شغف القلب، يديرها سرٌ متحدٌ عن موارد الغيب، فمتى خرق ريح الوداد شغف الفؤاد ثم نمتْ ملحة الحب فوطئ الحب بساط القلب، أتعلم هذا يا شبلى أم عندك زائد عليه؟ قال: فلما سمع كلامها خرَّ مغشيًا عليه.

شعر:

طرقتْ ريحُ الصبَا مغناكَ وهنا	سحرًا حاملهُ ابنًا لنَا
نقلتَ عنها أحاديث هوى	لفهمت من غير أن تُسمع أذنَا
بمعانٍ فِى السر خافية	فهى لا يفهمها إلا معنا
ذكرها حب حنين أبدًا	وأخو الشوق إذا ذُكر حنَا

ثم قالت: أيكم بنان الحمَّال؟، فابتدر إليها وقال: ها هو مخاطبك، فقالت: أنت الذى تزعم طائفة الصوفية أنت أعلمها بحقائق الزهد؟، فقال: أسأل الله بركة ما يقولون، فقالت: يا بنان أتدرى ما الزهد؟ وهل هو إلا من مقامات العوام، يا بنان اعلم أن الدنيا لا تساوى ولا تعدل عند الله جناح بعوضة، فما قدر نصيبك منها حتى تزهد فيه؟، أتدرى يا بنان ما الزهد؟ قال: الزهد قطع الحظوظ النفسانية، وعدم التعلق بالبرية، والتسليم فى جميع الحالات، والرضا بجميع الأقدار الكائنات، والإعراض عن الملاوة[2] الدائرة، والإقبال على طلب الآخرة، فقالت: ويحك يا بنان أنت واصفه بطريقته فأنا لك واصفةٌ بحقيقته، اعلم أن

(١) أورى: أوقد واشتعل.
(٢) الملاوة: مُدَّة العيش.

الزهد: زاءٌ وهاءٌ ودالٌ، فالزال: الزينة، والهاء: الهوى، والدال: الدنيا، فمن سلك طريق الزهد ترك الزينة والهوى والدنيا، يا بنان إن لله عبادًا زهدوا فى الدنيا والآخرة، تابعوا الجد لا خوفًا من النار، ولاطمعا فى الجنة، وزهدوا حتى فى أنفسهم، وبذلوا فى الله كل مجهودهم، فاستعذبوا الموت، واستطابوا الفوت، لما عاينوا ما بين العرش والفرش حظوظا كلها، تركوا جميع المخلوقات، وأعرضوا عن جميع الحادثات، قال: فلما سمع كلامها خرَّ مغشيا عليه.

شعر:

أعِد ذكرى تلك العهودِ ترفقا	أعددت ذكرى أم أردت شمولاً
يا للهوى العذرى أضحك شامتًا	.منا وأبكى لائما وعذولاً
أضحت جفونى بالبكاء قصيرةً	قرحًا وليلى بالسهاد طويلاً
لم يدر ذو القلب الخلى بأننى	أمسيتُ ذا كلفٍ به مشغولاً
ظن السلو ولا سلو لذاهلٍ	جمدت مدامعهُ وذاب نحولاً
ومن العجائب أن خصب دموعه	فى الخد أحدث فى الضلوع نحولاً
فسل الصبا عن عصر أيام الصبا	إن كنت رمت لعهده تبديلاً

ثم أقبلت على الباقى من الأربعة: أنت يا مرزويه؟ قال: نعم فمن أين عرفتينى من غير سابق اجتماع؟ قالت: اعلم أن لله سبحانه وتعالى بساط فى حضرة الملكوت، تتعارف عليه الأرواح بتعريف ذى العزة والجبروت، يا مرزويه أنت الذى تزعم طائفة التصوف أنك أعلم بحقائق المشاهدة؟، فقال: اسأل الله بركة ما يقولون، قالت: فما المشاهدة يا مرزويه؟، قال: تسريح العيان، فى مشاهدة الملك الديان، فالعقل يشاهد أسرار الغيوب الدنية، فى سر القلب مع عدم الكيفية، واستحالة القَبْلية والبعدية، فقالت: أيدعى مشاهدة الأسرار من هو مشتغل بالنظر إلى الحادثات؟، إنما المشاهدةُ لقومٍ اجتباهم مولاهم، فاصطفاهم وحياهم، وأكرمهم وحباهم، أخذهم لهم منهم وأغناهم به عنهم، فغابوا عن

مشاهدة العالَم بالعليم، وتركوا المحْدَثَ إجلالا للقديم، فالاشتغال بالله قطعهم عما سوى الله، فأنى سينطقوا أُنطقوا بالله، وأنى قاموا قاموا بالله، وأنى قعدوا قعدوا بالله، لا يقطعهم قاطع عن الله، ولا يعرفون فى الدارين إلا الله، بعينى أنظر إليهم على نجب تخرق بهم الحجب، إلى أن أناخوا بباب الملك والملكوت، فاتحفوا بتحف لطائف معارف الجبروت، أبلغتَ أنت هذا المقام يا مرزويه؟ أم عجزت فأدلك عليه؟، فلما سمع قولها خرَّ مغشيا عليه، ثم أفاق فأقبل عليها، وقال: دلينى رحمك الله. فقالت: يا مرزويه أول مقام المشاهدة ما تبصر الآن، وآخره ما تبصره يوم القيامة.

قال المخبر: ثم أنها أزالت إزارها عن رأسها، وبسطته على الأرض، ووضعت أقدامها عليه ، وإذا بريح قد هبَّت، فرفعت الإزار تلك الريح، وغابت فى الهواء، رضى الله تعالى عنها وعن المسلمين أجمعين.

***

تمت المجالس والمواعظ لابن الجوزىٌ، عَامَلَهُ الله تعالى بلطفه الخفى، على يد الواثق بالله الغنى، أبى العينين الزينى المالكى الأحمدى، اللهم أحسن خلاصه من الدنيا بلا كدر، وأدخله الجنة ومتعه لوجهك بالنظر، وارحمه وارحم والديه جميعا، وكل المسلمين عاصيًا ومطيعا، آمين.

***

تَمَّ الكتاب والحمد لله رب العالمين، وكان الفراغ من التعليق عليه فى ظهيرة الثلاثاء غُرَّة رجب لسنة ١٤١٧هـ الموافق بأمر الله وإذنه لليوم الثانى عشر من شهر نوفمبر من سنة ١٩٩٦م . . والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

مجدى محمد الشهاوى

شرباص . فارسكور. دمياط

بريد ٣٤٧٢١ ـ هاتف ٤٦٦٧٨٩

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة